وكالة بيت مال القدس الشريف

نظمي الجعبة

القدس
في الكتابات التاريخية الإسرائيلية

منشورات وكالة بيت مال القدس الشريف

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

القدس
في الكتابات
التاريخية الإسرائيلية

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

331320

نظمي الجعبة

هدية
مكتبة جامعة
بيرزيت
نظمي الجعبة

القدس
في الكتابات
التاريخية الإسرائيلية

SPC
DS
109.9
J83
2019
BZU

مكتبة جامعة بيرزيت
080346
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
169543

Digitized by Birzeit University Library

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر - وكالة بيت مال القدس الشريف.

وتصرح الوكالة بأنها بذلت كل ما في وسعها للتأكد من أن المعلومات الواردة في هذا الكتاب صحيحة عند النشر. لذلك لاتعود إليها أي مسؤولية تجاه أية جهة أو طرف عن أي خسارة أو ضرر ناجمة عن خطأ أو سهو، وبالتالي فهي لا تتحمل، في أي حال من الأحوال، أية مسؤولية مادية أو معنوية لما قد يترتب على مضامين الكتاب ومحتوياته، والتي تبقى، حصريا، على ذمة مؤلفه.

All rights reserved: No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the editor - the Bayt Mal Alquds Asharif Agency (BMAQ).

Although the BMAQ have made every effort to ensure that the information in this book was correct at publication time. Therefore, it does not assume any liability to any party for any loss or damage resulting from error or omission, and does not assume, in any case, any material or moral responsibility for what may be related to the contents of the book, which remain, exclusively, to its author.

القدس في الكتابات التاريخية الإسرائيلية

المؤلف : نظمي الجعبة

الناشر: منشورات وكالة بيت مال القدس الشريف

الإيداع القانوني : 2019MO0486

ردمك: 978-9954-9278-7-8

طبعة : 2019

الطباعة والإخراج الفني: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط

وكالة بيت مال القدس الشريف

الهاتف: 04/03 59 56 537 212+

الفاكس: 05 59 56 537 212+

البريد الإلكتروني : contact@bmaq.org

الموقع الإلكتروني : http://www.bmaq.org

Digitized by Birzeit University Library

الفهرس

تقديم 7

مقدمة..... 11

مدخل نظري وتاريخي 15

أولا: تاريخ «البحث العلمي» في العلوم التاريخية في فلسطين بشكل عام والقدس بشكل خاص 27

ثانيا. مفهوم تاريخ القدس في الرواية الإسرائيلية 91

ثالثا: أعمدة تاريخ القدس الخمس: هيكل أول وهيكل ثان وعام 1882 وعام 1948 وعام 1967 145

رابعا: المسجد الأقصى، 173

القلعة الأخيرة..... 173

ملاحظات ختامية 201

قائمة مختارة للمصادر والمراجع (العربية والمترجمة) 205

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية 207

صفحات الكترونية 215

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

تقديم

ما تزال القدس، كما كانت، مركز اهتمام من قبل العالم، سواء لقيمتها الدينية المتفردة باعتبارها قبلة المسلمين الأولى ومهد المسيح عليه السلام، أو من حيث قيمتها الحضارية وإجماع العالم على وجوب حمايتها وصيانتها لتبقى معلما حُرّا يُكرس قيم التآلف بين بني البشر، لمن يُقَدر هذه المكانة السامية ويسعى إلى صيانتها.

وقد كتب المؤرخون عن فضائل الأرض المباركة وسكانها ونقلوا أجواء الطمأنينة والهدوء التي سادت بين سكانها ومدنها، حتى حل زمن الاحتلال ورُفعت الرايات للسيطرة على المدينة وطمس معالم تاريخها بالتدليس تارة وبالرواية الملفقة طورا، فاهتم البحاثة بفضح هذه الأكاذيب وتبيان زيفها.

في هذا الصدد يرفض العالم كل ما من شأنه أن يلحق الأذى برمزية المدينة ووضعها القانوني ويرهن مستقبلها، والإصرار على التمادي في إيذائها وطمس هويتها الدينية والحضارية بشكل يعاكس الجهود المبذولة لإحلال المناخ الملائم لإقامة السلام على أسس الشرعية الدولية والقرارات الأممية ومبادرة السلام العربية، التي تؤكد، جميعها، على ضرورة المحافظة على الطابع الخاص للمدينة المقدسة، وعدم المساس بوضعها القانوني.

من هُنا يأتي اهتمام وكالة بيت مال القدس الشريف، في إطار الاختصاصات المخولة إليها، بنشر الدراسات المُحكَّمة حول المدينة وتاريخها وعمارتها، ومكانتها الدينية والحضارية، للمساهمة في بناء وعي دولي إنساني

Digitized by Birzeit University Library

نوعي قادر على تفهم المرحلة بكل زخمها السياسي والاجتماعي ويستلهم رؤى إستراتيجية تعي التاريخ المشترك للشعوب والأرض المشتركة والمصير المشترك، وتوظيف الإمكانيات المتاحة والمقومات المشتركة لبناء مستقبل يتسع للجميع.

غير أن هذا الوعي، لا يجب أن يتشكل حصريا في نظرنا حول طرح «إسلامية القدس» والدفاع عنه لمجرد الرغبة في دحض مزاعم «يهودية» المدينة، بل يتعدى ذلك إلى تكريس وضعها الإنساني العالمي الجامع، الذي يقوم على توازن عميق بين حقوق المسلمين وحقوق غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، من دون تسخير للعمران أو الآثار للتأثير على التوازن الطبيعي والجغرافي والديمغرافي للمدينة المقدسة، كما تفعل طبقة من الكتاب والمؤرخين الإسرائيليين.

لذلك يكون دائما مُفيدا استعراض آراء الغير والإنصات لها بالاهتمام الكافي الذي يسمح بفهم توجهاتهم. ومن هنا يأتي طرحنا لدراسة الدكتور نظمي الجعبة بعنوان «القدس في الكتابات التاريخية الإسرائيلية»، لنساهم في التعريف بمركز القدس وقيمتها في كتابات هؤلاء وإماطة اللثام عن عناصر العقيدة المستحكمة، التي باتت ترقى بالنسبة إليهم إلى مستوى الحقيقة التي لا تقبل الجدال.

في هذا السياق وقف الدكتور الجعبة في دراسته التي بين أيدينا على مركز المدينة المقدسة في كتابة تاريخ إسرائيل وفي كتابة تاريخ اليهود، على حد سواء. وخلص إلى أن ما يُعتبر «حقيقة تاريخية» في نظر هؤلاء ليس سوى بناء من زجاج أُرسيت دعائمه على طمس حقائق التاريخ وتحرير سطوة الأسطورة الدينية لتشكيل عناصر الهوية المزعومة.

Digitized by Birzeit University Library

بيد أن إسرائيل، ورغم سطوتها وجبروتها، تجد نفسها في مواجهة الدراسات الجادة التي تنفي الكثير من مكونات التاريخ المتخيل لليهود، جعلها تحث الخطى لإعلان قائمة التراث اليهودي في فلسطين في إطار الصراع المستمر على الأرض الذي لم تفتر جذوته أبدا، ويأخذ في كل مرة لبوسا مختلفا.

لذلك نحن نحتاج إلى مثل هذه البحوث والدراسات التي تدحض الرواية الإسرائيلية وتنتصر للحق من معين الحقيقة، من دون أن يكون ذلك على حساب المدينة وتوازنها البيئي والعمراني، ومركزها الديني والحضاري، ووضعها القانوني.

الله الموفق./ .

وكالة بيت مال القدس الشريف

Digitized by Birzeit University Library

[illegible]

[illegible] أو الآثار [illegible]
[illegible] المقدسة، كما تعمل طبقة من الكتاب [illegible]

[illegible] والانعكاسات [illegible] بالأحكام [illegible]
[illegible] هنا يأتي طرحنا لدراسة الدكتور
[illegible] في الكتابات التاريخية الإسرائيلية [illegible]
[illegible] في كتابات هؤلاء وإماطة اللثام عن عناصر
[illegible] التي باتت ترقى بالنسبة إليهم إلى مستوى الحقيقة التي
لا [illegible].

في هذا السياق [illegible] الدكتور [illegible] في دراسته التي بين أيدينا على
[illegible] في كتابة تاريخ إسرائيل وفي كتابة تاريخ اليهود على
[illegible] تاريخية في نظر هؤلاء ليس سوى
[illegible] حقائق التاريخ وتحرير سطوة
[illegible]

Digitized by Birzeit University Library

مقدمة

« ... على إسرائيل الحفاظ على الوضع الراهن في القدس (السيادة الإسرائيلية)، ويمكنها الدفاع عن هذا الموقف بسهولة. ان ادعاءات الفلسطينيين في القدس هي ضعيفة. لم يكن هناك أبدا دولة فلسطينية، وقد كان اليهود أغلبية في القدس منذ 150 سنة. لم تكن القدس أبدا عاصمة لأي كيان سياسي، طبعا ما عدا للدولة اليهودية. بالإضافة إلى ذلك، فإن سكان العرب في القدس، لو يتم تخييرهم، سيفضلون على كل الأحوال العيش تحت السيادة الإسرائيلية على أن يصبحوا جزءا من دولة فلسطينية فاشلة.»[1]

لم أكن أنوي كتابة هذا البحث وذلك بسبب الأعداد الكبيرة من المقالات والكتب التي سبقتني إلى ذلك، لكنني افتقدت إلى دراسة شاملة تجمع الموضوع من جوانبه المختلفة، وأنا بهذا ليس هدفي أبدا الهجوم على الرواية الإسرائيلية، بقدر ما أنني أنوي مناقشتها بهدوء بالاعتماد على مصدرين وهما التاريخ والآثار، لاعتقادي الراسخ بتكاملهما وعدم القدرة على الفصل

(1) هذا اقتباس من ورقة بحثية قدمها البروفيسور عنبار، تحت عنوان «يستطيع نتنياهو ان يقول لا»، وذلك ردا على طلب الرئيس الأمريكي وقف الاستيطان اليهودي في كل المناطق المحتلة بما فيها القدس. والبروفيسور عنبار هو مدير مركز بيغن ـ السادات للدراسات الإستراتيجية في جامعة بار ايلان، وهو أستاذ العلوم السياسية في نفس الجامعة. أنظر مقالته: Efraim Inbar, "Netanyahu Can Say No" in *BESA Center Perspectives Papers No. 103, March 25, 2010.* http://www.biu.ac.il/SOC/besa/perspectives103.html

Digitized by Birzeit University Library

بينهما، وهما بالتأكيد من فروع العلوم التاريخية. ولكن قبل البدء بالموضوع، لا بد من تقديم ومراجعة أعمال من سبقني، وذلك لإجلال عملهم وتقديمه للقارئ وإظهار حرصهم على تاريخ مدينتي من جهة، ولتبرير صدور هذا الكتاب من جهة ثانية.

لن أتطرق إلى الأدبيات الكثيرة التي عالجت الاستشراق اليهودي في الغرب، فهو أمر أوسع من بحثنا هنا ويتجاوزه كثيرا، إلا إذا تعلق الأمر بكتابة تاريخ القدس، فلا يعود في كثير من الأحيان هناك فرقا إن كان يهوديا أو إسرائيليا، وبالتأكيد هناك الكثير من الشواذ عن هذه القاعدة.

خليل عثامنة، ناقش مكانة القدس في الإسلام في العديد من مؤلفاته[1]، لكنه وبسبب أهمية الموضوع، عاد وخصص لذلك كتابا مستقلا سماه «القدس والإسلام»[2]، لخص فيه زبدة أفكاره حول ذلك مركزا على المصادر الإسلامية ومعيدا لها أهميتها في نقاش الموضوع، ولم يتردد أبدا في نقاش مواقف المؤرخين الإسرائيليين والرد على مقولاتهم سواء المتعلقة بالبعد الديني أو البعد السياسي لمدينة القدس، كما ناقش بتوسع مواقف المستشرقين اليهود الأوروبيين من تاريخ القدس ومكانتها في الإسلام.

أما المقدسي كامل العسلي، أغزر من كتب من الفلسطينيين حول القدس[3]، فقد شدد في كتاباته على البعد الحضاري والثقافي للقدس في التراث العربي والإسلامي، وأبرز تراثها المعماري، مفسرا في كثير من المواقع

(1) أنظر كتاباته حول تاريخ ومكانة القدس في صدر الاسلام، خليل عثامنة، فلسطين في خمسة قرون، بيروت 2000؛ «القدس عاصمة فلسطين وعاصمة الأمويين الأولى»، في كتاب القدس الإسلامية، تحرير محمد غوشة، عمان، 2009.

(2) خليل عثامنة، القدس والاسلام: دراسة في قداستها من المنظور الإسلامي، بيروت، 2013.

(3) أنظر كتب كامل العسلي الكثيرة والتي تخصصت كلها تقريبا حول القدس.

Digitized by Birzeit University Library

لماذا هذا الاهتمام بالمدينة، وخصص كتابا هاما حول فضائل بيت المقدس ناقش خلاله مكانة بيت المقدس في الإسلام وقدم مخطوطات فضائل بيت المقدس من حيث مكان وجودها ومحتوياتها، وناقش في كتابه هذا بعض المؤرخين الإسرائيليين، لكنه لم يسترسل في ذلك، وفضل أن يحرر كتابا حول تاريخ القدس عبر التاريخ جمع فيه مجموعة من العلماء من العرب والغرب، ليكون كتابا بديلا، نشر أولا باللغة الإنجليزية، وبعدها ترجمه إلى العربية[1].

وقدم المؤرخ المقدسي طريف الخالدي مقالة هامة في الموضوع ناقش فيها مشكلات منهجية في كتابة تاريخ القدس معيدا الاعتبار للمرويات الإسلامية حول القدس، داحضا بذلك الكثير من الأبحاث التي شككت بصدقية الرواية الإسلامية المبكرة، التي اعتبرت الروايات الإسلامية حول القدس متأخرة ومصطنعة ومسيسة[2].

وساهمت المقدسية نادية أبو الحاج بنقاش مركز وهام حول الآثار والسياسة في إسرائيل بشكل عام، واضعة لذلك إطارا نظريا مثيرا استقطب ردات فعل غاضبة من جانب اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه يثبت بشكل واضح كيفية تسخير التاريخ والآثار كأدوات سياسية في كتابة التاريخ في إسرائيل، وبالتأكيد حظيت القدس بمساحة وافرة في نقاشاتها[3].

---

(1) كامل العسلي، **مخطوطات فضائل بيت المقدس: دراسة وببليوغرافيا**، عمان، 1981؛ **القدس في التاريخ**، عمان، 2009.

(2) طريف الخالدي، «الصراع بشأن تاريخ القدس»، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، المجلد 19، العدد 73، شتاء 2008، ص 118-123.

(3) Nadia Abu El-Haj, *Facts on the Ground: Arcaheological Practice an Territorial Self-Fashining in Israeli Society*, University of Chicago Press, 2001.

Digitized by Birzeit University Library

أما المغربي محمد رضوان، فقد قدم دراسة هامة تحت عنوان «القدس الشريف في الاستشراق اليهودي (الرياض 2014) حاول من خلاله تتبع مكانة القدس في الديانات السماوية وكيفية محاولة المستشرقين اليهود العاملين في الغرب على تهيئة المناخات المختلفة لقبول «حق إسرائيل في الوجود» على أرض فلسطين وجعل القدس المكان الذي لا يقبل إلا القدسية اليهودية العتيدة، كما ينقاش الحفريات الإسرائيلية المحمومة (بعد العام 1967) بحثا عن الهيكل ونتائجها، ويراجع التاريخ اليهودي بواقعية وبعيدا عن التاريخ المتخيل. كما ناقش الكاتب المكانة المقدسة للقدس في كل من المسيحية والإسلام.

وبالتأكيد، من الممكن سرد الكثير من الكتابات العربية التي ظهرت خلال العقدين الأخيرين، والتي حاولت بدروها نقد الرواية التوراتية، ويبدو أن الأمر آخذ بالاتساع، وهي ظاهرة مهمة، ولا بد من رصدها. من هذه المحاولات ما كتبه محمد الأسعد «مستشرقون في علم الآثار» (بيروت 2010)، والذي يحاول مناقشة المرويات التوراتية وإسقاطها على الآثار في محاولة لإسكات التاريخ الفلسطيني والاستحواذ عليه، وكيفية تسخير علم الآثار في سبيل الاستيلاء على الأرض وتهويدها. كما يتطرق إلى المقموعين من علماء الآثار الذين تعرضوا إلى هجوم كبير نتيجة مواقفهم الموضوعية من تاريخ فلسطين الأثري، ومن ضمنهم الأمريكي ألبرت غلوك (تم اغتياله) وتومس تومبسون. ويفسر في كتابه كيف تمت الولادة القسرية لتاريخ فلسطين القديم، ويمكن الاسترسال في عرض ما كتب حول الموضوع.

Digitized by Birzeit University Library

مدخل نظري وتاريخي

تعتبر مراجعة الأدبيات التاريخية والسياسية الإسرائيلية حول القدس مهمة في غاية الصعوبة، ليس لأنه من الصعب فهم نصوص هذه المؤلفات وتحليل دوافعها ومصادرها والقوى المحركة لها وبالتالي الرد عليها بلغة العلم، بل بسبب الأطنان الهائلة من الكتابات والتي تمت بكل لغات العالم من جهة، ولاستطاعة إسرائيل ومن خلفها آلاف من الكتاب في كافة أنحاء العالم، فرض رواية تاريخية توراتية حول تاريخ القدس بشكل خاص وتاريخ فلسطين بشكل عام، أصبحت هذه الرواية من المسلمات التاريخية لفترة زادت على قرن ونصف من الزمن. وفي الحقيقة تنبع الصعوبة أيضا في تتبع المفردات والمصطلحات المختلفة التي أصبحت قاعدة لكل باحث لا يستطيع الانفلات منها دون أن يجد نفسه يغرد منفردا أحيانا خارج السرب، كما سيجد نفسه في معركة غير متكافئة من حيث الإمكانات والامتداد الجغرافي العالمي للمصطلح الذي يريد أن يفنده أو يغيره.

ومن المصائب التي يكتشفها الباحث استعمال هذه المفردات من قبل باحثين «جديين» فلسطينيين وعرب دون التمحيص بمدلولاتها السياسية أو معرفة بخلفيتها التاريخية والأهداف الكامنة من وراء اختراعها. وبالتأكيد لم تكن منهجية الدراسات التوراتية إختراعا إسرائيليا أو حتى يهوديا، بل كانت إختراعا أوروبيا سبق الحركة الصهيونية بأكثر من قرن من الزمن، لكن الحركة الصهيونية قد تلقفته وبنت المزيد عليه، مستمدة شرعية هذا «العلم» من انتصار العلوم الأوروبية في كافة الميادين، واعتبار ما توصلت إليه العلوم

Digitized by Birzeit University Library

التاريخية في الغرب، ومن ضمنها «الآثار التوراتية»، هي وحدها التي يمكن القبول بها.

صحيح جداً أن نقد الرواية التوراتية، وبالتالي الإسرائيلية، بالنسبة لتاريخ القدس، لم تعد تقع في منطقة حرام لا يمكن الولوج إليها سواء بالنقض أو الشك أو حتى الرفض المطلق، حيث انضم في السنوات الماضية المزيد من المؤرخين والمنظرين والآثاريين إلى فكرة المراجعة النقدية للمسلمات التاريخية لتاريخ القدس بشكل خاص، وتاريخ فلسطين بشكل عام. ومن المثير القول بأن هدف الكثير من المؤرخين الآن، هو كشف «التاريخ الذي لم يكتب» (المخفي!)، أي أن الكثير من الكتابات التاريخية التوراتية قد بحثت تاريخ المجموعات اليهودية في فلسطين، فتحولت الشعوب الأخرى، التي كانت تقطن فلسطين، وفي كثير من الأحيان كانت بعض هذه الشعوب أكثر عدداً وأكثر إنتاجية من ناحية حضارية من المجموعات اليهودية، لكن تاريخها قد أخفي تماما وكأنها غير موجودة، ولم تترك أي أثر أو حتى بصمة على تاريخ فلسطين، فهي والحال كذلك لم تكن مرئية أصلاً، وما كان مقر لها أن تظهر، لو استمرت مركزية الدراسات التوراتية. إذا، التاريخ الذي لم يكتب بعد يشكل الحيز الأكبر من تاريخ فلسطين بشكل عام وتاريخ القدس بشكل خاص، وهو مركز الكثير من الأبحاث التي شهدتها الحلبة الأكاديمية في العقدين الأخيرين.

بناء على ما ذكر أعلاه، فإن إعادة كتابة تاريخ القدس يجب أن تعتمد على مرتكزين، نقد الرواية السائدة ونقد ما أصبح يسمى بمسلمات تاريخية من جهة، وكتابة التاريخ الذي لم يكتب والذي يشمل تاريخ وآثار الكثير من الشعوب والحضارات من جهة ثانية، فالكثير من تاريخ القدس لم يكتب لأن ما كتب حتى الآن قد تم من خلال تسليط أضواء مبالغ فيها على فترات

Digitized by Birzeit University Library

بعينها دون أخرى، بحيث فَقَدَ تاريخ المدينة اتزانه، وأصبح يقفز عن فترات دون ذكرها، ويغوص بتفاصيل فترات أخرى حتى الملالة، علاوة طبعا على كتابة تاريخ لا يمكن إثباته لو أسقطت عنه القدسية، وكتب بمنهجية علمية موضوعية.

إزداد الجدل بين أصحاب الاختصاص حول تاريخ القدس، وطبعا فلسطين، خلال العصرين البرونزي المتأخر والحديدي بشكل خاص، أي خلال الفترة الواقعة بين 600-1200 ق.م. وقد شمل النقاش الحاد موضوعات لها علاقة بالأحداث التاريخية، وبالاستمرارية الحضارية، وبالتسميات الإثنية للمجموعات السكانية المختلفة التي كانت تسكن فيها، علاوة على الاختلاف الكبير بشأن تأريخ المخلفات الحضارية، ونسبها إلى مجموعة إثنية أو دينية معينة، وبغض النظر عن السياق الحضاري للفترة التي تنتمي إليها. ويتجه المختصون في شتى العلوم التاريخية إلى التوصل إلى نتيجة مفادها أنه يستحيل كتابة تاريخ فلسطين بالاستناد إلى نصوص العهد القديم. إلا أن المعضلة الأساس تنبع أيضا من استحالة الاعتماد على العهد القديم من جهة، واستحالة تجاهله من جهة ثانية. إنها ثنائية صعبة شكلت دوامة للمختصين بما يسمى حقل التاريخ والآثار التوراتية.

ولكن، يجب الانتباه أيضا إلى أن مصطلح «الآثار التوراتية»، لم يعد في كثير من الأوساط مصطلحا علميا محايدا، فهو يستل فلسطين من محيطها وسياقها الحضاري (الشامي مثلا)، كما فعل الأمر نفسه بالقدس لأسباب غير خافية. ويذكر بأن مصطلح «الآثار التوراتية» يحمل في طياته مدرسة متكاملة التكوين ومأسسته تماما، وتاريخ طويل ارتبط بالدراسات اللاهوتية الأوروبية البروتستانتية بشكل خاص، وعلى درجة أقل بكثير باللاهوت

Digitized by Birzeit University Library

الكاثوليكي[1]، وللمصطلح أيضا تصنيفاته التاريخية وتسمياته الخاصة للفترات، وله منشوراته ومجلاته المتخصصة، وهو بهذا يبتعد عن دراسة آثار الشرق القديم بفروعها الميزوبزتانية والسورية والفرعونية، ويخلق حيزا جغرافيا وحضاريا مصطنعا (موازيا!) لإبراز اليهودية كهوية مميزة وكحالة خاصة منفصلة تماما عن بيئتها المحيطة، وليس نتاجا لها.

لقد بدأت إشكالية هذا التفرد، اعتمادا على النتائج الأثرية، بالتصاعد البطيء منذ ستينات القرن العشرين[2]، وقد وصلت مرحلة متقدمة الآن، حيث تشكل معسكرين (مدرستين) متقابلين متفاوتي التركيب والانسجام. الأول، هو معسكر يحاول جاهداً الحفاظ على الرواية التوراتية التقليدية بالرغم من انهيار الكثير من أعمدتها وتراجع صدقيتها التاريخية، ويستميت هذا الفريق في الذود عنها، لأن دورها السياسي والفكري المعاصرين لم ينتهيا

---

(1) لا توجد تقريبا جامعة أروبية قديمة وعريقة إلا وفيها معهدا للآثار التوراتية.

(2) كانت حفريات كاثلين كانيون في أريحا إحدى التعبيرات الأكثر صراحة حول هذه الجدلية، وهي حفريات أزاحت اللثام عن عدم توافق الرواية التوراتية مع نتائج الحفريات. أنظر:
K .M .Kenyon, *Digging Up Jericho* (1957).
K.M .Kenyon, *Excavations at Jericho*, Vol. III (1981).
لكن يجب ألا ننسى أن بوادر نقد النص التوراتي قد بدأت في القرن التاسع عشر، وذلك بالاعتماد على علم الفلولوجيا. ويمكن الإشارة بتوسع إلى البحث الهام الذي قام به الألماني يوليوس فلهاوزن، والذي نشره أولا تحت اسم «تاريخ إسرائيل» (*Geschichte Israels*) وذلك سنة 1878، ثم أعاد كتابته بتوسع أكثر تحت عنوان «مقدمات نقدية حول تاريخ إسرائيل» (*Pro-legomena zur Geschichte Israels*) ونشره في برلين سنة 1882. تمثلت نظرية فلهاوزن، التي عرفت أيضا بالنظرية التوثيقية (documentary hypothesis)، حول الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (التوراة) بإثبات أن هناك أكثر من مؤلف لها، وأنها كتبت بفترات تاريخية مختلفة، بعد النبي موسى بفترة طويلة. حول فلهاوزن ونظريته، أنظر:
Ernest Nicholson, *The Pentateuch in the Twentieth Century: The Legacy of Julius Wellhausen*, Oxford University Press 2002.
لم يكن فلهاوزن بالرغم من مركزية عمله في ها الإطار إلا مكملا لبوادر قد سبقته، ولن يتسع المجال هنا لمراجعتها، لكن يمكن مراجعتها لدى فلهاوزن نفسه.

Digitized by Birzeit University Library

بعد بالنسبة لهم[1]، وأنها لم تستنزف بعد، فمازالت هذه المدرسة تتمسك بالتاريخ الانتقائي والاستحواذي وبالاعتماد على تاريخ النخب الحاكمة، ومازالت إلى حد معين تقدس الرواية التوراتية على اعتبار أنها مصدراً تاريخياً لم يفقد صدقيته، وتعتبر استمراراً للمدرسة التوراتية (الآثار التوارتية) التي تبلورت في القرن التاسع عشر، وما زالت وفية لتراثها. وتقدم هذه المدرسة نقداً للمدرسة الإصلاحية، حيث تقول أنه يجب الاستمرار في اعتماد الأساس، وهو اعتبار أن النص التوراتي صحيح ما لم تثبت مصادر أخرى عدم صحته، وذلك على عكس المدرسة الإصلاحية التي تقول بأنه لا يمكن قبول النص التوراتي إلا إذا جرى تأكيده من مصادر أخرى. ومن أشد المدافعين عن المدرسة المحافظة كنيث كتشن (Kenneth Kitchen)، والذي دافع بضراوة عن موقف مدرسته، واعتبر أن نصوص العهد القديم قد كتبت في نفس فترة الأحداث التي تصفها، وليس بعد ذلك كما تدعي المدرسة الاصلاحية[2]. ويمكن إضافة آخرين لهذه المدرسة منهم إيان بروفان (Iain Provan) وتريمبر لونغمان (Tremper Longman). المدرسة الأولى[3] هذه، تمثل إلى حد بعيد الرواية الرسمية للدولة العبرية، والتي مازالت تستخدمها بشكل مكثف سواء في العملية التربوية أو في المشروعية السياسية لحق دولة إسرائيل بالوجود، على أساس الأحقية التاريخية المؤسس لها إلاهيا. كما تدعوا هذه المدرسة إلى إعادة تفسير نصوص (قراءة جديدة) العهد القديم، وليس الإقلاع عن استخدامها. وقد باتت هذه المدرسة تعرف في الأدب التوراتي والآثار التوراتية باسم (Biblical maximalists).

(1) طبعا لا يدور الحديث هنا عن دورها الديني، فهذا أمر خارج اهتمامنا.

(2) Kenneth Kitchen, *On the Reliability of the Old Testament*, Cambridge 2003

(3) حول مناهج هذه المدرسة والرد على المدرسة الثانية، وذلك بشكل رصين نسبياً، أنظر Megan Moore and Brad Kelle, *Biblical History Israel's Past*, Michigan 2011.

Digitized by Birzeit University Library

أما المدرسة الثانية، والتي قد نسميها مجازا المدرسة «العلمانية» أو «الإصلاحية»، بالرغم من انتماء الكثيرين من دارسي اللاهوت والآثار التوراتية وعلماء الدين إليها، وهي مدرسة وصلت مرحلة ترفض فيه تاريخية وصدقية الرواية التوراتية فيما يتعلق بالرواية التاريخية، وفي الحقيقة أنها لا ترفض المرويات التاريخية في العهد القديم جملة وتفصيلا، بل تختلف مع المدرسة الأولى في تأريخ هذه النصوص، وأن التاريخي فيها هو ما كتب في القرن الخامس قبل الميلاد أو بعد ذلك، في حين أن النصوص التي تؤرخ لفترة قبل ذلك لا تتمتع بصدقية تاريخية. وتفضل هذه المدرسة التعامل مع النصوص على أساس أنها أدب ديني فيه بعض المواد التي يمكن أن تساهم في كتابة التاريخ، لكن لا يمكن تسميته بنصوص تاريخية. وتسمى هذه المدرسة بين أصحاب الاختصاص والاهتمام (Biblical minimalism)[1]، ومنذ مطلع تسعينيات القرن العشرين أصبحت تعرف باسم (Copenhagen School). وتعيد هذه المدرسة قراءة الآثار عبر انفلات الباحث من الاستحواذ العاطفي والذهني عن النص المقدس بكل تأثيراته وتراثه المتراكم عبر العصور.

المدرسة الأخيرة ترفض الخيال المعتمد على النص المقدس وإعادة التركيب الخيالي للمواقع الأثرية كمصدر تاريخي، وتعتمد على النتائج المادية الملموسة للآثار كمرجعية علمية أساسية دون المبالغة بالنتائج وتحويل الافتراضات إلى نظريات و«حقائق علمية». وترفض هذه المدرسة نظرية امتلاك التاريخ وتجييره لمصلحة مجموعة عرقية أو دينية معينة، وهي تعتمد بالتأكيد على تواصل الإنتاج الحضاري، وعلى عدم وجود فترات غير متصلة بما قبلها وما بعدها، وتقلل من التشخيصات والتسميات العرقية للفترات التاريخية، بل تعتمد على تأريخ المواد الحضارية، هذا عدا عن رفضها التام

(1) لا تقبل مدرسة كوبنهاجن هذه التسمية، وقد أطلقت عليها من قبل معارضيها.

Digitized by Birzeit University Library

للقفز عن الفترات التاريخية وتصنيفها «مهمة» و«مهمة أقل» و«غير مهمة». وهذا يقود بدوره إلى رفض تملك التاريخ، وبالتالي رفض فكرة فرض الوصاية عليه وعلى أحداثه.

وهناك شبه إجماع بين أصحاب الاختصاص، ومن ضمنهم الكثير ممن يدافعون عن المدرسة الأولى، أنه ليس هناك أساس تاريخي يمكن التحقق منه لقصة الآباء (the Patriarchs) والخروج من مصر (the Exodus from Egypt)، ولا لقصة غزو أرض كنعان (Conquest of Canaan). وبالرغم من التنوع الكبير بين أصحاب المدرسة الثانية، إلا أنهم يقتربون من بعضهم في مسائل متعددة، فبعضهم يعيد الجزء الأكبر من نصوص العهد القديم إلى فترة الغزو الفارسي (القرن الخامس قبل الميلاد) ويمثل هذا الموقف فليب ديفز (Philip Davies)[1]، في حين يعتقد نيلز بيتر لمشيه (Niels Peter Lemche)[2] بأن هذه النصوص تعود إلى العصر الهيليني (القرن الثالث قبل الميلاد). وبدون شك يعتبر كتاب توماس تومبسون (Thomas L. Thompson) والذي يحمل اسم «التاريخ الأسطوري»[3] إضافة نوعية لهذا النقاش، حيث جمع بين المصادر الأثرية والمصادر الكتابية في تحليله للفترة المسماة بالفترة التوراتية، ويستنتج من هذا أن نصوص العهد القديم قد تشكلت ما بين القرن الخامس والقرن الثاني قبل الميلاد. وفي الحقيقة أن كتاباته قد مرت بعدة مراحل قبل ذلك بدءا بدراسته الهامة حول تاريخية الآباء (The Patriarchs)[4]، وبعده تتابعت دراساته في نفس الاتجاه.

---

(1) حول مواقف ديفيز وتفسيره لنصوص العهد القديم، أنظر كتابه: Philip Davies, *In Search of Ancient Israel*, 2015

(2) أنظر كتابه: Niels Peter Lemche, *The Israelites in History and Tradition*, Westminster 1998

(3) Thomas L. Thompson, *Mythic Past*, 1999

(4) Thomas L. Thompson, *The Historicity of the Patriarchal Narratives*, 1974

Digitized by Birzeit University Library

يقول توماس تومبسون: «أن تحويل محور تركيزنا في معالجة تاريخ فلسطين وأورشليم عن كتاب العهد القديم واعتباره مجرد قصة أصول لليهودية والمسيحية، من شأنه أن يقصينا عن ذلك السعي التاريخي ذي الطابع اللاهوتي، والمتصل بصنع الهوية. كما أن النظرة البديلة إلى ماضي فلسطين المبكر باعتباره تاريخا لإقليم جغرافي معين من شأنها قطع الاستمرارية مع ما اعتقدنا، ولفترة طويلة، أنه مآل هذه الاستمرارية في تاريخ الدين. وبهذا يمكن تعرية مسعى امتلاك التاريخ من خلال مخيلة جموح تطرح مسارات بديلة»[1].

إذا، القضية لا تتعلق فقط بالرواية التاريخية ومدى صدقيتها، بالرغم من الأهمية الخاصة لذلك، خاصة في مسألة تتعلق بتاريخ الديانات السماوية، بل تتعلق بالأساس بالبحث عن مصوغات تاريخية ترتبط بشرعية إمتلاك التاريخ من قبل جهة معينة وبتناسي مقصود لتواريخ أخرى متزامنة ومكملة[2]، وبتاريخ فاعلين آخرين مركزيين في صياغة هذا التاريخ وبلورة الهوية الحضارية لوحدة جغرافية غير منعزلة عن بيئة حضارية واسعة.

وفي المحيط العربي لا بد من ذكر بعض الذين اشتغلوا بهذه المسائل. فراس السواح أصدر كتابا هاما حول الموضوع حمل اسم «تاريخ أورشليم البحث عن مملكة يهودا»، وهو في الحقيقة لم يضيف شيئاً ذا أهمية تذكر إلى مصوغات المدرسة الإصلاحية، بل يعتمد تماما عن منهجها، ويركز على

(1) توماس تومبسون، «هل يمكن كتابة تاريخ أورشليم وفلسطين؟»، في كتاب « القدس أورشليم العصور القديمة»، تحرير توماس تومبسون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2003، ص 24.

(2) حول الشعوب الأخرى التي كانت تسكن فلسطين خلال الفترة التي سميت «الفترة التوارتية»، أنظر الكتاب الهام الذي ألفته كيث وايتلام:

Keith Whitelam, *The Invention of Ancient Israel: The Silencing the Palestinian History*, 1996.

Digitized by Birzeit University Library

الغياب الكامل للملك داود والملك سليمان والمملكة المتحدة والقرن العاشر قبل الميلاد بشكل عام في القدس عن الشواهد الأثرية والتاريخية الوثائقية، وقد اعتبر المؤلف كتابه مكملا لكتاب له كان قد صدر قبل ذلك بعنوان «آرام ودمشق وإسرائيل - في التاريخ والتاريخ التوراتي». أما وقد سبقه إلى هذا الحقل كمال صليبي، فلا بد من ذكر كتابه الذي يعتمد على غياب البينات حول الجغرافية التوارتية عن أرض فلسطين، يحاول موضعتها في الجزيرة العربية، وذلك بالاعتماد على مسميات المواقع، كما ورد في كتابه «التوراة جاءت من عسير» (1985)، وأضاف كتابا آخر يحمل اسم «خفايا التوراة»، عالج فيه الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وذلك على ضوء جغرافية جزيرة العرب. ومنطق كمال صليبي اتبعه مجموعة من الباحثين الذين ساروا على نفس المنهاج تقريبا، طبعا وبتفاوت، ولأن كتاباتهم لن تفيدنا في تتبع موضوعنا، فلا ضرورة لمراجعتها هنا، وذلك بغض النظر عن موقف الباحث منها ومن المنهجية المتبعة في كتابتها.

وعودة إلى موضوعنا، فلم يعد من المقبول أبداً استلال قطعة أرض، وبغض النظر عن حجمها، من بيئتها الحضارية المكملة، فلا يمكن استلال تاريخ القدس من تاريخ فلسطين ككل، ولا استلال تاريخ فلسطين من تاريخ بلاد الشام بشكله الشمولي، ولا دراسته بمعزل عما كان يدور في مصر، وحتى إن جاز لنا القول استلاله عن محيط البحر الأبيض المتوسط بشكل عام وشواطئه الشرقية بشكل خاص. فلا القدس ولا فلسطين كانت في يوم من الأيام جزيرة حضارية منعزلة عن امتداداتها الحضارية. كما أن شعوب هذه المناطق بمسمياتها المختلفة، وبغض النظر عن صدقية هذه المسميات، كانت تعيش عملية خلط إثنية وحضارية متواصلة، لم تتوقف حتى أيام الحروب والغزوات المتبادلة وسقوط هذا الحيز تحت سيطرة قوة عالمية مهما كان

Digitized by Birzeit University Library

اسمها، هذا طبعا عدا عن التجارة والتبادل الفكري في المعتقدات والعادات والتقاليد والصناعات والعمارة وباقي الانتاجات الحضارية، والتي لا يصعب اليوم تتبعها ومعرفة مصادرها وكيفية إعادة صياغتها في الحواضن الحضارية المختلفة.

إن الموقع الجغرافي لفلسطين بين آسيا وإفريقيا وعلى الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، قد جعل منها من أكثر الأماكن ملاءمة للتبادل الثقافي، ولم يمكنها في أي فترة من الفترات من الانعزال عن محيطها بالاتجاهات السماوية الأربعة، فإن انغلقت أمام حضارة قادمة من الشمال، انفتحت على أخرى جاءت من الجنوب، ولم يتوقف البحر المتوسط أيضا عن الدفق الحضاري، كما لم تتوقف سوريا وبلاد ما بين النهرين ووادي النيل.

ومن الهام جدا النظر إلى إنجازات الصهيونية (1948 - 1967 وما بعدها) لأنها تلقي ظلالها السوداء على طموحات الحلم الصهيوني ذو الطابع العنصري الإثني. لقد تطور الحلم الصهيوني وحلق في الخيال بعد انتصاره في حرب عام 1967، كما عبر عنه الخطاب المقدس، من خلق دولة يهودية، إلى رؤية بتحرير «أرض إسرائيل» بمفهومها اللاهوتي، وذلك بغض النظر عن فظاعة النكبة التي لحقت بالشعب الفلسطيني بما تضمن ذلك من اقتلاع وتشريد وسفك للدماء حتى ارتكاب المجازر، فالتحرير لا يعني هنا سوى إبادة شعب، وذلك بمفاهيم ومصوغات تستمد قيمها الأخلاقية من نصوص العهد القديم المقدسة، وبمباركة الإله (يهوى).

ولكن وقبل الولوج إلى تفاصيل الموضوع وصلبه، فإنه من المفيد جدا التطرق إلى المراحل المختلفة التي مرت بها النخب المختلفة التي قامت بإجراء الدراسات التاريخية للقدس منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهذا لا يعني أن جذور هذه النخب قد بدأت ضمن هذه الفترات فقط، بل أنها أعمق

Digitized by Birzeit University Library

من ذلك بكثير، فكثير من المواقع «التوراتية» والأساطير التابعة لها وإسقاط المسميات على المواقع الجغرافية المختلفة قد أسس لها في الفترة البيزنطية، وانتعشت إلى حد كبير في كل من التراث الإسلامي (الإسرائيليات) والتراث الصليبي واستمرت بالنمو والتشكل عبر القرون اللاحقة. وقد انتعشت إلى حد كبير من جديد بعد الإصلاح الديني الكنسي الذي أصاب أوروبا بثورة مارتن لوثر، والتي تعتبر في حقيقة الأمر نقطة ارتكاز هامة بالدعوة إلى العودة إلى الأصول (اليهودية ونصوص العهد القديم)، وتوجت بحركة استعمار الشرق وأبحاث الكثير من المستشرقين الذين ارتبطوا بهذه الحركة وبحثوا عن المصوغات الدينية لامتلاك الشرق، على اعتبار أنهم ورثة التراث التوراتي.

Digitized by Birzeit University Library

[illegible] 1987 - 1993) وما

[illegible] المجتمع الصهيوني ذو

[illegible] وحلفه في الطليعة بعد

[illegible] عن تخلي دولة

[illegible] اللاهوتي، وذلك بغض

[illegible] الفلسطيني بما تضمن ذلك من

[illegible] فالتحرير لا يعني هذا

[illegible] قيمها الأخلاقية من

[illegible] (بيرتي)

[illegible] فإنه من المفيد جدا

[illegible] المختلفة التي قامت بإجراء

[illegible] القرن التاسع عشر، وهذا لا يعني

[illegible] فقط، بل إنها أعمق

أولا: تاريخ «البحث العلمي» في العلوم التاريخية في فلسطين بشكل عام والقدس بشكل خاص

مرت الدراسات التاريخية حول فلسطين بشكل عام، وحول القدس بشكل خاص، بفترات مختلفة تمثلت كل فترة منها بعناصر ومكونات محددة، أملتها بالتأكيد حقائق ومناهج البحث العلمي التي سادت في كل فترة، لكنها أيضا كانت انعكاسا للمصالح والمواقف والتطلعات الدينية والقومية والعقائدية والاقتصادية لكل مجموعة من هذه المجموعات الفاعلة وما تمثله لطبقات معينة أو نظم سياسية بعينها.

وإن كان البحث في تاريخ فلسطين قد بدأ منذ بداية الكتابة وانتشارها، مخلفا لنا آلاف الكتب الدينية والتاريخية والخرائط والرحلات والوصوفات والصور والرسوم والأدب بأشكاله المختلفة، إلا أننا لن نتتبع الكتابات ومناهجها قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ذلك لأنها خارج إطار هذا الموضوع وبحاجة إلى كتابة خاصة، ولكن يمكن الإشارة هنا إلى كتابات ادوارد سعيد حول الاستشراق التي تضمنت الكثير من المعلومات والتحليلات حول المناهج التي نظر عبرها الغرب إلى الشرق سواء من منطلقات عقائدية أو استعمارية أو حتى عنصرية، ومصادر هذه الكتابات، ودور الرواية التوراتية في تشكيلها. وحتى نفهم كتابة تاريخ القدس من وجهة نظر إسرائيلية، يجدر بنا تتبع أولا مصادر هذه الكتابات، والتي تجعل فهمها أيسر.

Digitized by Birzeit University Library

إن مراجعة تاريخ الباحثين في العلوم التاريخية في المنطقة، وتحديدا الكتابات المتعلقة بمدينة القدس، يرتبط عمليا بفهم سياق التطور التاريخي الذي تبلور في المنطقة منذ حوالي العام 1831م، أي ما بعد كل ما تمخضت عنه السيطرة المصرية على فلسطين (1840-1831م) وحتى الوقت الحاضر. ولهذا تشترط المعالجة لتاريخ المجموعات الأجنبية المختلفة، النظر للعوامل التاريخية التي بلورتها، لأن هذا يسهل فهم موقع هذه المجموعات، وتحليل أدوات البحث العلمي، والنظريات التي استخدمتها في تفسير الماضي. ولهذا، من الضروري أثناء مراجعة تاريخها، في مدينة القدس بشكل خاص والمنطقة بشكل عام، من رؤية هذه الجذور والعوامل المتغيرة التي ساهمت في بلورة مجموعات جديدة في المراحل التاريخية المختلفة. ويمكن تقسيم المراحل التي مر بها البحث التاريخي حول القدس إلى أربع مراحل[1]:

1. من إبراهيم باشا إلى الحرب العالمية الأولى أو من نشوء الإقليمية إلى انهيار الدولة العثمانية

قد يكون من المفيد الإشارة إلى أن جذور هذه المرحلة تعود إلى ما أنجزته الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر من فتح شهية البحث والاستقصاء والاستكشاف التي أصابت أوروبا بحمى وصلت حتى الهوس لمعرفة كل شئ حول المشرق[2]. لكن حملة نابليون لم تتكلل بالاستمرارية، إلا

(1) يمكن تقسيمه إلى أكثر من ذلك، لكن تم اختصارها إلى أربع مراحل لتسهيل تتبعها.

(2) من المفيد التذكير أن الحج المسيحي إلى القدس لم ينقطع منذ الفترة البيزنطة وما تبعها من الفترات الإسلامية المختلفة، وقد خلف هؤلاء الحجاج كتابات كثيرة وصفا للمدينة وربطا لكل مواقع فيها بأحداث العهدين القديم والجديد، ولن يتسع المجال هنا لمراجعة هذه الكتابات ودورها المركز في بلورة تاريخا للمدينة. حول رحلات الحجاج ينظر:

J. Wilkinson, *Jerusalem Pilgrims before the Crusades*, Westminster 1977; H. Donner, *Pilgerfahrt ins Heilige Land*, Stuttgart 1979; T. Wright, *Early Travels in Palestine*, London 1848.

Digitized by Birzeit University Library

ما رافقها من إشاعات واستكشافات وخرائط وقطع أثرية ومخطوطات حملت إلى أوروبا، وقد استطاعت بالتأكيد إبقاء جذوة الحنين إلى الشرق متقدة، هذه الجذوة المدفوعة بالمصالح الاستعمارية والبحث عن الثروات أدت إلى زيادة الإشاعات حولها، والمختلطة بالمشاعر الدينية المليئة بالرومانسية الغربية تجاه الشرق الذي يحتوي خيرات لا نهاية لها كما تصورها الكتابات الغربية وقصص ألف ليلة وليلة المترجمة إلى الكثير من اللغات الأوروبية، لكنه شرق يحتوي أيضا على جذور المسيحية والأماكن المرتبطة بها وجغرافيتها المقدسة وموئلها الأول[1]. هذا طبعا عدا عن كون فلسطين تشكل أصلا بيت العهد القديم وفيه نشأت وانتشرت غالبية القصص التوراتية، وارتباط العهد الجديد بشكل وطيد بالعهد الجديد، خاصة بعد توسع انتشار البروتستانتية بطوائفها المختلفة في وسط وشمال أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

وجاءت الفرصة الثانية، بالنسبة للباحثين والمستكشفين، بحملة إبراهيم باشا بن محمد علي الكبير حين احتل فلسطين عام 1831. لقد اتسم إبراهيم باشا بالليبرالية النسبية، على الأقل بالنسبة للمفاهيم العثمانية في حينها، بحثا عن التحديث والتنمية، وطبعا تعزيز الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية، فانفتح تجاه المصالح الغربية والإرساليات التبشيرية والبعثات البحثية والاستكشافية. هذا الانفتاح مكن مجموعات كثيرة من الوصول إلى

(1) يجب فهم غزوة نابليون لمصر سنة 1798 ولبلاد الشام سنة 1799 ليس فقط على أنها بداية لمرحلة جديدة في تاريخ المشرق العربي، بل أيضا على اعتبارها جزءاً من المسألة الشرقية، التي تفجرت بتجلياتها المختلفة بغزوة إبراهيم باشا بن محمد علي الكبير على بلاد الشام. كما يعتبرها البعض المرحلة الثانية من «الحروب الصليبية»، في حين شكلت أحداث القرن التاسع عشر، خاصة نصفه الثاني، المرحلة الثالثة في «الحروب الصليبية». لمزيد من التفاصيل أنظر، ألكسندر شولش، **تحولات جذرية في فلسطين 1856–1882**، ترجمة كامل العسلي، عمان، 1988، ص 12 وما بعدها. لم يعد فهم غزوة نابليون إلى المشرق العربي على أنها حاملة للتطور والحضارة، فهذا فهم لا يستقيم أبدا، فمظاهر التطور وبعناصر محلية قد سبقت نابليون وغزوته.

Digitized by Birzeit University Library

القدس، وذلك ضمن حملة أوروبية، وإلى حد ما أمريكية، واسعة اجتاحت شرق البحر المتوسط بشكل عام وفلسطين بشكل خاص، وأسست لمرحلة قادمة من الهجوم الكلي على القدس للوصول إلى سبق علمي أو سياسي أو ديني يؤكد ما ذهبت إليه النصوص المقدسة المعروفة عن ظهر قلب، وكان السباق بين هذه البعثات مثيرا للغاية، تصدرت أخبارها صفحات الجرائد اليومية، ومجالس الجمعيات المختلفة، وأضفيت على روادها نياشين التبجل والتقدير وحتى الألقاب الملكية.

وبعد انتهاء الحملة المصرية على فلسطين عام 1840، دخلت الدولة العثمانية في سلسلة من المتغيرات الحاسمة، والتي عرفت بالإصلاحات العثمانية (التنظيمات)، وشكلت هذه الإصلاحات، وبغض النظر عن مستوى النجاحات التي حققتها، محاولة إعادة تقويم الدولة العثمانية بواسطة إصدار مجموعة من التشريعات، بهدف بناء مؤسسات الدولة على أساس التشريع الحديث، ولنقل بناء على المفهوم الأوروبي الغربي، وبهذا لم تستطع الدولة العثمانية إلغاء غالبية التشريعات والإجراءات التي قام بها إبراهيم باشا، بل بالعكس تماما فقد كانت مجبرة على الاستمرار في هذا النهج، نظرا لارتباطها بالمصالح الغربية التي أصبحت متنفذة تماما بمقدرات الدولة العثمانية. وشكل هذا المدخل الأساس «لانفتاح فلسطين على العالم»، فتعزز بذلك عمل البعثات القنصلية والدينية والاجتماعية الأوروبية في القدس، والتي بدأت باجتياح المدينة مع الاجتياح المصري، ولم يقتصر هذا الاجتياح على التمثيل الديني بطوائفه المختلفة وبانشقاقاته أو مدارسه (أخوياته) داخل كل طائفة، فقد اتخذ التمثيل الديني أبعاداً قومية أيضا، حيث اختلط الديني

Digitized by Birzeit University Library

بالقومي بشكل لا يمكن فصله[1]. كما وترسخ عمل المجموعات الأجنبية في البحوث الأثرية والتاريخية والجغرافية، وقد تم تأسيس بعضها بموجب فرمانات سلطانية[2]. ويجب الانتباه هنا إلى أن حركة المجموعات الأجنبية العاملة في حقل العلوم التاريخية تجاه المنطقة، التي عرفت بـ«الشرق القديم» في تلك المرحلة، والتي نشأت في أوروبا، كانت تنمو في تيارين أساسين متكاملين، حتى لو بدى الأمر وكأنه تناقض بينهما:

أ. التيار التقليدي المحافظ المنبثق عن الأصول الدينية المسيحية المؤمنة (بشقيها الكاثوليكي والبروتستانتي) بنصوص العهد القديم في تفسير الماضي الحضاري لفلسطين والقدس، وبهذا كانت جغرافية العهد القديم هي الدافع والأداة نحو إعادة استكشاف ما سمي بذلك الوقت «الأراضي المقدسة» أو «أرض التوراة» أو حتى «أرض إسرائيل» (إرتز يسرائيل)[3]، والتي تبدأ بتاريخ ظهور الإنسانية، مروراً بالحقب التاريخية التي أرخت لها التوراة. وفي الحقيقة، فإن هذا التيار الضارب جذوره في التاريخ مازال حتى اليوم يهيمن على

(1) سارعت غالبية الدول إلى فتح ممثليات قنصلية لها في القدس، ففتحت بريطانيا قنصليتها سنة 1838، وبروسيا سنة 1842، وسردينيا سنة 1843، وفرنسا سنة 1843 أيضا، ثم تلتها النمسا سنة 1847، وأسبانيا 1854، وروسيا سنة 1857. ورافق التمثيل القنصلي الإرساليات التبشيرية، خاصة البطريركية اللاتينية التي جددت نشاطاتها في الأراضي المقدسة سنة 1847 بعدما توقفت منذ انتهاء الحروب الصليبية. وكانت قد سبقتها الكنيسة البروتستانتية بتأسيس أسقفية مشتركة بين بريطانيا وبروسيا في القدس وبناء أول كنيسة بروتستانتية في الشرق (كنيسة المسيح) داخل أسوار البلدة القديمة بجانب قلعة المدينة وبالقرب من باب الخليل.

(2) جاءت بعض هذه الفرمانات على شكل ابتزاز أو نتيجة رشى دفعت بشكل عيني أو معنوي، لكن بعضها قد جاء تلبية لمصالح سياسية أو اقتصادية.

(3) هذه مسميات غير بريئة أبداً، فقد هدفت بالأساس إلى تجاهل الوضع القائم، سواء الدولة العثمانية أو استعمال اسم فلسطين، وتاريخ فلسطين هو فقط التاريخ التوراتي، وغير ذلك من التواريخ وجدت فقط لتفسير أو المساهمة في تفسير التاريخ التوراتي، وهي تواريخ هامشية وغير مفيدة إذا لم تساهم في تفسير التاريخ التوراتي.

Digitized by Birzeit University Library

الكثير من معاهد دراسات التوراة، بشقيها اللاهوتي والتاريخي الأثري، المنتشرة في غالبية الجامعات الأوروبية والأمريكية، وينتمي إليه الكثير من أعلام الكنيسة والأكاديميات على حد سواء. لقد تحالف هذا التيار بدون مواربة، وبشكل لا لبس فيه، مع المشروع الاستعماري وصوغ له المصوغات الفكرية المختلفة التي ساهمت في سيطرته التدريجية بأبعاده الأكاديمية والثقافية والسياسية[1]. وبلا

(1) حول هذه المسألة انظر الدراسات الهامة التي أجراها بريور:

Michael Prior, "The Bible as Instrument of Oppression", *Scripta Bulletin*, 25 (1995), pp. 2-14.; *The Bible and Colonialism* 1997; *The Western Scholarship and the History of Palestine*, London 1998.

والحقيقة بأننا مازلنا نفتقد إلى دراسات نقدية جدية تقوم بدراسة الأبعاد الأخلاقية التي يدعوا إليها العهد القديم خاصة الاستيلاء بالقوة على أرض يسكنها آخرون، وقتل سكان مدينة، وإبادة شعوب كاملة، ونفي شعوب والاستيلاء على أراضيهم، وتطليق النساء غير اليهوديات...الخ. هذه المسائل تقع في صلب اهتمامنا ضمن هذه المراجعة، لأن نصوص العهد القديم تحمل في طياتها الكثير من المصوغات للممارسات الإسرائيلية الحالية. صحيح بأن الحركة الصهيونية العلمانية لم تتخذ من العهد القديم دليلا بشكل مباشر، لكن هذه الحركة كانت نتيجة تأثيرات حضارية تشكلت الكثير من عناصرها عبر نصوص العهد القديم، ولكنها لم تتوانى عن استخدامه إذا دعت الضرور، خاصة ما يسمى الجناح اليميني في الحركة الصهيونية. لذلك يقتضي استكمال الموضوع الولوج إلى هذه النصوص من منظور حقوق الإنسان والأخلاق الإنسانية.

وقد تشكل دراسة بروجيمان مدخلا جيدا لهذا الموضوع الذي مازال في بواكيره، وفي حال استكماله سيساهم في فهم مغاير لتاريخ ما يسمى الفترات التوراتية، أنظر:

Walter Bruggemann, *The Land: Place as Gift, Promise and Challenge in Biblical Faith*, Philadelphia 1977. ويرى بروجيمان بأن الأرض قد تكون الفكرة الأساسية في الإيمان التوراتي، لكنه تغاضى أو نسي من يعيش عليها من السكان المحليين. كما نسي النزعة العدوانية والعنيفة (العسكرية) التي تبنّها الشريعة الموسوية. إن معالجة مسألة الأرض في العهد القديم ستقود بالتأكيد إلى نقاش مسألة الصراع على أرض فلسطين في الوقت الحاضر، وبالتالي سنبقى أسرى للتيارين المركزيين، الأول سيصوغ هذا الاحتلال ويبرره ويسنده من خلال النصوص التوراتية، والثاني سيرفضه بخلفيات أخلاقية. المسألة إذا لم تتغير سواء في فترات العهد القديم أو اليوم (دولة إسرائيل) والمتعلقة بجواز احتلال أراضي الغير بالقوة، وعمليات الإحلال السكاني المرتبطة بالتجربتين. وبلا شك، دفعت الدراسات التي قام بها بريور (المذكورة أعلاه) هذه المفاهيم الأخلاقية إلى الأمام، بعد أن بنى على ما ذهب إليه بروجيمان، لكن الموضوع لم

Digitized by Birzeit University Library

شك، شكل معينا لا ينضب لمنظري الحركة الصهيونية، خاصة وأنه جاء من خارج المجموعات اليهودية، مما يعني أنه من الممكن اعتباره «محايدا» لم يتم خلقه كأساس للمشروع السياسي الصهيوني، لكنه، سواء بتخطيط مسبق أو بدونه، كان خادما وفيا للمشروع الصهيوني. بل هو «تحقيقا للإرادة الإلهية» اليهودية.

ب. التيار النقدي الحديث المستند إلى مفاهيم التطور وروح العصر المستمدة من العلوم التطبيقية ومناهج البحث العلمي، حيث استخدم هذا التيار مفاهيم العلوم التطبيقية في العلوم التاريخية، مثل التاريخ والآثار والجغرافيا ولاحقا المشهد الثقافي (Cultural landscape)، كأدوات لتفسير الماضي. وهذا التيار تطور خلال العقود الأخيرة بشكل لافت للنظر، بل أصبح أكثر وضوحا وأكثر عنفا في طرح مفاهيمه. والتيار النقدي الحديث، هو استمرار لهذا التيار الآخذ بالاتساع والنمو، بعد أن طور أدوات جديدة، خاصة بعد تسخير تكنولوجيا المعلومات الحديثة والصور الجوية ومختلف تقنيات الاستشعار عن بعد، وبعد أن تجمع تحت تصرفه معلومات هائلة من نتائج الحفريات وقراءة النصوص والنقوش، علاوة على ما أفرزته الفيلولوجيا من معارف لغوية مكنته من إعادة قراءة التاريخ بشكل مغاير، كما تسلح هذا التيار بمعارف جمعت من كل المنطقة الممتدة بالمفهوم الحضاري من وادي النيل إلى بلاد ما بين النهرين

يكتمل بعد، وسيحمل المستقبل الكثير من الدراسات سواء بقي الصراع مع إسرائيل حول أرض فلسطين أو اختفى وبغض النظر عن نتائجه، فإن استمرار الصراع فسيستمر استعمال النصوص التوراتية سواء من قبل إسرائيل أو من قبل أعدائها لنقاش مسألة مشروعية الوجود وعدمه، وإن انتهى الصراع على الأرض فسينتقل إلى ساحة نقاش نصوص التوراة من منظور أخلاقي عام أو من منظور حقوق الإنسان بمفاهيمها المعاصرة.

Digitized by Birzeit University Library

وصولا إلى الشواطئ الغربية للبحر الأبيض المتوسط، وليس فقط من فلسطين بحدودها الانتدابية، على اعتبار أن التبادل والنقل الحضاري قد شمل كل المنطقة المذكورة في أغلب الفترات التاريخية التي مرت عليها، بما فيها الفترات التي تعددت فيها نظم الحكم فيها. وهو تيار يتعرض إلى ضغط سياسي هائل، حيث أنه لا يصوغ امتلاك التاريخ، واقتصار هذا الامتلاك على مجموعات محددة دون غيرها، كما يقود هذا التيار إلى رفض التعالي الحضاري والعنصرية بأشكالها، وذلك اعتمادا على التاريخ الحضاري للمنطقة المذكورة.

وفي أجواء هذا المناخ الفلسفي الفكري للباحثين في العلوم التاريخية في أوروبا، تبلورت معها وبشكل مواز حركة توسع (الكولونيالية الأوروبية) من قبل الدول الرأسمالية خارج حدودها القومية، أي خارج القارة الأوروبية، حيث فرضت سيطرتها المباشرة وبشكل تدريجي على مقومات المناطق «الهامشية»[1] في العالم، وذلك من أجل استثمار واستنزاف موارد هذه المناطق وتشكيل سوق إضافي لتصريف الفائض من منتجاتها والسيطرة على الممرات الاستراتيجية لضمان تيسير مرور تجارتها. وبالطبع، ترافق ذلك مع حركة تبشير بالدين «الحق والمخلص»، وتخليص الشعوب من «كفرها» و«وثنيتها البدائية». ولذلك، تداخلت عملية انتقال الرأسمالية خارج حدودها القومية مع حركة استكشاف الشرق القديم بتياريها المحافظ والنقدي، وعليه نجد أن إعادة استكشاف «الأراضي المقدسة» (فلسطين) كانت جزءاً أساسيا من هذه العملية المتداخلة بين الحركتين وبغض النظر عن مستوى الخلاف بينهما، ووقعت القدس في عين الحدث والاهتمام لأسباب

(1) ضمن مشروع التفوق العرقي والديني والحضاري كواجهة، وذلك في سبيل تحقيق السيطرة السياسية والاقتصادية.

Digitized by Birzeit University Library

غير خافية. إن تطور العلوم المختلفة وتسخير أدوات جديدة ومتطورة في البحث العلمي لم تؤدي إلى توحيد هاذين التيارين.

وعملت المجموعات الأجنبية المحافظة، الفاعلة في فلسطين على أقل تقدير، على بناء إطار تاريخي لمدينة القدس مطابقا للرواية الواردة في العهد القديم وبحذافيرها وتفاصيلها المملة، بعد أن قامت بتثبيتها كـ«حقيقة تاريخية» بل كـ«حقيقة إلهية» لا تقبل الشك أو النقد، وبهذا بدأت عملية استكشاف مدينة القدس بدءاً بالمسوحات الطبوغرافية، وإسقاط المعالم الحضارية الأساسية داخل البلدة القديمة أو القريبة منها على خرائط تفصيلية، وإجراء العديد من الحفريات «الأثرية» التي حاولت الكشف عن السياقات التاريخية لمدينة القدس، خاصة التي تتقاطع مع فترة العهد القديم، وأصبحت «الجغرافيا المقدسة» و«المشهد المقدس» (The Holy Landscape and the Holy Land Geography) [1] حقيقة واقعة لا تقبل التأويل، فقد جرى تعيين غالبية المواقع وتثبيتها وشحنها بما تيسر من النصوص المقدسة، وبغض النظر عن مدى انطباقها على الأمر الواقع، وعلى الأجيال القادمة أن

(1) انتشرت فكرة تأليف الكتب حول جغرافية فلسطين في القرن التاسع عشر، ويمكن حصر عدد كبير منها، نذكر منها على سبيل المثال:

J.C. Wigram, *The Geography of the Holy Land*, London 1832.

ومن المثير في هذا الكتاب أنه بعد أن يقدم الجغرافية الطبيعية لفلسطين بمسمياتها التوارتية وبالاقتباس من العهد القديم، وذلك كله في 20 صفحة، ينتقل بعدها إلى تاريخ الممالك القديمة (كله تقريبا يهوديا)، ومن ثم يسرد أسباط اليهود الاثني عشرة وأماكن سكناهم، وبعدها يناقش تاريخ المملكة المتحدة قبل انفصالها، ومن ثم مملكة يهودا ومملكة السامرة. وهذا الجزء من الكتاب، يمتد من ص 37 وحتى ص 125. وأما الجزء المتبقي من الكتاب فيغطي تاريخ السيد المسيح والمسيحية علاقتها بالجغرافية المقدسة، وذلك حتى ص 165. ولا يأتي الكتاب على ذكر الفترات الإسلامية إلا في الصفحات الأخيرة ومن باب تحميل المسليمن، كغرباء، مسؤولية تردي أوضاع فلسطين بشكل عام وأوضاع القدس بشكل خاص. أما أشهر الكتب الجغرافية على الإطلاق، والذي تربع لفترات طويلة على عرش هذا النوع من الكتب، فهو:

George Adam Smith, *The Historical Geography of the Holy Land*, London 1894.

Digitized by Birzeit University Library

تتعامل معها وتبني دراساتها على أساسها وعلى أساس أنها «حقائق» ثبت إثباتها وتثبيتها على أرض الواقع. ويمكن القول، أن ما يعانيه تاريخ القدس الآن، وطبعا تاريخ كل فلسطين، قد أسس له خلال هذه الفترة التاريخية، وأن أعلام التاريخ والآثار الذين نشطوا خلالها مازالوا يلاحقون الباحثين المعاصرين، فارضين ما أسسوه على أجيال لاحقة، كما سيظهر أدناه.

وفي هذه المرحلة أيضا، وضعت أسس العديد من مؤسسات البحث في نشاطاته داخل القدس حتى اليوم. وفي الحقيقة، تفاوتت المناهج نسبيا تبعا للتجربة القومية لأصحاب المدرسة، لكنها توافقت جميعها على منهج الآثار والتاريخ التوراتي ليس فقط كمنهج أكاديمي، بل أيضا كهدف (سياسي/ ديني!) واضح المعالم. وخلال استعراض المدارس الأثرية التي عملت في القدس، يجب الحذر من أننا لا نبغي وراء ذلك ذم ورفض كل عمل هذه المؤسسات، فهذا تجني لا نريد الوصول إليه، فالكثير من الأعمال التي قاموا بها كانت على درجة عالية من الأهمية، بل أساسية في فهم الحاضر، ولقد تركوا لنا تراثا توثيقيا لا يمكننا الاستغناء عنه. لكن من جهة أخرى، فإن فهم تاريخ هذه المؤسسات سيساعدنا على تحقيق القراءة النقدية لأعمالهم، كما أنه قد يثير الاهتمام في تتبع خطاهم ومراجعة ما كتبوه من قبل أهل فلسطين ونقده من منظورهم. وعليه، لا ينبغي ولا بأي حال من الأحوال رفض التعاطي مع أعمالهم أو التقليل من شأنها وفائدتها. أما التحذير الثاني الضروري فهو، عدم تعميم بعض الأفكار على الجميع، فقد كان هناك من انفلت من عقد المؤسسة التي عمل باسمها أو لصالحها وبتمويل منها وغرد خارج السرب، بل وصل بعضهم إلى مستوى متقدم من نقد ورفض أفكار مؤسسته، وقدم بدائل هامة في إعادة فهم الآثار في فلسطين. صحيح بأن أعداد هؤلاء قليلة نسبيا وكان تأثيرهم في حينه هامشيا، إلا أنهم أسسوا بهذا لمدرسة أخذت بالتفتح لاحقا، وأصبحت اليوم ذا تأثير ملموس، ولم يعد بالإمكان تجاهلها.

Digitized by Birzeit University Library

ويمكن بهذا الخصوص الإشارة إلى المدارس التالية:

- **صندوق استكشاف فلسطين**

كانت بريطانيا بين عامي 1865 – 1866 [1] قد أنشأت صندوق استكشاف فلسطين، وحتى عام 1880 أرسل هذا الصندوق أربع بعثات استكشافية إلى فلسطين[2]. وكان الصندوق الذي كانت ترعاه الملكة فيكتوريا[3] يهدف إلى دراسة تفصيلية لجدوى وأهمية مشروع توطين اليهود في فلسطين بالاعتماد على العديد من خبراء الآثار والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والمناخ[4]. وما استرعى الانتباه في هذا المجال، اهتمام هؤلاء الباحثين بدراسة جغرافية فلسطين، والتركيز على مصادر المياه فيها. كما أكد

(1) جاء التأسيس عقب زيارة أمير ويلز عام 1865، وبناء على توصية من القنصل البريطاني في القدس جيمس فن (James Finn).

(2) كانت أول بعثة قد أرسلت عام 1868 بهدف البحث عن الماء في محيط القدس لتزويد القدس بالمياه. لقد تم المسح تحت إشراف وزارة الحرب البريطانية. وبالرغم من المسح الدقيق للمدينة ومحيطها ودراسة طوبوغرافيتها، إلا أن تزويد القدس بالمياه لم يتحسن. على أية حال، فقد تم اقتراح مشروع لتحسين تزويد المدينة بالمياه وبتكلفة تصل إلى 25,000 جنيه استرليني ووجد من يموله في الجانب البريطاني، إلا أن الدولة العثمانية قد رفضته.

(3) كانت الملكة أول المتبرعين الهامين للصندوق وتبعتها جامعة أكسفورد، وذلك قبل أن يعتمد الصندوق على وزارتي الحرب والخارجيه، حيث جاء الدعم بالمال والعتاد والخبراء، خاصة خبراء الخرائط والمسوحات من العسكريين، لذلك تتقدم الألقاب العسكرية أسماء عدد كبير من الخبراء الذين شاركوا في هذه الأبحاث.

(4) ارتبط صندوق استكشاف فلسطين بكل من وزارة الخارجية البريطانية ووزارة الحرب البريطانية، وكان الخبراء العاملين في الصندوق، والذين يرسلون إلى الميدان يتلقون التدريبات العسكرية إلى جانب التدريب المهني، حيث كانوا يكتبون التقارير الاستخباراتية. حول ذلك أنظر:

Stephanie Prevost, "A Perfect Map of Palestine (1872-1880): Biblical Geography, Intelligence and Prophecy", in *Science and Empire in the Nineteenth Century: A Journey of Imperial Conquest and Scientific Progress*, (eds. C. Delmace, C. Vandamme and D. Andreolle), Cambridge 2010, pp. 13-24, esp. p. 15-20.

وفي الحقيقة أن الكثير من أعمال التوثيق لفلسطين قد تمت بخلفية إمكانية استعمال المعلومات والخرائط لأهداف عسكرية، يمكن لبريطانيا أن تستخدمها في المستقبل القريب.

Digitized by Birzeit University Library

الجنرال تشارلز وارن (Charles Warren)[1] رئيس اللجنة العلمية البريطانية من خلال دراسته أراضي فلسطين في عام 1875، «أنه بالإمكان إسكان 5 ملايين نسمة في أراضي فلسطين، خاصة إذا ما أمكن نقل بعض كميات المياه المتوفرة في شمال فلسطين إلى النقب»[2]. كما أوصى ورن بضرورة استيطان فلسطين[3]. إن مقدمة كتابه الأهم (Underground Jerusalem)، الذي نشر فيه نتائج أبحاثه وحفرياته في القدس، والتي امتدت من عام 1867 إلى العام 1870، تنضح بالعنصرية اتجاه الشرق كله وخاصة الإسلام، وذلك من خلال حواراته مع حاكم القدس العثماني (نظيف باشا) وتقييمه لشخصيته، علاوة على الملاحظات العامة حول المدينة وسكانها[4].

وهذا ما أكده الكابتن الإنجليزي كوندر (Conder)، الذي قاد عملية مسح فلسطين الغربية، والذي لم يتردد أبدا في إبداء أفكاره العنصرية اتجاه المسلمين وديانتهم، وتحقيره لسكان فلسطين العرب، في محاولة منه لإثبات عدم جدارة إبقاء فلسطين بيد العرب الفلاحين الفقراء الكسالى الذين أهملوا فلسطين وحولوها إلى خراب. لقد قال في دراسته التي تحمل عنوان "مستقبل فلسطين"، والتي أصدرها عام 1892: «إن الذي نتوقع أن نراه في فلسطين إذا كان مستقبلها سلمياً هو زيادة تدريجية في عدد السكان الزراعيين وانتشار المستوطنات المزدهرة»، ويضيف كوندر موضحاً طبيعة

---

(1) أرسل إلى فلسطين عام 1867 وعمل في القدس لمدة ثلاث سنوات، ركز كل عمله خلالها على «جبل الهيكل». حول حياة وارن وانجازاته والاتهامات التي وجهت إليه، قارن ما كتبه صديق مجهول مدافع عن وارن:

Defender, *Sir Charles Warren and Spion Kop*, London 1902, p. 1-54; W.W. Williams, *The Life of General Sir Charles Warren*,1941

(2) Charles Warren

(3) Charles Warren, *Underground Jerusalem*, London 1876, p. 363.

(4) Ibid, p. 1-20

Digitized by Birzeit University Library

مهمته: «لقد بدأ صندوق استكشاف فلسطين عمله وهدفه الوحيد إلقاء الضوء على ما جاء في التوراة، ومع ذلك فقد أصبح أداة رئيسة لمساعدة أولئك الذين سيكونون سكان البلاد في المستقبل في الحصول على الحقائق الثابتة عن طاقات وإمكانيات البلاد»[1]. وفي مقدمة كتابه Tent Work in Palestine، يعبر كوندر عن إنجازه العظيم قائلا: «والفرع الثاني (يقصد من المسح الميداني) هو الآثار. يتضمن المسح فحصا كاملا للظروف القديمة التي كانت سائدة في البلد (يقصد فلسطين). الزراعة القديمة تم التعرف عليها من خلال معاصر النبيذ ومعاصر الزيت والسلاسل المدمرة ومناطير المزارع المبنية من حجارة الحقل. أما المواقع القديمة فقد تم التعرف عليها عبر القبور والآبار والجعل الصخرية. وهذا يمكننا من التوصل إلى نتيجة حول الزراعة القديمة والمناخ وطرق التزود بالمياه كما كانت عليه في الفترات التوراتية»[2]. وفي نهاية الكتاب، يقدم تصوراته عن مستقبل فلسطين، ويؤكد على أهميتها الاستراتيجية لبريطانيا العظمى خاصة لحماية مصالحها في الهند، لذلك يجب أن تتحول فلسطين إلى قاعدة عسكرية بريطانية ضخمة[3]. وفيما يتعلق بالقدس، فقد تحول عمل البعثة الأولى إلى مسح شامل للبلدة القديمة. ولا يبدو أن تغيير الأزمنة قد أثر على دوافع صندوق استكشاف فلسطين، ففي المداولات التي تمت على صفحات مجلتهم، يقول مثلا المطران البريطاني إدواردز (Bishop Edwards) أن الجمعية قد أسست من قبل «المسيحيين ... وذلك للتظاهر أمام العالم غير المؤمن (unbelieving world) بحقيقة الرواية

(1) C.R. Conder, "The Future of Palestine": A Lecture (London: PEF, 1892) ويؤكد على هذا الأمر في كتابه الذي صدر عام 1887، حيث يقدم فيه نفس المحاضرة لكن بشكل موسع.

(2) C.R. Conder, *Tent Work in Palestine: A Record of Discovery and Adventure*, London 1887, p. XIV.

(3) Ibid, p. 376

Digitized by Birzeit University Library

التي يسردها الكتاب المقدس»[1].

وتتضح أهداف الصندوق في القدس من خلال المواقع التي تم استهدافها وهي: الأول، تحديد مكان قبر داود وسليمان على جبل صهيون. والثاني، تحديد مجرى وادي الطواحين (واد الجبانة/ طريق الواد على امتداد الجدار الغربي للمسجد الأقصى). والثالث، تحديد حدود جبل الهيكل. والرابع، تحديد موقع برج أنطونيا بدقة. والخامس، إكتشاف قصر هيرودوس العظيم. والسادس، تحديد موقع تل أوفل (القدس الكنعانية)، والتي تسمى بالدراسات التوراتية «مدينة داود». والسابع، اكتشاف أهم بركة لتجميع المياه في القدس وهي بركة بيت حسدا (Bethesda). والثامن، تحديد مكان كل من برج هيبيكوس وبرج بسافينوس (من بناء الملك هيرود الكبير، في منطقة قلعة القدس). والتاسع، فحص عين العذراء (سلون) وفحص نفق حزقيا.

ولاحقا جرى تأسيس جمعية أحباء القدس (Pro-Jerusalem Society)، وذلك بعد إحتلال القدس من قبل القوات البريطانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، ومن ثم جرى تأسيس مدرسة الآثار البريطانية في القدس، والتي أصبحت الأن تحمل اسم «معهد كاثلين كنيون»[2]، كما سيرد أدناه.

---

(1) يمكن العودة إلى الرسائل المتبادلة بين إدواردز (مطران روشيستر) ورجل الأعمال البريطاني السير تشارلز مارستون (Sir Charles Marston) الذي مول الكثير من أعمال الصندوق، بل كان في بعض الفترات الممول الرئيس للصندوق، وذلك في مجلة PEQSt, July 1932, p. 122-124; PEQSt, July 1936, p. 125-126. ومن المفيد التذكير بأن هذه المواقف والاتجاهات الفكرية لم تكن تعبر دائما عن رأي كل أعضاء الجمعية، لكن أيضا لم تبتعد كثيرا عنها، وبالتالي يمكن فهم ذلك كدلالة على وجود صراع داخلي بين اتجاهين، أحدهما يرغب في التركيز على الأبعاد الدينية (التوارتية)، والثاني يريد التركيز على البعد العلمي البحثي، وهم بهذا قد عبروا عن روح العصر وما ساده من نزعات.

(2) حول تاريخ العمل الأثري البريطاني في القدس، أنظر:
S. Gibson, "British Archaeological Work in Jerusalem between 1865-1967", in Eds.

Digitized by Birzeit University Library

• مدرسة الفرنسيسكان[1]

تقع هذه المدرسة في القدس القديمة على طريق الآلام بالقرب من (Franciscan Friary of Flagellation)، أسسها الرهبان الفرنسيسكان عام 1901. تعتبر هذه المدرسة الفرع التوراتي لكلية اللاهوت الموجودة في روما (Pontificum Athenacum Antonianum). استعملت المدرسة كمركز للدراسات والأبحاث التوراتية والأثرية، حيث عملت على كشف العديد من المواقع والأماكن المقدسة التي تعود إلى الفترة البيزنطية وما قبلها. وكان التركيز بشكل خاص على الكنائس الأولى في فلسطين، مستخدمين بذلك المصادر التاريخية المسيحية واليهودية، بالإضافة إلى وصف الرحالة والحجاج خلال عدة قرون. لقد أعطيت الأولوية في أبحاثهم للأبحاث التوراتية من وجهة نظر تفسير لاهوتي ولغوي وبيئي وتهدف أبحاث المدرسة إلى كتابة تاريخ المسيحية في الشرق الأوسط بشكل عام، وكتابة تاريخ المواقع المرتبطة بالحج المسيحي بشكل خاص.

أما أهم الحفريات الأثرية الرئيسية التي قامت بها المدرسة فهي العيزرية، وبيت لحم (كنسية المهد، وحقل الرعاة) وكفر كنا، وكفار ناحوم (على شاطئ بحيرة طبرية)، وعين كارم (من قرى القدس الغربية)، وعمواس (على الطرف الشرقي من السهل الساحلي)، والقبيبة (شمال غرب القدس)، والقدس القديمة، وقبة الصعود (Deminus Flevit) والجسمانية على جبل الزيتون، وكنيسة القيامة في القدس القديمة، والهيروديون (الفرديس) (شرق

K. Galor and G. Avni, *Unearthing Jerusalem: 150 Years of Archaeological Research in the Holy City*, Winona Lake, 2011, p.23-57; Lorenzo Kamel, "The Impact of 'Biblical Orientalism' in Late Nineteenth- and Early Twentieth-Century Palestine", in *New Middle Eastern Studies*, 4 (2014), 1-15.

(1) تسمى أيضا مدرسة الفرنسيسكان التوراتية (دير حبس المسيح).

Digitized by Birzeit University Library

بيت لحم)، والناصرة، وجبل طابور (على الطرف الشرقي لمرج بن عامر)، وجبل نيبو وطبقة فحل (الموقعين الأخيرين في شرق الأردن)، ومن الملاحظ ارتباط جميع هذه المواقع بالعهد الجديد، في حين ارتبط القليل منها بالعهد القديم، هذا الأمر يوضح الاهتمامات الرئيسة للمدرسة.

وتنشر هذه المدرسة تقارير الحفريات سنويا في عدة كُتب ومجلات، ونشرات منها: (Review liber Annuus) و(Collectio Major) و (Collectio Minor). أما الدراسات التوراتية والكنائسية، فيتم نشرها في (Analecta Series). كما تعتبر المدرسة مركزا أكاديميا يعطي درجات علمية على مستوى الليسانس والماجستير وكذلك الدكتوراه في اللاهوت التوراتي، وتقدم درجة الدبلوم في الدراسات التوراتية الشرقية ودبلوم في (Bilblical Formation)، كما أنها تمتلك مكتبة ضخمة، إلى جانب اهتمامها بالدورات السياحية والأثرية والدينية.

كما تضم المدرسة متحفاً يعرض الكثير من القطع الأثرية التي تم الكشف عنها خلال الحفريات التي أجرتها المدرسة خلال قرن من الزمان، علاوة على قطع جرى جمعها من مصادر مختلفة. لا زالت المدرسة تقوم بتنفيذ ما أسست من أجله، وقد تخصصت في العقود الأخيرة بدراسة فسيفساء الكنائس في فلسطين بشكل عام وفي الأردن بشكل خاص، وقد أبدع في هذا الحقل الراهب الراحل ميشيل بيشريللو (Michele Piccirillo)، الذي نشر عددا كبيرا من المقالات والكتب حول الفسيفساء في المواقع المذكورة[1].

تقع المدرسة في موقع تاريخي هام على طريق الآلام، حيث شيدت عليه كنيسة الحكم وكنيسة الشوك في المرحلة الثانية من مراحل آلام السيد

(1) أنظر على سبيل المثال كتابه الهام ميشيل بيشريللو، مادبا: كنائس وفسيفساء، معهد الفرنسيسكان للآثار، ترجمة ميشيل صباح وجورج سابا وأنطون عيسى، القدس 1993.

Digitized by Birzeit University Library

المسيح، علاوة على ذلك هناك ديرا ضخما، حيث يضم عدداً من الرهبان الفرنسيسكان، ومدرسة الآثار ومعهد الدراسات اللاهوتية.

• **المدرسة الأمريكية للآثار**[1]

يعتبر هذا المعهد أقدم مركز أبحاث أمريكي للدراسات الشرقية في منطقة الشرق الأوسط، تأسس عام 1900 تحت اسم المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية (A.S.O.R.)، ثم أطلق عليه عام 1970 المدرسة الأمريكية للآثار، ولاحقا تغير اسمه ليصبح معهد ألبرايت.

كما ويعتبر المعهد من المراكز الهامة في دراسات الشرق الأدنى القديم، وقد قام خلال القرن الماضي من تاريخه، توفير بيئة ثقافية ذات مستوى دولي لطلابه، إضافة إلى تقديم برنامج محاضرات وُزع وبشكل متوازي على مجالات متعددة من دراسات الشرق الأدنى القديم. كما أنه يعتبر مركزا وعنوانا لكثير من الباحثين من مختلف أنحاء العالم. أول مدير للمدرسة أو المعهد كان (Charles Torry) الذي عين عام 1900، وهو الذي دشن برنامج المدرسة وبدأ بالحفريات الأثرية. وظهر تقرير حول هذه الحفريات في بداية نشوء حولية للمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس عام 1920 (J.A.S.O.R.). وقد تناوب على إدارة هذه المدرسة حوالي مئة مدير لأن إداراتها كانت أحيانا سنوية. وأجرى العديد من علماء الآثار حفريات أثرية في فلسطين برعاية هذه المؤسسة، ومن أهم هذه الحفريات سبسطية، وتل النعيمة، ومجدو، والجيب، وتل بيت مرسم، وبيسان، وتعنك، وتل الفول، وبتين، والقدس، وغيرها من المواقع الأثرية. وما زالت المدرسة تقوم بحفرياتها في عقرون إحدى المدن الفلسطينية الخمس، وكذلك في سهل مرج بن عامر، وأماكن

(1) تسمى الآن معهد البرايت للبحث الأثري (Albright Institute of Archaeological Research). لها فرع في عمان وآخر في نقوسيا (قبرص).

Digitized by Birzeit University Library

مختلفة من فلسطين (الأرض المحتلة عام 1948)، وتمتلك مكتبة أثرية ضخمة تضم حوالي 35.000 كتاب وأكثر من 450 دورية.

قد يكون من الضروري هنا تقديم إحدى الشخصيات المركزية من مدراء هذه المدرسة، كونه قد ترك آثارا هائلة على منهجية البحث الأثري لدى الإسرائيليين، كما صبغ هذا الحقل وكتابة التاريخ بشكل عام بصبغة مميزة لم يتم الانفكاك منها بعد، وهو ألبرايت عالم الآثار الأمريكي الشهير (Albrigh)، الذي تحمل هذه المدرسة اسمه اليوم، والذي يعتبر أحد الأباء المؤسسين لعلم الآثار التوراتي، بل قد يكون أهمهم.

ألبرايت[1] هو بروتستانتي أمريكي ولد في تشيلي لأبوين مبشرين (Evangelical Methodist)، وذلك في نهاية القرن التاسع عشر. تخرج من جامعة أيوا، وأصبح لاحقا أحد أهم الأثريين التوراتيين (المتخصصين بالعهد القديم)، وقد شكل ألبرايت تجسيدا للفكرة الأصولية البروتستانتية الاستيطانية، فالعهد القديم بالنسبة له يحتوي على مصداقية تاريخية كاملة، كما آمن ألبرايت بالتفوق الأخلاقي لليهودية - المسيحية، وهذا التفوق يؤهلها لأن تكون الأساس الحضاري للغرب. وينسب إلى ألبرايت إصراره على النسب العرقي للمخلفات الأثرية التابعة للعصرين البرونزي والحديدي، أي إلصاق هوية عرقية للقى الأثرية. وقد يتبادر إلى الذهن ما علاقة هذا الأمريكي البروتستانتي بمداولاتنا هنا؟ في الحقيقة فإن تفسير الماضي بالحالة الصهيونية الإسرائيلية قد استعملت الماضي الذي بناه ألبرايت إلى حد كبير، فقد اعتمدت نظرياته من قبل الآباء المؤسسين لعلم الآثار في إسرائيل، خاصة أهاروني (Aharoni) وبادين (Yadin).

كان ألبرايت مؤمنا بنظريات التطهير العرقي بالتاريخ، وقد أوجد

(1) كان مديرا للمدرسة خلال السنوات 1922-1929، 1933-1936.

Digitized by Birzeit University Library

الأساس الأخلاقي للتطهير العرقي عام 1948. وللتدليل على ما ذهب إليه ألبرايت نقتبس ما كتبه: «... قد يكون لنا، نحن الأمريكيين، حق أقل من معظم الأمم الحديثة، وعلى الرغم من إنسانيتنا الأصيلة، أن نصدر أحكامنا على الإسرائيليين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لأننا سواء قصدنا أو لم نقصد، قمنا بإبادة عشرات الآلاف من الهنود في كل زاوية من زوايا أمتنا الكبيرة، وجمعنا الباقي منهم في معسكرات اعتقال. إن حقيقة أن ذلك لم يكن ممكنا تجنبه، لا يجعل الأمر مقبولا بالنسبة للأمريكيين اليوم. من الواضح أنه بعد المرحلة الأولى من الاحتلال الإسرائيلي (يقصد احتلال يوشع بن نون)، لا نعود نسمع عن مدن كنعانية خاصة، وإنما فقط عن طرد أو وضع تحت الجزية. فمن زاوية فيلسوف التاريخ المحايد، يبدو في الغالب ضروريا أن يتم اختفاء بشر من أنماط متخلفة من أمام بشر ذوي إمكانيات متفوقة. وحين يحصل ذلك، كما هو الحال الآن في أستراليا، لا يكون هناك ما يمكن فعله من قبل الإنسانيين...»[1].

يشكل هذا النص العنصري المنطلق من الحضارة (والدين) المتفوقة (المنتصرة) مثالا جيدا لطبيعة بعض المناحي التي اتخذها بعض الأثريين المؤثرين، ويتلاقى هذا الفهم إلى حد بعيد مع أطروحات ما اصطلح على تسميته المؤرخ الجديد في إسرائيل بني موريس، والذي أثبت بلا مواربة سياسة التطهير العرقي (لا يعترف بأنها خطط وضعت بشكل مسبق بالرغم من نشر الوثائق ذات العلاقة، خاصة ما يسمى خطة دالت) التي مارستها القوات الصهيونية عام 1948، ولكنها في نهاية المطاف لم يبرر فقط هذه السياسة كضرورة موضوعية لنشوء إسرائيل، بل حتى أنه ذهب إلى أكثر من

(1) أنظر الخلفية الثقافية والاجتماعية حول ألبرايت، وكذلك الاقتباسات المختلفة من كتاباته لدى غابريئيل بيتربرغ، **المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير وسياسات ودراسات إسرائيلية**، ترجمة سلافة حجاوي، مدار، رام الله 2009، ص 296 وما بعدها.

Digitized by Birzeit University Library

ذلك في تبرير إمكانية قيام إسرائيل بتطهير كل «أرض إسرائيل» من العرب، وهي ضرورة لن يكون مفر منها في المستقبل على حد قوله[1].

يتضح بعد هذا العلاقة بين الآثار، وكتابة التاريخ، واستحضار تاريخ القدس من وجهة نظر توراتية ليس فقط للتأسيس لدولة يهودية بحتة وعاصمتها القدس، بل أيضا لتدعيم هذا المشروع بنصوص من الكتاب المقدس، وبالاعتماد على نتائج الحفريات التي ركبت أحيانا قهرا للتوافق والنص المقدس، فما كان على يوشع بن نون ممارسته قبل 2300 عام من مذابح وطرد للسكان (في مدينة أريحا مثلا)، تماما يبرر ما قام به بن غوريون عام 1948، فكلاهما نفذا إرادة إلهية، من الكفر عدم تنفيذها. ومن ألبرايت، بوعي أو بدون وعي، يستمد بني موريس فهمه للتاريخ ووظيفته بالرغم من مرور أكثر من ثمانية عقود على أبحاث ألبرايت، لكنها في حقيقة الأمر قد ساهمت بالتأسيس لمدرسة فكرية مازالت تفعل مفاعيلها في مصانع التاريخ الإسرائيلية.

يخطئ من يعتقد بأنه بعد كل الأعمال النقدية التي جرت على العهد القديم وحقل الآثار التوراتية، أن تأثير ألبرايت قد تضعضع، فمازالت الكثير من الأوساط «الأكاديمية» تعتبره الأب الروحي لها إلى حد التمجيد والتبجيل بهذا الأب المؤسس بكيل المديح المفرط له. وبغض النظر عن آراءه العنصرية، التي أشرنا إلى بعضها هنا، وذلك بغض النظر عن النقد اللاذع الذي وجه إليه من قبل الكثيرين، سواء العاملين في حقل الآثار التوراتية أو

(1) حول أبحاثه عن النكبة واللاجئين، أنظر كتابه: *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947–1949*، والذي صدر في كامبريدج عام 1988، وأصدر طبعة جديدة منه قام بإجراء تعديلات كثيرة على مواقفه وذلك سنة 2004، متأثرا بانهيار المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية عام 2000. لمزيد من التفاصيل حول آراءه أنظر المقابلة التي أجراها مع صحيفة هآرتس بتاريخ 9/ 1/ 2004.

Digitized by Birzeit University Library

العاملين في حقل الدراسات التوراتية واللاهوتية[1].

• **المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية (الدومينيكان)[2]**

تأسست في عام 1890، وهي أول مؤسسة فرنسية للأبحاث الأثرية في فلسطين. أسسها الآباء الدومينيكان (آباء القديس اسطفان) برئاسة الأب ماري جوزيف لاغرانج (Mari Joseph Lagrange) وأسماها «المدرسة العملية للدراسات التوراتية». وكان مقرها ومازال في دير الرهبان الدومينيكان في القدس، والذي يقع على بعد حوالي 100 شمال باب العامود. وأما الهدف من إنشاء هذه المؤسسة، فقد كان دراسة التوراة بطريقة علمية وعملية من خلال التعرف على البيئة الإنسانية التي وجدت فيها الأحداث التوراتية، إضافة إلى دراسة جغرافية الأرض المقدسة وتاريخ الشرق القديم واللغات الشرقية وعلم الآثار والنقوش. ولتنفيذ الأهداف المذكورة، تم تشكيل فريق من العلماء في مختلف الميادين للتدريس والبحث، وبدأت المدرسة بإصدار منشورات أهمها مجلة (Revue Biblique) التي كانت تصدر كل ثلاثة أشهر وبدأت بالصدور عام 1892، ولا تزال مستمرة بالصدور حتى يومنا هذا. ثم أصدرت مجلة (Etude Biblique) التي بدأت بالصدور عام 1900. هذا، وقد رافق التعليم والنشر، نشاط في البحث الأثري الميداني، حيث كانت أول حفرية أثرية أجرتها المدرسة في دير الرهبان الدومينيكان التابع للمدرسة،

(1) كتبت الكثير من الكتب والمقالات تمجيداً بالبرايت، ولا مجال هنا لسردها، كما حصل هذا الرجل على الكثير من الجوائز والدكتوراة الفخرية، كما كرمه رئيس دول إسرائيل بلقب «عزيز القدس» سنة 1969. لقد كان تأثيره عظيما، حيث انتشر طلابه في غالبية معاهد الآثار التوارتية في كل الولايات المتحدة الأمريكية، علاوة على انتشارهم في معاهد اللاهوت البروتستانتي، وأشرف على عشرات الرسائل الجامعية. أنظر على سبيل المثال المقالة التكريمية حول ألبرايت: T. Levy and D. Freedman, "William Foxwell Albright 1891-1971: A Biographical Memoir", *National Academy of Sciences*, Washington, D.C., 2009. http://www.bibleinterp.com/articles/albright5.shtml

(2) وتسمى أيضا المدرسة الفرنسية للآثار (Ecole Biblique et Archaeologique).

Digitized by Birzeit University Library

وتم الكشف خلالها عن كنيسة تعود بتاريخها إلى منتصف القرن الخامس للميلاد. وقد ركزت المدرسة أيضا في بحثها على الكشف السطحي أو المسح الأثري، وذلك عن طريق قيام العلماء والباحثين والطلبة بالتجوال في كافة أنحاء فلسطين برحلات ميدانية منتظمة، عملوا خلالها على دراسة جغرافية فلسطين وأسماء الأماكن وتتبعوا الطرق القديمة، وجمعوا الكثير من النقوش، إضافة إلى القطع المعمارية والنحتية.

نشطت المدرسة بالتعاون مع دائرة الآثار الفلسطينية في غزة منذ العام 1995، حيث حفرت مجموعة من المواقع التي تعود إلى الفترة البيزنطية وأخرى تعود إلى الفترة الفلسطينية وميناء الأنثيدون (البلاخية)، وفي الحقيقة استمرت الحملة في قطاع غزة عدة سنوات وشملت مناطق مختلفة من القطاع، أدت أيضا إلى تأهيل مجموعة من المواقع وأقامت معرضا دوليا هاما في باريس حول نتائجها، كما نشرت نتائجها في مجموعة كبيرة من المقالات والكتب، تعتبر في حقيقة الأمر الأكبر والأهم حول تاريخ وآثار قطاع غزة. ويعود الكثير من الفضل لهذه الحملة في إنشاء متحف للآثار في مدينة غزة، وذلك بجمع وعرض اللقى التي جمعت خلال الحفريات هذه، بالإضافة إلى لقى مختلفة أخرى جمعت من نواح مختلفة من قطاع غزة[1].

تقدم المدرسة برنامجا يؤدي إلى درجة الدكتوراة بالدراسات التوراتية، كما يوجد برنامج دكتوراة مشترك مع جامعات أخرى، وترحب بالباحثين في الحقول التوراتية المختلفة. تمتلك المدرسة مكتبة أثرية ولاهوتية ضخمة هي الأكبر بين مثيلاتها في القدس، عدا عن امتلاكها مجموعة صور ضخمة تعود

(1) حول حملة المدرسة الفرنسية في قطاع غزة، أنظر التقارير المنشورة على الرابط (تمت زيارة الموقع بتاريخ 15/ 10/ 2016): http://www.ebaf.edu/wp-content/uploads/2013/03/Gaza-2005-2011.pdf

Digitized by Birzeit University Library

إلى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عدا عن مجموعات مختلفة من اللقى الأثرية.

• **المدرسة الألمانية**[1]

تأسس هذا المعهد في عام 1900 بمدينة القدس كمؤسسة تابعة للكنيسة البروتستانتية الألمانية (The German Protestant Institute of Archaeology of the Holy Land) (Deutsches Evangelisches Institute für Altertumswissenschft des Heiligen Landes)، وتم افتتاحه في عام 1903. وكان الهدف من إنشاءه عقب زيارة الإمبراطور الألماني وليم (فلهلم) الثاني إلى القدس عام 1898، تقوية الصلات بين البحث الذي يعمل عليه العلماء في الأرض المقدسة واللاهوت البروتستانتي بعناصره المختلفة. ويبدو أن فكرة إنشاءه لم تكن بعيدة عن منافسة الدومنيكان الفرنسيين في القدس، كما أن هيكلية المعهد لم تبعد كثيرا عن فكرة صندوق استكشاف فلسطين، خاصة وأن المعهد قد مول من اتحاد الكنائس اللوثرية الألمانية، وليس من الحكومة الألمانية على شاكلة المعهد الألماني للآثار في روما وأثينا اللذان سبقا معهد القدس.

المدير الأول لهذا المعهد كان جوستاف دلمان (Gustaf Dalman)، الذي كان متخصصاً في مجال الاثنوغرافيا التوراتية، حيث عين عام 1902، وقد عمل على جمع الكثير من المعلومات حول الحياة القروية والريفية في فلسطين. أصدر دالمان في هذا الموضوع موسوعة من ثمانية أجزاء سميت (Arbeit und Sitte in Palästina) أي «العمل والتراث في فلسطين». وعمل (Dalman) أيضاً على البدء ببرنامج دراسي للباحثين الألمان الشباب. وقد زود هذا البرنامج

(1) المعهد الألماني البروتستانتي للآثار (German Protestant Institute of Archeology)

Digitized by Birzeit University Library

الباحثين الألمان، ليس فقط بالنتائج الأثرية ومعرفة البقايا السطحية، بل أيضا بالصفات الطبيعية للمنطقة الواقعة على ضفتي نهر الأردن، كما قام دالمان بجمع مجموعة كبيرة من القطع الفلكلورية (الاثنوغرافية) الفلسطينية. إلا أن العمل في هذا المعهد قد توقف مع بداية الحرب العالمية الأولى، بسبب سقوط فلسطين بيد الإنكليز. وفي عام 1921 تم تعيين مدير جديد للمدرسة هو (Albrecht Alt)[1]. وعمل المدير الجديد على تدريب الباحثين في المعهد على كيفية البحث في تاريخ فلسطين، والذي كان يركز بشكل رئيس على الجغرافيا التاريخية. توقف هذا البرنامج عام 1932 وتم إعادة العمل فيه مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية عام 1953 بإشراف كل من (Kunt Galling) و (Arnult Kuschke). وفي عام 1964 تم إعادة افتتاح المعهد بشكل رسمي وعين (Martin Noth) مديراً له. ويجري حتى الآن تدريب عدد من الطلاب الألمان كل صيف في مجال الآثار واللاهوت في الأراضي المقدسة، وهو أيضا استمرار لنفس البرنامج الذي بدأه المدير الأول[2].

---

(1) ألبرخت ألت (Alt) آمن بوجود قيمة تاريخية في الرواية التوراتية ولم يعتبرها حقيقة تاريخية بعكس ألبرايت، وقد استعمل المنهج السوسيولوجي في تحليل النصوص التوراتية، وقد يكون من الأوائل الذين اعتبروا أن القبائل العبرية هي نتاج صراع وتطور اجتماعي محلي وليس غزاة جاؤوا من الخارج، وأنهم عبارة عن ائتلاف قبائل بدوية تحولت تدريجيا إلى قبائل مستقرة. وفي هذا الخصوص يجب الإشارة إلى ما قدمه جورج ماندنهول (George Mendenhall) الذي قال بمقولة ألبرخت ألت، إلا أنه اعتبر أن القبائل العبرية قد تشكلت من الكنعانيين. أنظر آراء ألت من خلال مجموعة من مقالاته التي جمعها في كتاب:

Albricht Alt, *Kleine Schriften zur Geschichte des Volkes Israel*. Auswahl in einem Band, Berlin: Evangelische Verlags-Anstalt, 1959.

أما حول آراء ماندنهول، أنظر:

William G. Dever, *Who Were the Early Israelites and Where Did They Come From?*. Wm. B. Eerdmans Publishing, 2006.

(2) لمزيد من التفاصيل حول المعهد الألماني، أنظر:

U. Hübner, "The German Protestant Institute of Archaeology", in in Eds. K. Galor and G. Avni, *Unearthing Jerusalem: 150 Years of Archaeological Research in the Holy City*,

Digitized by Birzeit University Library

لقد جاء تأسيس مجمل هذه المؤسسات الأكاديمية في محاولة لنقل حركة البحث إلى طابع مؤسساتي دائم في المنطقة، وتثبيت مناهج بحث محددة، وتدريب العاملين في الحقل على هذه المناهج وإعادتهم إلى بلادهم الأصلية ليساهموا في تدريس اللاهوت المبني على التجربة العملية المكتسبة في الأراضي المقدسة، والمبنية على الخوض في أماكن شهدت أحداث العهدين القديم والجديد، وتنسم نفس الهواء الذي تنسمه من عاش في الفترات التوراتية، وطبعا على درجة أقل فترات العهد الجديد[1]. وضمن ذلك المفهوم، وبهذه الخلفية، تمت دراسة المجتمع الفلسطيني القائم على اعتباره مادة فلكلورية وأنثروبولوجية بحيا في نفس أجواء وشروط حياة «العصور التوراتية»، لم يقطع هذا المجتمع أية خطوة إلى الأمام خلال أكثر من أربعة عشر قرنا، فالحضارة العربية الإسلامية، حتى في أوج تطورها، لم تترك أي أثر في سكان فلسطين الذين بقوا أسرى للحياة التي اختطها الآباء التوراتيين وحبسوهم داخلها بشكل مؤبد.

إن دراسة المجتمع الفلسطيني في هذه الحالة لم تكن هدفا بحد ذاته بقدر ما كان هذا المجتمع واسطة لفهم نصوص العهد القديم، وأن الفلسطيني لم يحيى أية تجربة أخرى منذ العهد القديم، فقد حافظ على تراث هذا العهد ولم يمر بفترات تاريخية أخرى، حيث جرى اختزال هذه الفترات وتجاهل وجودها، إلى حد إخفاء تاريخها، وهكذا جرى القفز عن الكثير من المراحل

Winona Lake, 2011, p. 59-72; H.-J. Zobel, "Geschichte des Deutschen Evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des Heiligen Landes von Anfaenge bis zum Zweiten Weltkrieg", in *ZDPV*, 97, 1981, S. 1-11.

(1) لم تختلف هذه الرسالة حتى اليوم، فما زال طلاب الدراسات التوراتية والأثرية من الألمان والأمريكان والإنجليز والفرنسيين والطليان وغيرهم يأتون إلى القدس للإقامة لفترات قصيرة أو طويلة لإجراء الدراسات والقيام بالجولات الميدانية.

Digitized by Birzeit University Library

التاريخية المشكلة لتاريخ القدس، وصولا إلى الفترة التوراتية، حتى أن الكثير من الطبقات الأثرية العليا قد أزيلت بدون توثيق، فالهدف الوصول إلى طبقة العصر الحديدي، وما هو غير ذلك فلا داعي لإضاعة الوقت بدراسته. إن مشاهدة فلاحة في ريف القدس تستعمل الرحى البازلتية في طحن العدس كانت تسترعي البحث في العهد القديم عن صورة مشابهة لامرأة تقوم بهذه الوظيفة، فإن لم يؤدي البحث عن وجود مثل هذه الصورة في العهد القديم، كان يقال هكذا كانت المرأة في عصر التوراة تقوم بطحن العدس، وهكذا...

ومن جهة أخرى، كانت طبيعة تكوين المجتمع المحلي الفلسطيني اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً في تلك الفترة (1850 -1917م) غير قادرة على إفراز نخب فكرية تمتلك أدوات المعرفة الحديثة التي ظهرت في عصر النهضة الأوروبية، والتي تمكن من إنشاء إطار معرفي وبحثي حول تاريخ مجتمعها الحضاري، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة هذا المجتمع، التي لم تنمو في تلك المرحلة باتجاهات حديثة، أي على أساس قومي أو وطني. خلال هذه الفترة، كان المجتمع الفلسطيني يعيش ضمن انتماءين: الأول عثماني إسلامي واسع متعدد الثقافات والأديان والأعراق، كما اعتاد على ذلك منذ قرون طويلة، وإن أخذ الشكل المحلي (الفلسطيني!) فقد جاء ضمن المحيط الشامي الواسع (بلاد الشام). والثاني، فلسطيني محلي مشرذم ومتعاد ومشكل من فدراليتين قبليتين واسعتين (قيس ويمن)، ومنتظم ضمن إقطاعيات صغيرة نسبيا يسيطر عليها شيوخ النواحي أو حكام محليين بخبرات إدارية متواضعة أو تقع تحت إدارة موظفين عثمانيين يتمتعون بحكم ذاتي نسبي في بعض المناطق الجغرافية من فلسطين ضمن إطار من الفساد الإداري والمالي، هذا عدا عن التشتت الإداري واختفاء السلطة المركزية القادرة على

Digitized by Birzeit University Library

تطوير المجتمع بشكل موحد، وصياغة برامج تربوية وثقافية، تقود إلى ثورة معرفية[1].

وبالمقابل لم يتولد أي دافع تاريخي (بمنظور وطني) نحو معرفة التاريخ الحضاري للمنطقة من قبل السكان الفلسطينيين بسبب غياب مجموعات فكرية معاصرة قادرة على إنتاج منظور معرفي للماضي يعكس فهمهم له ويعبر عن تمنياتهم المستقبلية، وارتبط هذا بطبيعة التكوين الاجتماعي والاقتصادي لفلسطين في تلك المرحلة، والحالة الانتقالية المسيطرة عليها من قبل النزعات المختلفة (ومن ضمنها النزعة القومية) التي تعيشها الدولة العثمانية.

وبهذا عندما جاءت حركة الاستشراق إلى فلسطين، تمكنت بسرعة نسبية من تأسيس قواعد معرفية بنظرة متحيزة نحو الماضي، وذلك بناء على تجربتها الطويلة المعتمدة على الدراسات التي استمرت قرون حول العهدين القديم والجديد، والتي كانت منتشرة في الجامعات الأوروبية، وذلك بعيداً عن التفاعل مع شريحة المثقفين الفلسطينيين بسبب عدم نضوجها أو عدم وجودها أصلاً، أو عدم قدرتها على تأسيس مدرسة خاصة لفهم الماضي. هذا علاوة أصلا على سواد فكرة التعالي الحضاري والقومي والديني والثقافي التي اتصفت به المجموعات الأجنبية (الغربية)، وبالتالي، لم تكلف نفسها هذه النخب ولو بالحد الأدنى من التفاعل مع السكان الأصلانيين، فهم مجرد شاهد يحمل تجربة العهد القديم، وبهذا لا يتعدى دور الفلسطيني قطعة أثرية

(1) حول أوضاع فلسطين في أواخر العصر العثماني أنظر ألكسندر شولش، **تحولات جذرية في فلسطين 1856–1882**، ترجمة كامل العسلي، عمان 1988، ص 207–277. كذلك عادل مناع، **تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700–1918**، بيروت 1999، ص 47–16. وحول وجهة النظر الإسرائيلية من هذه الفترة، وهي وجهة نظر متطورة نسبيا ومعتمدة على الوثائق العثمانية، بالرغم من أنها أسيرة للنظرة العامة، أنظر:
Haim Gerber, *Ottoman Rule in Jerusalem* **1890-1914**, Berlin 1985.

Digitized by Birzeit University Library

جرى الكشف عنها، مما يتطلب توثيقها وتحليله ودراسته ومقاربته بنصوص العهد القديم، عندها فقط يصبح فهم داود وسليمان حقيقيا.

ومن المثير معرفته، أن هذه المجموعات لم تؤمن أصلا بامتلاك سكان فلسطين لهذا الإرث الحضاري للأرض المقدسة، بل اعتبرت نفسها، كمؤمنة بالعهدين القديم والجديد وكنتاج فكري لهما، وهي مالكة لتاريخ فلسطين وعلى قمة هرمه مدينة القدس، أما السكان الفلسطينيين فقد صادف وجودهم بطريقة أو بأخرى هنا (بالخطأ!). وبالتالي، فهم لا يشكلون التواصل العرقي والثقافي والتاريخي لفلسطين عبر التاريخ، وهم بهذا أقرب إلى شعب سقط فجأة وبالخطأ من اللامكان في مكان مقدس (لا يستحقونه)، وإن كانت بعض عاداتهم وتقاليدهم تصلح لقراءة الماضي نتيجة اكتسابهم لها من المخزون الثقافي للأرض المقدسة، الذي أسس له الآباء التوراتيين، وخلال فترة وجودهم (العرب مثلا) لم يضيفوا إلى هذا المخزون شيئا (إن لم يقوموا بتشويهه!)، بل أعادوا فقط إنتاج المخزون التوراتي وحافظوا عليه من الاندثار، وبهذا اكتسبوا بعض التقدير، خاصة لحفظهم العادات والتقاليد وأسماء المواقع التوراتية[1]، ما يغفر لهم ولو إلى حين، قيامهم بتدمير الأراضي المقدسة. وحتى تعود «أرض التوراة» إلى عظمتها التاريخية، كما كانت عليه في أيام داود وسليمان، أو كما كانت عليه أيام أمجاد بيزنطة العظيمة، أو كما حاول

(1) عاشت بعض هذه المجموعات أزمة في فهم بعض المنتجات الحضارية التي تنسب إلى الفترة العربية الإسلامية، فإن كان السكان المحليون لم يساهموا بالحضارة في فلسطين، فكيف يمكن فهم مباني ضخمة وجميلة مثل قبة الصخرة والمسجد الأقصى والقصور الأموية العيديدة المنتشرة في فلسطين. إن تاريخ المداولات «العلمية» حول هذين الصرحين أكثر من مثيرة في تلك الفترة، فمرة يتم وصف الهيكل الثاني وكأن قبة الصخرة غير مرئية، ومرة يتم فهم المسجد الأقصى على أنه كنيسة (كنيسة القديسة مريم الجديدة) جرى تحويلها إلى مسجد، لأنه لا يعقل أن تكون الحضارة العربية الإسلامية قد نجحت في إنتاج مثل هذه الصروح، وإن تم الاعتراف بذلك، حيث لا مجال للشك في تاريخها، فيتم اللجوء إلى تفكيك مكوناتها وذلك لنسب فكرتها، وتخطيطها، وزخارفها، ومظهرها، إلى ثقافات أخرى تم استيرادها، أو كانت سائدة في المنطقة

Digitized by Birzeit University Library

تنميتها بشكل فذ الفرنجة، فلا بد إذا من القيام بتغيير ثوري يعيد الحق إلى أصحابه، القادرين على تمهيد الطريق القويم لعودة المسيح، وفي سبيل تحقيق ذلك، وتنفيذا للإرادة الإلهية، كل شيء مباح.

2. فترة الاحتلال والانتداب البريطانيين

كان من نتائج الحرب العالمية الأولى انهيار كامل لسيطرة الدولة العثمانية على فلسطين، ومن ثم بداية الاحتلال وبعدها الانتداب البريطاني عليها. وتوازى مع هذا التطور السريع، اتساع مضطرد في نمو المؤسسات الصهيونية على الأرض، والتي كانت قد بدأت به قبل ذلك بعدة عقود وبنفس الوقت الذي ظهرت فيها النخب الأوروبية على أرض فلسطين باحثة عن بقايا داود وسليمان. ويمكن القول، بأن ما كان حلما بالنسبة لها قد تحول إلى بداية تأسيس مشروعها على أرض الواقع، بدعم كامل من الدولة المسيطرة «بريطانيا العظمى». في المقابل، بدأ المجتمع الفلسطيني بالخروج من شرنقة القوى التقليدية المحلية التي حكمته في الفترة العثمانية المتأخرة، والانتقال تدريجيا إلى مجتمع مبني على الخصوصية الوطنية، خاصة بسبب تعزز علاقته بالعالم (عصر الدول القومية)، وخروج الكثير من الفلسطينيين للدراسة في الخارج واطلاعهم على ما يدور في هذه البلاد والتشرب بثقافاتها، عدا عن بدء ظهور تأثير المدارس التبشيرية على النخب الفلسطينية، التي بدأت بفهم المجتمعات الأوروبية ومشاريعها الاستعمارية، ومن ضمنها مشروع استعمار

قبل الفتوحات الإسلامية. ومن المثير أنه قد تم انتزاع فلسطين من مجموع التاريخ الإسلامي، فلم يتم النظر إلى قبة الصخرة كجزء من الموروث الأموي الممتد إلى الاندلس والمعروف لدى هؤلاء، لكن المشكلة لا تقع في عدم فهمهم للتراث الإسلامي الممتد على ثلاث قارات، بل كيف يمكن إخفاء أي شيء لا يتعلق بالعهدين القديم والجديد من الأرض المقدسة، لأن لا يسمح لأي شيء تشويه أرض التوراة، الأراضي المقدسة بالمفهوم اليهودي المسيحي.

Digitized by Birzeit University Library

فلسطين[1]. وبالرغم من هذا الانتقال، إلا أنه لم يتمكن المثقفون الفلسطينيون من ربط «الهوية الجديدة» للفلسطينيين، إن صح التعبير وهو بالتأكيد مجازي، مع الماضي (الموروث المادي) بشكل علمي ومنهجي، خاصة وأن مسألة الانتماء إلى «العربي» و/ أو «العثماني» كانت محط الاهتمام، وذلك في ظل وعي متدني بـ«الإقليمية» كمشروع وطني، واستمرار غالبية الفلسطينيين بتبني إما الهوية العثمانية أو الهوية العربية كخيار سياسي وأيضا كخيار للهوية الحضارية[2]، وقد لا يكون الفلسطيني قد شعر في حينه بأنه بحاجة إلى دراسة الماضي لاثبات حقه في الحاضر والمستقبل، مثل ما شعرت بضرورته الحركة الصهيونية ومن وقف من خلفها، وهو أمر مفهوم على كل حال.

عززت الحركة الصهيونية عبر برنامجها المبني على بناء مؤسساتها الفاعلة ذات الصلة بتكوين الدولة الصهيونية المستقبلية، حيث دأبت هذه الحركة على تطوير وربط هذا الوجود الحديث بالماضي التوراتي باستخدام العلوم التاريخية مثل الآثار والتاريخ والجغرافية والأنثروبولوجيا، والتي بدأت تدار من قبل مؤسسات علمية منظمة، مستندة إلى التجربة الغربية المذكورة أعلاه على أرض فلسطين (وخارجها)، والتي في حقيقة الأمر كانت جزءاً أساسا منها سواء من ناحية الخلفية الدينية أو من ناحية المنهجية العلمية والثقافية، فقد كان كل العاملين تقريبا في حقول المعرفة التاريخية من اليهود القادمين من أوروبا أو أمريكا، وبالتالي لم يكن من الممكن التفريق بين المجموعتين

(1) في الحقيقة أن جذور هذا الوعي بالذات وعمقه التاريخي يمكن إعادتها إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لكن معالمها قد تبلورت وقطعت شوطا هاما في مطلع القرن العشرين. لمزيد من التفاصيل، أنظر الدراسة المفصلة لرشيد الخالدي:
Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness, Columbia University Press 1997.

(2) لم يتعزز المطلب الفلسطيني بدولة وطنية (إقليمية) مستقلة قبل العقدين السابع والثامن من القرن العشرين، وهذا لا يعني بأن الفكرة لم تكن متداولة قبل ذلك، لكنها لم تكن برنامجا وطنيا.

Digitized by Birzeit University Library

إلا من حيث الهدف، فقد هدفت الأخيرة إلى بناء دولة على أرض فلسطين، في حين أن المجموعات الغربية غير اليهودية تعددت أهدافها من الهدف الكولونيالي الذي يشمل المنطقة العربية كلها، و«إعادة بناء دولة اليهود» إلى الرومانسية الدينية أو لمجرد المغامرة وتنشق عبق الشرق المليء بالأسرار والمفاجئات والتوابل والعطور والنساء الحسناوات المستعدات دائما لخدمة الرجال، ولكن لا يمكن أيضا نفي فكرة البحث العلمي من حيث المبدأ، فقد تشبث بعضهم بها. أما بعضهم الآخر فقد خدم فكرة دولته بوعي أو بدون وعي.

على أية حال، أسست حكومة الانتداب البريطاني نفسها بشكل عام على أساس تقني في غالبية الحقول ومنها حقل الآثار، فقد استدعت المتخصصين البريطانيين لإنشاء دائرة الآثار الفلسطينية التي قامت بإجراء العديد من التنقيبات والمسوحات الأثرية، مستكملة بذلك ما قام به من سبقها من الباحثين الغربيين بشكل عام والباحثين البريطانيين بشكل خاص (صندوق استكشاف فلسطين). وإلى جانب العاملين في دائرة الآثار، تواصل عمل المجموعات العلمية في المدارس الأجنبية، خاصة مدرسة الآثار البريطانية في القدس[1]، والتي تأسست في القدس عام 1918 بمبادرة من الأكاديمية البريطانية (British Academy) وصندوق الاستكشاف الفلسطيني (P.E.F.) في لندن. كان الهدف من إنشاء هذه المدرسة، كما ورد في النسخة الأولى الصادرة عنها، هو لتسهيل مهمة البحث العلمي وتدريب إداريين وحفارين في مجال الآثار، وكذلك المساهمة بالطرق الممكنة في الاكتشافات التي يقوم بها صندوق الاستكشاف. أول مدير لهذه للمدرسة كان (John Garstarg)

(1) أطلق عليه أخيرا معهد كاثلين كانيون.

Digitized by Birzeit University Library

وهو من علماء الآثار المعروفين في ذلك الوقت. وقد عمل، وبدعم مالي من الحكومة البريطانية، على تنظيم المدرسة وتفعيلها. بقيت المدرسة تعمل حتى عام 1947، حيث أغلقت بسبب الوضع السياسي، وقد تقلب عليها عدة مدراء منهم (J. W. Growfoot) و(G.M. Fiz Gerald) وغيرهم. وبعد حرب عام 1948 أصبحت المدرسة تقع فيما أصبح يعرف «القدس الشرقية». وأعادت المدرسة نشاطها بحفريات أثرية كبيرة ترأستها عالمة الآثار البريطانية الشهيرة (Kathleen Kenyon)[1] في كل من أريحا والقدس استمرت حتى عام 1967. وبعد حرب عام 1967 وبداية السبعينات، عملت المدرسة على مشروع مسح الأبنية المملوكية في البلدة القديمة، صدر عن هذا المسح في كتاب عام 1997 «القدس المملوكية»[2]. وشهدت هذه الفترة تأسيس المعهد البريطاني للتاريخ والآثار في عمان برئاسة (Crystal Benet) وترأس المدرسة في القدس (John Wilkinson)[3] كنائب للرئيس. وفي السنوات الأخيرة، تم تأسيس المجلس البريطاني للأبحاث في المشرق ومركزه الرئيس في عمان. إلا ان هذه الفكرة التي تعكس التقليل من أهمية مدينة القدس، لم تكن مقبولة من قبل علماء الآثار الإنجليز ولا طبعا من الفلسطينيين، وتم الاتفاق أخيراً على أن يكون مركز المجلس البريطاني للأبحاث في الشرق (CPRL) في القدس، ويعمل في

---

(1) نشرت العشرات من الكتب والمقالات حول آثار فلسطين، لكن كتابها حول حفريات أريحا والقدس يبقيان من أهم ما كتبت، أنظر:

Digging Up Jericho, London 1957; *Digging up Jerusalem*, London 1974

كما يمكن العودة إلى كتابها الشمولي الذي توضح فيه الكثير من آرائها:

Archaeology in the Holy Land, first edition, London 1960

(2) نشر المسح المبدع في كتاب: Michael Burgoyne, *Mamluk Jerusalem*, London 1987

(3) اهتم ويلكنسون بالفترة البيزنطية بشكل خاص، وركز أيضا على أدب الرحلات والحج إلى فلسطين، كما درس القدس خلال فترة السيد المسيح، أنظر كتبه الهامة:

Jerusalem Pilgrims Before the Crusades, London 1977; *Jerusalem Pilgrimage 1099-1187*, London 1988; *Jerusalem as Jesus Knew it: Archaeological Evidence*, London 1978.

Digitized by Birzeit University Library

نفس المدرسة القديمة التي كان يطلق عليها المدرسة البريطانية للآثار، ويتم تعيين مديرا جديدا للمركز.

وعودة إلى موضوعنا، فمن الواضح أن هذه التركيبة التقنية العاملة في مجال العلوم التاريخية أثناء فترة الانتداب البريطاني، لم تمكن الفلسطينيين من القيام بنشاط ملحوظ في مجال البحث العلمي حول تاريخ وآثار مدينة القدس خاصة. وفي المقابل، تمكنت المجموعات الصهيونية العاملة في مجال العلوم التاريخية من تطوير نفسها بالاعتماد على نتائج عمل البعثات الأجنبية في مجال العلوم التاريخية الخاصة بالقدس وفلسطين، إضافة إلى نجاحها في تطوير بنيتها المؤسساتية الخاصة، والتي تحققت بتأسيس معهد الآثار التابع للجامعة العبرية سنة 1924م[1]، والذي مازال معهدا ضخما ساهم بتأسيس العمل الأثري الصهيوني[2]، وشكل أداة ناجحة بيد السلطة الحاكمة لكتابة تاريخ القدس من منظور صهيوني، بعد أن تم تجند غالبية العاملين في العلوم التاريخية من اليهود ومعهم من آمن بمشروعهم، في خدمة إنشاء دولة إسرائيل كنبؤة توراتية.

وأصبحت المجموعات الصهيونية العاملة في مجال العلوم التاريخية قادرة على تحقيق نتائج ملموسة، وذلك بسبب أن المجموعات الصهيونية

(1) وضع حجر الأساس للجامعة العبرية على جبل المشارف، الامتداد الشمالي لجبل الزيتون، على قمة مطلة على البلدة القديمة، عام 1918، أما الافتتاح الرسمي للجامعة فقد تم عام 1925 بحضور بلفور (صاحب وعد بلفور) والجنرال اللنبي (القائد العسكري البريطاني الذي احتل القدس خلال الحرب العالمية الأولى)، وهربيرت صموئيل (أول مندوب سامي بريطاني على فلسطين) وهو يهودي صهيوني. يجسد حفل الافتتاح عمق العلاقة بين فكرة الجامعة العبرية وبين المشروع الصهيوني على أرض فلسطين من جهة، والمشروع البريطاني في استعمار فلسطين من جهة أخرى.

(2) من أعلام الآثار ومن خريجي وأساتذة الجامعة العبرية، نذكر على سبيل المثال كل من: روث عمبران، ترود دوثان، أرن مثير، بنيامين مزار، أميخاي مزار، ويغال يادين.

Digitized by Birzeit University Library

العاملة في مجال العلوم التاريخية تلقت علومها في الجامعات الأوروبية. فهذه العلوم، وتحديداً علم الآثار، قد نشأت وتطورت ضمن مفهومها المعاصر تاريخياً في أوروبا، وتطورت مناهج البحث الخاص به في أوروبا أيضا، وبهذا لم يكن هناك فجوة معرفية أو تقنية أو منهجية بين المجموعات الصهيونية والعلوم التاريخية ومنها علم الآثار، كما كانت معروفة في العالم الغربي، كما لم تكن اللغات التي كتبت فيها هذه الأبحاث (الانجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية وحتى الروسية) غريبة عن الدارسين اليهود، بل كانت في أغلب الأحيان من لغاتهم الأم. وهذا ما سهل عملها في فلسطين عندما هاجرت إليها واستوطنتها، وتمكنت من بناء مؤسساتها العلمية بسرعة، وربطت أجندتها السياسية والإيديولوجية بهذا العلم بيسر.

كما أن حركة الاستشراق، المشكلة من النخب الغربية، قد بلورت وجذرت نفسها بمؤسسات علمية دائمة في مدينة القدس بالفترة العثمانية المتأخرة (مدارس الآثار الأجنبية سابقة الذكر)، وقد واصلت عملها في البحث العلمي في مجال العلوم التاريخية بعيدا عن الاحتكاك بالمجموعات الفلسطينية الفكرية، وإن تم ذلك فقد كان احتكاكا محدودا، فقد كانت بطبيعة الأمر أقرب إلى النخبة الصهيونية من ناحية الخلفية والمنهجية عدا عن توافر عاملين بحقل الآثار من اليهود الذين يتقنون لغات وثقافات المستشرقين الغربية بسبب نسبهم لهذه البلاد أصلا، مما أسهم في رفد الصهيونية في مجال البحث العلمي للتاريخ الحضاري للمنطقة، خاصة أنه لم يكن هناك تمايز جوهري بين المستشرقين والصهاينة في مجال المنهجية العلمية القائمة على ربط أحداث العهد القديم مع جغرافية القدس وفلسطين (الأراضي المقدسة). ويستدل على هذا من حقيقة الحفريات المتعددة للمواقع ذات الصلة بالعهد القديم التي جرت في فلسطين، والتي أسهمت في استكمال

Digitized by Birzeit University Library

تأسيس نظرية الآثار التوراتية المعتمدة على تقسيم التاريخ إلى ثلاثة عصور: العصر البرونزي المتأخر، والعصر الحديدي، والفترة الرومانية المبكرة، أي تلك العصور التي ارتبطت بدراسات العهد القديم، والتي شكلت مرتكزا لنظرية إسرائيل في تاريخ فلسطين ولو بمسميات مختلفة، كما سيأتي ذكره لاحقا.

ومن الجدير ذكره، أن هذه الفترة قد شهدت بروز بعض من الفاعلين الفلسطينيين وبكفاءة نسبية عالية في حقل التراث الثقافي، ولكن بشكل محدود، وذلك على هامش المدارس الغربية ومجلاتهم المنشورة حول آثار وأنثروبولوجيا فلسطين أو كموظفين عاملين في سلطة الانتداب البريطاني، وبالرغم من محاولتهم طرح أبعاد جديدة في النظرة إلى التراث الثقافي وإلى تاريخ القدس، إلا أنهم بقوا حالة هامشية أمام هذا الكم الهائل من الباحثين اليهود والغربيين. وكان من أبرز هؤلاء الطبيب الفلسطيني توفيق كنعان، الذي أبدى اهتماما كبيرا بالتراث، ويمكن القول بأنه أول الأثروبولوجيين الفلسطينيين، بل من أبرزهم عربيا في حينه[1]. كما يمكن الإشارة بهذا

(1) ولد توفيق كنعان عام 1882، ودرس الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت ومارسه بالقدس طوال عمره حتى توفي سنة 1964. ألف كنعان الكثير من الكتب والعشرات من المقالات، أهمها ما كتبه حول المقامات، وعمارة البيت التقليدي، والحجب ... إلخ كما قام بجمع كمية كبيرة من الحجب تعتبر واحدة من أكبر وأهم مجموعات الحجب في العالم، أهدتها عائلته إلى جامعة بيرزيت عام 1996، حيث نظمت الجامعة معرضا خاصا لها، كما نشرت كتلوج، «يا كافي يا شافي»، يستعرض أهم مكوناتها. لا نعرف لكنعان أي مقالة بالعربية حول المجالات التي ألف فيها، ما عدا بعض الكتابات حول الطب الحديث وتقرير حول الجمعية الطبية العربية الفلسطينية، أما كتاباته حول الفلكلور الفلسطيني فقد كتبها بالانجليزية والألمانية. فقدت مجموعته الهامة من الأيقونات ومكتبته حين سقط بيته الكائن في حي المصرارة عام 1948 تحت الاحتلال الإسرائيلي، حول توفيق كنعان وكتاباته، أنظر خالد الناشف، **يا كافي يا شافي: مجموعة كنعان للحجب الفلسطينية**، جامعة بيرزيت، بيرزيت 1999، خاصة ص 17-26.

Digitized by Birzeit University Library

الخصوص أيضا إلى دميتري برامكي، الذي لمع في حقل الآثار[1] وشكل في حقيقة الأمر الأب الروحي لعلم الآثار الفلسطينية، وساهم بشكل جدي في تطوير المصطلحات الأثرية، وحاول التركيز في حفرياته ومنشوراته على فترات «غير توراتية». كما يمكن استحضار بعض الأسماء الفلسطينية الأخرى التي عملت في القدس في حقل الآثار خلال فترة الانتداب البريطاني، منهم سليم عبد السلام الحسيني وآخر من عائلة الدجاني. على أية حال، استمر النمو الفلسطيني، والذي ترافق في محاولات تقديم رواية (narrative) أولية بديلة كبواكير أولية على إدراك الدور الخطير الذي تلعبه الرواية التاريخية في الصراع الدائر على أرض فلسطين، لكن هذه المحاولة اقتصرت بشكل أساس على الوجود الفلسطيني خارج الحيز الجغرافي الوطني، وذلك في لبنان والأردن وكذلك في جامعات أوروبية وأمريكية مختلفة، ومن الصعب تقدير مدى تأثيرها، إلا أنه كان محدودا جدا.

3. من نكبة عام 1948 الى هزيمة عام 1967

بعيد انهيار المجتمع الفلسطيني أثر نكبة عام 1948 وتأسيس دولة إسرائيل، أصبح جزءاً صغيرا من القدس تحت السيادة الأردنية (حوالي 13% من مجمل مساحة القدس تحت الانتداب البريطاني)، وتم تقسيم (السيادة) على فلسطين الانتدابية بين مجموعة من الدول هي الأردن ومصر وإسرائيل.

---

(1) درس هذا العالم الأثري المقدسي التاريخ والاثار في جامعة لندن وتخرج منها عام 1934، وعمل في دائرة الآثار الإنتدابية كبيرا لمفتشي الآثار، كما أشرف على عدد من الحفريات أهمها في خربة المفجر الأموي (قصر هشام) في أريحا بالاشتراك مع روبرت هاميلتون، وحفريات بيت نتيف ... إلخ، ثم درَّس الآثار في الجامعة الأمريكية في بيروت وكان أمينا لمتحف نفس الجامعة، وقام أيضا بحفريات في البقاع اللبناني (تل الغسيل) ونشر نتائجه في عدة تقارير، كما نشر كتابا حول الفنيقيين. نشر برامكي قبل النكبة عشرات المقالات في حولية الآثار الفلسطينية.

Digitized by Birzeit University Library

وبهذا نمت المجموعات العلمية العاملة في العلوم التاريخية في ظروف تاريخية جديدة مشرذمة، فقد تم إلحاق دائرة الآثار الفلسطينية بدائرة الآثار الأردنية حيث قامت بإدارة المسوحات المختلفة ومنح التراخيص للبعثات الأجنبية العاملة في مجال الآثار في الضفة الغربية بما فيها القدس وطبعا إدارة المتحف الفلسطيني للآثار الواقع في القدس أيضا، هذا طبعا بالإضافة إلى الحفريات الأثرية التي قادتها الدائرة لوحدها أو بالاشتراك مع البعثات الأجنبية. وشهدت هذه الفترة نموا واضحا في عدد الدارسين الفلسطينيين للعلوم التاريخية المختلفة وذلك في جامعات عربية وأروبية وأمريكية، لكن أغلبهم قد مارس مهنته بعيدا عن أرض فلسطين، وليس بالضرورة في حقول ذات علاقة بآثار فلسطين، وإن تعلق بعضهم بفلسطين في بعض نشاطاتهم. وبهذا، حرم الفلسطينيون موضوعيا أيضا في هذه المرحلة من بلورة مدرسة خاصة بهم تتصدى لكتابة تاريخ القدس بطريقة مغايرة، وتعيد الحضور لبعض الفترات التاريخية المغيبة من تاريخ المدينة. وبالرغم من هذا التطور النوعي، إلا أن فكرة تشكيل رواية فلسطينية لتاريخ القدس لم تظهر، وبشكل عام لم تظهر بشكل واضح حتى فكرة رواية تاريخ النكبة الفلسطينية من وجهة نظر الضحية، بالرغم من وجود كتابات أولية هامة حول الموضوع، لقد تأخر ذلك كثيرا، لاعتبارات لا مجال لنقاشها هنا، وأكتفي بالإشارة إلى المقدمة الهامة التي كتبها حديثا الأستاذ وليد الخالدي لكتاب «نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود» لعارف العارف[1].

وفي المقابل تمكنت المجموعات الصهيونية من رفع مستوى أدائها العلمي عبر جهازي الدولة والتعليم العالي، وتضاعفت الفرص المتاحة

(1) عارف العارف، النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، الجزء الأول، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 2012، ص xix-lxx .

Digitized by Birzeit University Library

أمامها في مزاولة النشاط الحقلي في مجال العلوم التاريخية مثل الآثار والجغرافيا التاريخية بفعل سيطرتها المباشرة على أكثر من ثلثي مساحة فلسطين بحدودها الانتدابية، وحاجة الدولة الحديثة إلى الاستناد في وجودها إلى التاريخ، وبالتالي تشجيعها غير المحدود للعاملين في حقوله المختلفة، مما عزز الميل نحو كتابة التاريخ بوجهة نظر توراتية، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن تأسيس الدولة الصهيونية الحديثة كان يستدعي بالضرورة استحضار تأسيس مثال الدولة اليهودية القديمة في العصر الحديدي المبكر على أساس المماثلة التاريخية بين الدولتين المختلفين في حقيقة الأمر في السياق التاريخي والحضاري، وحتى بالتأكيد الاثني، لكنه استحضار نجح وإلى حد كبير ليس فقط في محاولة خلق هوية إسرائيلية بعمق تاريخي، بل أيضا وجد صدا واسعا له في محافل أكاديمية وسياسية وفكرية دولية نافذة، وقبل هذا الأمر بشكل عام بين الباحثين العالميين في الحقول التاريخية، وخاصة تلك ذات العلاقة بالدراسات التوراتية بتلاوينها المختلفة. وفي المقابل، واصلت البعثات الأجنبية، خاصة البريطانية والأمريكية والفرنسية، العمل في مدينة القدس بشكل متواصل[1].

ويمكن وصف المدرسة الإسرائيلية في الآثار خلال هذه الفترة بأنها كانت أداة مركزية لتشكيل أمة بالاعتماد على الجيش والعهد القديم، كما ساهمت هذه المدرسة في تحويل فلسطين (الأرض المحتلة عام 1948) إلى نقطة حدث أركيولوجية عالمية، بحيث تشكلت البعثات المشتركة للتنقيب عن الآثار وكتابة التاريخ ما بين الباحثين الغربيين والإسرائيليين وانتشرت على مساحة كل الوطن المفقود، وأخذت هذه البقعة الصغيرة نسبيا (فلسطين

(1) دخلت مجموعة أخرى من الجامعات الإسرائيلية حقلي الدراسات التاريخية والأثرية والجغرافية التاريخية وذلك بشكل مكثف، فقد تم تأسيس جامعة تل أبيب (1956) وجامعة حيفا (1963) وجامعة بئر السبع (1962).

Digitized by Birzeit University Library

المحتلة عام 1948) تحتل مكانة كبيرة في الاهتمام والإثارة، توازي كل من بلاد ما بين النهرين ومصر، وظهرت تبعا لذلك مئات الكتب وآلاف المقالات بكل لغات العالم، فاقت تلك التي نشرت حول الحضارات العظيمة، بالرغم من عدم القدرة على المقارنة بينها، لا بعدد المواقع الأثرية، ولا حتى بما تحتويه على معلومات هامة حول الحضارة البشرية. لقد أصبحت فلسطين (هنا إسرائيل) مركز حدث عالمي، وبالتأكيد تحول الاهتمام بالقدس إلى المستوى الأدنى نظرا لوقوعها (خاصة البلدة القديمة) ومحيطها التاريخي الذي يحتوي على آثار العصرين البرونزي والحديدي تحت السيطرة الأردنية، لكن الكتابات الإسرائيلية حول القدس لم تتوقف، وتم متابعة ما تقوم به البعثات الغربية في القدس، وتم نقل ما يدور في القدس القديمة ومحيطها إلى الإسرائيليين بشكل متواصل.

4. من العام 1967 – حتى اليوم

تمتاز هذه المرحلة بقوة وشدة التجاذب التاريخي بين المجموعات العاملة في مجال العلوم التاريخية للعديد من الأسباب التي مازالت تفعل فعلها على أكثر من مستوى. فسمة عالم اليوم المتأثر بثورة العلوم والتكنولوجيا والنظريات العلمية الحديثة، وسرعة التأثير المتبادل بين المجموعات بفعل هذه الآليات الجديدة، قد أفضت إلى تحولات جديدة على صعيد العاملين في العلوم كافة. إن درجة التبادل العلمي عبر المؤتمرات وسهولة الوصول إلى المنشورات، وتوسع المعرفة باللغات ووجود الانترنت والنشر الالكتروني وغيرها من وسائل التواصل الحديثة، قد أصبحت بمستوى لا يقارن بالفترات السابقة، وبهذا جرى ومازال يجري تبادل معرفي لم يسبق له مثيل.

Digitized by Birzeit University Library

كما شهدت الاتجاهات النقدية في كافة العلوم، ومنها العلوم التاريخية بمختلف تخصصاتها، إلى بروز مؤرخين عرب وفلسطينيين إلى جانب مجموعات من الغربيين وحتى إسرائيليين، قادت إلى ظهور قراءات مغايرة للتاريخ الحضاري لفلسطين بشكل عام وللقدس بشكل خاص، التي تشكل مركزاً للصراع على الرواية.

فلم يعد العالم في حقيقة الأمر يقاد من قبل مركزية ثقافية واحدة مهيمنة كما اعتدنا ذلك في السابق[1]، بل أسس العالم نفسه على أساس من التعددية الثقافية التي هي في حقيقة الأمر التي صنعت التاريخ في الماضي، وأيضا التي ما زالت تصنعه في الحاضر وستصنعه في المستقبل. ومن علامات الاعتراف بهذه التعددية، انطلاق مبادرات دولية لحماية تراث شعوب العالم (خاصة «النامية») على أساس أنه جزء من تراث الإنسانية، وليس ملكا حصريا لشعوبها، من ناحية معنوية على أقل تقدير. وبهذا بدأت تخبو تدريجيا مقولة ثقافة الشعوب المتفوقة سواء على أساس ديني أو قومي أو حتى معرفي، وذلك بانضمام المزيد من الشعوب إلى المعارف الحديثة، ومن ضمنها شعوب كانت تصنف من دول «العالم الثالث».

وتم التوصل إلى هذه النتيجة عبر مجموعة من التحولات الجذرية في العلوم التاريخية الإنسانية التي بدأت في الانفصال عن حركة الكولونيالية العالمية بعد انحصارها داخل نطاق بلدانها التاريخية، مما أسفر عن انفصال

(1) هذا لا ينفي أبدا وجود مركزية ثقافية عامة مسيطرة على الإعلام العالمي تسوق مصوغات ثقافية محددة ذات أبعاد سياسية واقتصادية، وذلك في فترة هيمنة القطب الواحد بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، لكن تبقى هناك، بالرغم من ذلك، إمكانية معقولة لتبادل آراء أخرى بين أصحاب الاختصاص. لقد استطاعت مجموعات كثيرة الإفلات من سيطرة القطب الواحد على البحث العلمي، على أقل تقدير في العلوم الاجتماعية، في حين أن الإفلات من ذلك في العلوم التطبيقية والبحتة مازال يواجه الكثير من التحديات واحتكار التكنولوجيا وتوفير الأموال والمناخات الضرورية للبحث العلمي.

Digitized by Birzeit University Library

بعض المجموعات الحديثة في هذه الدول عن الشكل الجديد لهذه الكولونيالية العلنية والمتمثلة في الشركات الاحتكارية العالمية متعددة الجنسيات، والبنوك بأشكالها وامتداداتها المختلفة.

إن هذا التحول الجديد في النخب الفكرية في أوروبا وأمريكيا، قد أدى إلى إعادة فتح ملف حركة الاستشراق بشكل جد عال بهدف تحليل عوامل تشكلها وتأثيرها على بناء الصورة (النمطية!) القديمة والحديثة للشرق القديم على أساس نقدي وعلمي بعيدا عن إرهاصات الفهم الأيديولوجي المغلق، بل تمت وفي كثير من الحالات إعادة قراءة ما تم إنجازه في القرن التاسع عشر من أبحاث، بحيث قادت هذه العملية إلى تشكيل نظريات ومفاهيم واصطلاحات جديدة، لم تنتهي مفاعيلها بعد.

إن الحديث عن هذه التحولات، لا يعني أبدا بأن الجميع قد انصاع وراء النتائج العلمية وما أنتجته من تغيير في فهم النصوص، فعلى سبيل المثال كانت جمعية آثار الشرق الأدنى (The Near East Archaeological Society (NEAS)) وحتى ثمانينات القرن العشرين تطلب أن يعترف العضو، المنضم إلى الجمعية (كشرط قبول)، بأن العهد القديم بكليته (هكذا) هو كلام الله المنزل. وبعد أن تعرضت إلى الكثير من النقد والهجوم، عدلت النص بحيث أصبح كما يلي:

> *"The Near East Archaeological Society (NEAS) was founded in 1957. The focus of NEAS is on research in the lands of the Bible, the modern Middle East, with a distinctively evangelical perspective. In other words, the members of NEAS view the Bible as a valuable ancient document providing useful data complimentary to the archaeological record"*[1].

(1) أنظر الصفحة الالكترونية للجمعية على الربط: http://www.cbrgroup.org/pages.asp?pageid=106080

Digitized by Birzeit University Library

يبقى السؤال، لماذا تصر هذه جمعية «علمية» على الإشارة إلى العهد القديم «كمصدر مفيد ويقدم معلومات مكملة للمكتشفات الأثرية»؟ أي أنها تفرض نتائج مسبقة لعملها، صحيح بأن هناك تغيير وتخفيف في الإعلان الرسمي، لكن في الممارسة العملية لم يختلف الأمر عما سبق.

إن انتقال العلوم التاريخية من مقولاتها الكلاسيكية ذات الصلة بتفسير تطور الثقافات القديمة بموجب نظرية العوامل الخارجية، مثل عوامل الهجرة والغزو،[1] إلى مقولات التطور المنطوية تحت العامل الداخلي القائمة على تحليل التفاعل بين الإنسان والبيئة والصراع بين المجموعات المختلفة داخل الحيز ذاته، دون نفي التفاعل الإيجابي والسلبي مع الخارج، ولكن ليس بمنظور الاستيراد الثقافي باتجاه واحد، إضافة إلى انتقال بحوث العلوم التاريخية إلى آلية التداخل بين العلوم التاريخية والعلوم التطبيقية في معالجة الظواهر القديمة وتعزيز فهمها، هذا عدا عن إدخال نظم المعلومات التكنولوجية والاستشعار عن بعد والصور الجوية في عملية تحليل المعطيات بأشكالها المختلفة، مما أدى إلى التوصل إلى نتائج أكثر حيادية في تفسير الماضي، وهي آليات كانت قد اكتسبت مشروعية على المستوى الأكاديمي العالمي، وشكلت لغة تفاهم دولية.

وهذا الفهم لا يمكن أن يستقيم ويكتمل في الواقع، دون المعالجة النقدية للنص التاريخي، خاصة المقدس، الذي كان المحرك لكتابة التاريخ عبر إسقاط النص على كل المكتشفات القديمة، والذي حول تاريخ المدينة إلى مجرد تاريخ للسلالات التي حكمت القدس، والمؤرخ لها بالتفصيل في النص «المقدس» أو «شبه المقدس». فالنظريات العلمية الحديثة في العلوم التاريخية، بدأت تأخذ بعين الاعتبار تاريخ المجموعات الإنسانية الواسعة،

(1) على سبيل المثال ما يسمى بالغزو العبري لأرض كنعان.

Digitized by Birzeit University Library

فخلف أي ماض يوجد مجموعات محلية قد تكون ذات ثقافات متعددة، وليس فقط سلالة من الحكام. وإذا أردنا الدقة أكثر، فإن تاريخ المدن ليس هو تاريخ الملوك والسلالات على أهميته فقط، بل أيضا وبالأساس تاريخ المجموعات الاجتماعية البسيطة التي صنعت تاريخ المدن ومن ضمنها مدينة القدس. واختصار تاريخ الحياة لهذا الحد، لم ينفصل أيضا عن تاريخ البحث العلمي الذي قادته المجموعات المختلفة، والتي استندت إلى التاريخ المكتوب، والذي حصر نفسه في السلالات وتجاوز الطبقات العريضة في المجتمعات القديمة.

وجاء أيضا هذا التغير على خلفية تطور علم الآثار في الشرق القديم بالتركيز على الكشف عن المدن التاريخية المذكورة في المصادر التاريخية التوراتية، والذي عرف لاحقا بعلم «آثار المدن»، حيث ركز بالأساس على التلال الأثرية ومنها مدينة القدس. وبهذا خضعت القدس لمنظور علم آثار المدن الذي عمل في نطاق المدينة بالكشف عن سياقاتها التاريخية المختلفة على أساس التسلسل التاريخي للسلالات الحاكمة من الأقدم إلى الأحدث، وليس اعتمادا على فترات متناثرة وغير متداخلة، وعلى أساس أيضا ارتباط هذا التسلسل بالقوى التاريخية التي صنعته.

ونتيجة لذلك الجهد، تبلورت صورة تاريخية لمدينة القدس على أساس ارتباطها بتاريخ النظم السياسية التي حكمت بشكل مباشر أو تلك المحلية التي كانت وكيلة لقوى عظمى، وليس على أساس تاريخها الاجتماعي والاقتصادي وتحديدا تاريخ المجموعات الإنسانية التي صنعت ماضي المدينة. وهذا بالتحديد ما حصل بعد السيطرة الإسرائيلية المباشرة على باقي مدينة القدس أثر حرب 1967م (خاصة البلدة القديمة)، حيث بدأت سلطة الآثار الإسرائيلية بالتعاون مع الجامعات الإسرائيلية بإطلاق سلسلة من

Digitized by Birzeit University Library

مشاريع المسوحات والحفريات في المدينة، خاصة في البلدة القديمة ومحيطها، بهدف البحث عن بقايا التاريخ التوراتي. والمثال الأبرز على هذه المشاريع هو مشروع التنقيب في حارة المغاربة والمناطق المحيطة بها وحارة اليهود الموسعة على حساب باقي حارات البلدة القديمة، وطبعا سلوان وتلة الضهور (أوفل)، وسلسلة التنقيبات في الأنفاق المائية تحت مسطح الحرم الشريف وفي المنطقة المحيطة به، نزولا إلى وادي حلوة في سلوان، والذي استمر بدون توقف منذ عام 1967 حتى اليوم.

وتاريخ البحث العلمي لمدينة القدس المرتكز على مفهوم علم آثار المدن، والذي تم إنجازه من قبل حركة الاستشراق المحافظة والنخبة الصهيونية لاحقا، يجد نفسه الآن في حالة تراجع بفعل تطور العلوم التاريخية الداعية إلى فهم سلوك المجموعات القديمة بواسطة المواد والمخلفات الأثرية أو النصوص القديمة، إضافة إلى إدخال علوم الأرض ذات البعد التاريخي، والتي تحاول بحث علاقة المجموعات القديمة مع البيئة والمحيط ضمن سياقاتها، أي ما يعرف بالمشهد الحضاري (Landscape Cultural). وتحت تأثير هذين المتغيرين في العلوم التاريخية، توجد الآن مساحة مفتوحة من البحث تكمن بالمشهد الحضاري بسبب ضعف تأثير حركة الاستشراق المحافظة والنخب العلمية الصهيونية عليه. وفي هذه المساحة الجديدة التي وفرتها العلوم التاريخية الحديثة وقوة الإنجاز التكنولوجي في مجال أنظمة المعلومات، يمكن للمتخصصين التقدم من جديد وبشروط واعية نحو إعادة فهم تاريخ مدينة القدس، بل وإعادة كتابته بشكل مغاير تماما عما تم حتى الآن.

وبالرغم من الارتباط المباشر لعلم الآثار بالحركة الصهيونية، إلا أنه يجب عدم المبالغة في عدد الآثريين اليهود ولا بمشروعاتهم المحدودة قبل

Digitized by Birzeit University Library

العام 1948، وذلك بالرغم من تأسيس دائرة الآثار في الجامعة العبرية منذ بدايتها، وبالتالي لا يمكن مقارنتهم ولا بأي شكل من الأشكال سواء بالعدد أو بحجم الحفريات التي قامت بها المدارس والبعثات الأجنبية، وبالتأكيد لا يمكن مقارنتهم بالأثريين الإسرائيليين الذين نشطوا بعد الإعلان عن إقامة دولة إسرائيل بعد العام 1948. على أية حال نذكر الناشطين الهامين في حقل الآثار من اليهود قبل العام 1948: يغال يادين (Yigael Yadin)، وبنيامين مزار (Benjamin Mazar) وسوكنيك (Sukenik) وآفي يونه (Avi-Yunah)، ولكل منهم قصته وتأثيره على حقل الآثار، كما سيأتي ذكره. وكل هؤلاء كانوا مرتبطين برباط وثيق بالحركة الصهيونية قبل انخراطهم بالعمل الأثري، واستمروا بذلك حتى اليوم الأخير من حياتهم، كما كان يجمعهم أنهم درسوا وتدربوا على علم الآثار في أوروبا موطنهم الأصلي، وبالتالي حملوا معهم مفاهيم وأدوات هذا العلم في حينه، علاوة على فكرهم الصهيوني، فاندمجت الفكرة القومية المشتعلة في أوروبا بين الحربين العالميتين بفكرتهم الصهيونية المندمجة أيضا بـ«قومية يهودية». وبالتأكيد، لم يكن هؤلاء مندفعين بالفكرة الدينية، مثل الكثير من زملائهم (معلميهم!) من الأوروبيين كما شاهدنا أعلاه، لكن بتحويل فكرة الدين إلى دولة، وبالتالي لم يكن يشغلهم إثبات وجود القصص الديني التوراتي، بقدر ما كان يشغلهم إثبات وجود «شعب إسرائيل» في تاريخ فلسطين، وربط هذا الوجود بالحركة الصهيونية المطالبة باسترداد فلسطين، على أساس حق تاريخي لا يقبل الجدل، وبالتأكيد تقع القدس في بؤرة هذا التوجه.

انطلقت الحفريات الإسرائيلية في المنطقة المحيطة بالحرم الشريف، وانكب علماء الآثار الإسرائيليون على هذه «الغنيمة» بشراهة أفقدتهم توازنهم العلمي والأخلاقي، ولم يتوانوا عن استعمال الجرافات في الحفريات،

Digitized by Birzeit University Library

واختلط السياسي بالعلمي، وذلك تحت تأثير نشوة الانتصار المظفر في حرب حزيران عام 1967. ويمكن النظر إلى يغال يادين السياسي والآثاري البارز كنموذج لهذا الخلط.

يعتبر يغال يادين[1] الأب الروحي للآثار في إسرائيل ما بعد العام 1948، فعدا عن أعماله الكثيرة، فقد كان أكثر الإسرائيليين نجاحا في الربط بين إسرائيل والماضي، وهو الذي قام بتشكيل بعض الرموز الوطنية ومن ضمنها «أسطورة مسادا»،[2] كما أنه قاد أوسع حملة حفر للمنطقة المحيطة بالحرم القدسي الشريف. بدأ حياته في الجيش الإسرائيلي وأصبح رئيسا لأركانه سنة 1949، وبعد انتهاء فترته الممتدة على مدار ثلاث سنوات، استقال من الجيش سنة 1952، وحصل عام 1956 على درجة الدكتوراه في الآثار عن ترجمته لبعض مخطوطات قمران[3]، وقاد حفريات في كل من مسادا، وقمران، وتل مجيدو. لقد واجهت يادين حملة انتقادات كبيرة بسبب قيامه بتحريف تاريخ قلعة مسادا وتحويل الخرافة التاريخية إلى «حقيقة»، وتحويل من انتحروا في القلعة، إن تم ذلك أصلا، إلى أبطال قوميين ونموذج للمحارب اليهودي الذي يرفض الاستسلام ويفضل الموت (الانتحار) بحرية، وذلك بطريقة

---

(1) ولد عام 1917 في القدس، كان والده عالم آثار شهير يحمل اسم اليعازر سوكينيك (Eleazer Sukenik)، غير يغال اسم عائلته إلى يادين، إنضم إلى عصابات الهجانا المجرمة وهو بالخامسة عشرة من عمره.

(2) Yegael Yadin, *Masada: Herod's Fortress and the Zealots' Last Stand*. New York: Random House 1966.

ويمكن إلقاء نظرة على دوره في خلق الأسطورة الصهيونية عبر الدراسة الموسعة التي قام بها: Neil A. Silberman, A *Prophet from Amongst You: The Life of Yigael Yadin, Soldier, Scholar, and Mythmaker of Modern Israel*, Addison Wesley1994 .

(3) مخطوطات قديمة وجدت على الشاطئ الغربي للبحر الميت، خاصة في خربة قمران، بعض هذه المخطوطات نصوص من الكتاب المقدس، وقد بلغ عدد النصوص حوالي 900 نصا (بأحجام مختلفة)، ليس كلها نصوص من العهد القديم، تعود غالبية النصوص إلى القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول ميلادي.

Digitized by Birzeit University Library

دونكشوتية[1]، وهو أمر لا يمكن ولا بأي حال من الأحوال إثباته عبر الحفريات الأثرية، على طريق يادين الفجة. قضى يادين باقي حياته بحثا عن داود وسليمان في القدس ومناطق أخرى، وتعرضت لآحقا أبحاثه وحفرياته، وخاصة تأريخه للآثار، إلى الكثير من التشريح والرفض، وكان واضحا اندفاعه العسكري في حقل الآثار وكأنه يخوض حرب وجود، وكان يشعر دائما بأن وجود إسرائيل لا يمكن أن يستمر بدون «إثبات» حقيقة وجود دولة إسرائيل في التاريخ القديم، وبذلك خلط ما بين العلم والتمنيات، بحيث لم يعد هو نفسه يفرق بينهما، وغرق كليا في أوهام، بل لم يتوانى عن لوي ذراع حقل الآثار بأي طريقة ممكنة خدمة لأهدافه غير الخفية[2].

ومن أهم انتاجاته حول القدس كتابا موسعا قام بكتابته مع مجموعة من المؤرخين والأثريين، حاول من خلاله تقديم الرواية الرسمية الإسرائيلية حول تاريخ المدينة[3]، وهذا الكتاب مازال يشكل القاعدة الأساس لتدريس تاريخ القدس في إسرائيل. واستكمالا لمشروع عمره، قام يادين في عام 1976 بتشكيل حزبا سياسيا سماه «الحركة الديمقراطية للتغير» (داش)، وحصل الحزب في أول اشتراك له في الانتخابات عام 1976 على 15 مقعدا في الكنيست الإسرائيلية، وذلك من أصل 120 مقعدا، وبهذا أصبح نائبا لرئيس الوزراء،

(1) كتب الكثير حول مسادا بين داعم ليادين ومعارض بشدة له لأنه استعمل أدوات علمية لإثبات «تاريخية» أسطورة، ولوى بذلك ذراع علم الآثار، ولأجل إثبات الأسطورة ضحى بالعلم وأدواته، أنظر على سبيل المثال الكتابين الهامين حول الموضوع:
Nachman Ben-Yahuda, *The Masada Myth. Collective Memory and Mythmaking in Israel*. Madison: University of Wisconsin Press 1995; Nachman Ben-Yehuda, *Sacrificing Truth. Ar- chaeology and the Myth of Masada*, Amherst, New York: Prometheus/Humanity Books 2002.

(2) See, N. Silberman. "Archaeology, Ideology, and the Search for David and Solomon", in eds. A. Vaughn and A. Killbrew, Jerusalem *in Bible and Archaeology: The First Temple Period*, Atlanta 2002, p. 395-404.

(3) *Jerusalem Revealed: Archaeology in the Holy City 1968-1974*, Jerusalem, 1976.

Digitized by Birzeit University Library

وفي هذه الأثناء لم يتوقف عن إجراء الحفريات خاصة في القدس، وكان في كثير من الأحيان يقوم بالخلط بين المهمتين السياسية الرسمية والأثرية.

إن نموذج يغال يادين يدلل على مدى الاستثمار الإسرائيلي بحقل الآثار كمصدر لشرعية الوجود، حيث تحظى إسرائيل حتى اليوم بأعلى نسبة من المتخصصين بالآثار في العالم، وذلك بالنسبة لعدد السكان.

ويقدم موشيه ديان نموذجا آخر لرجال السياسية الأثريين في إسرائيل ومدى تأثيرهم على حقل الآثار و«علميته»[1]. إن الخلط بين السياسة والآثار قد جعل المتخصصين في هذا الحقل أداة سياسية من الطراز الأول. لقد اشتهر ديان بسرقة الآثار والاتجار بها، حتى أن يادين قد صرح في إحدى المرات حول سرقة بعض القطع الأثرية قائلا: «أعرف من قام بهذا، فإذا أمسكت به فإنني سأفقئ أيضا عينه الأخرى»، طبعا قاصدا ديان الأعور.

أما النموذج الآخر لهذه المدرسة فهو بنجامين مزار (Maisler)[2] الذي أعتبر من أكبر المؤرخين والأثريين الإسرائيليين، وهو عالم أيضا بنصوص

---

(1) حول سرقات ديان الكثيرة للآثار وتجارته بها، وما هو مصير مجموعته، أنظر مقالة صحيفة الاندبندنت على الرابط (14/ 2/ 1997) http://www.independent.co.uk/news/world/the-pictures-that-prove-the-guilt-of-moshe-dayan-hero-and-thief-1278480.html كما يمكن العودة إلى مقالة Raz Kletter, "A Very General Archaeologest: Moshe Dayan and Israeli Archaeology" وذلك على الرابط (تمت زيارة الصفحة بتاريخ 16/ 10/ 2016)، حيث يذكر الكاتب بأنه قد وثق أكثر من 35 موقعا حفرها ديان وسرق الكثير من عادياتها، هذا عدا عن نشاطه التجاري المعروف في سوق العاديات حيث كان يبيع ويشتري ويصادر ويتملك. http://www.jhsonline.org/Articles/article_27.htm وفي الحقيقة، هناك عشرات المقالات التي كتبت حول نشاطاته غير القانونية والتي امتدت على كل أراضي فلسطين بحدودها الانتدابية، كما شملت شبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان عقب حرب حزيران عام 1967.

(2) ولد في روسيا عام 1906، حصل على الدكتوراة من جامعة جيسن الألمانية عام 1929 وهاجر مباشرة إلى فلسطين حيث أصبح سكرتيرا لجمعية استكشاف فلسطين (Palestine Exploration Society)، وأصبح في العام 1959 رئيسا لنفس الجمعية التي أصبح إسمها جمعية استكشاف إسرائيل (Israel Exploration Society).

Digitized by Birzeit University Library

العهد القديم والجغرافية التاريخية لفلسطين. لقد اشتهر في دمجه بين الآثار والجغرافية وآثار الشرق القديم بالاعتماد على النصوص المقدسة لدى اليهودية. شغل الكثير من المناصب، بالإضافة إلى خدمته العسكرية الطويلة، فقد وصل إلى منصب رئيس الجامعة العبرية في القدس سنة 1953، وقد استمر بهذا المنصب حتى العام 1961.

اشتهر عمله الأثري بالحفريات الضخمة التي قادها عقب حرب حزيران عام 1967 على امتداد الجدار الغربي والجدار الجنوبي للحرم الشريف (وما تحته أحيانا)، وذلك بحثا عن آثار الهيكل. لقد اعتبر مزار الآثار جزءاً من هويته الوطنية، وبالتالي البحث الأثري خدمة وطنية تماثل الخدمة العسكرية في أهميتها.

ركزت الحفريات الإسرائيلية والأبحاث التاريخية والطبوغرافية والهيدرولوجية والدراسات المعمارية في القدس على عدة محاور، يمكن تلخيصها بما يلي:

الحرم الشريف (المسجد الأقصى) والمنطقة المحيطة به

تركزت الحفريات الإسرائيلية في كل الجهات المحيطة بالحرم القدسي الشريف، وقد جرت فيها عشرات الحفريات، خاصة في الجهتين الجنوبية والغربية، منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفي تحت المباني المنتشرة على امتداد الجدار الغربي للحرم الشريف، وحتى تحته في بعض الأحيان. وشملت هذه الحفريات طبعا الساحة الواسعة التي تم تشكيلها نتيجة تدمير حارة المغاربة في حزيران عام 1967. لم يكن هدف هذه الحفريات كتابة تاريخ القدس، ولا الكشف عن الآثار المثيرة التي قد تظهر فيها، بل كان ومازال الهدف المعلن هو الكشف عن بقايا الهيكل الأول والثاني، وبالتالي لم يكن أي شئ يثير

Digitized by Birzeit University Library

الحفار في هذه المنطقة ليس له علاقة بالهيكل، وكان التجريف في الفترات الأولى، خاصة منذ عام 1967 وحتى منتصف الثمانينات هو سيد الموقف الذي لا ينازع. ويذكر بأن أهم ما كشفت عنه حفريات هذه المنطقة، خاصة في المنطقة التي تقع بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للحرم الشريف، هو دار الإمارة الأموية والتي تتشكل من سبعة أبنية ضخمة، واكتشاف هذه لها قصة يطول شرحها[1] وارتبطت بكل من مازار ويادين (سبق ذكرهما). إن أخطر الحفريات التي تتم في هذا المحور تقع على امتداد الجدار الغربي للحرم الشريف، والتي لا نعرف عنها شيئا، حيث تم الحفاظ على سريتها، ويمكن الاستدلال عليها من خلال أصوات الحفر فقط. صحيح الآن بأن النوايا الإسرائيلية تجاه المسجد الأقصى لم تعد خافية، وأن حركات بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى قد أصبحت جزءا أساس من التوليفة الحكومية لحكومة الاحتلال، وقد قطعت هذه الحركات شوطا طويلا على طريق الأعداد لبناء الهيكل، سواء من ناحية تحضير الرأي العام لهذا المشروع، أو حتى تحضير المواد الضرورية لذلك، وسنأتي على ذكر ذلك وبالتفصيل لاحقا.

«حارة اليهود» الموسعة

كما هو معلوم، أقدمت إسرائيل عام 1969 على تحديد مساحة تصل إلى حوالي 12% من مساحة البلدة القديمة ومصادرتها، وأعلنتها حارة لليهود (الحي اليهودي)، وذلك بغض النظر عن الملكيات فيها، حيث تصل

(1) باختصار، بعد أن اتضح بأن المباني الضخمة التي اكتشفت في ظلال المسجد الأقصى في الجهتن الغربية والجنوبية، أمر يادين بتجريفها وإخفاء أمرها، لأنه لا ينقص القدس المزيد من المباني الأموية، وفي هذه الحالة مباني مدنية تكمل صورة القدس في التراث العربي والإسلامي، بالطبع تسربت أخبار هذا الاكتشاف فحال ذلك دون تدميرها مباشرة، لكن جرى لاحقا قضمها بشكل تدريجي.

Digitized by Birzeit University Library

الملكيات الإسلامية في هذه المنطقة حوالي 87% من مجموع العقارات. وقد أقدمت بعدها على إجراء حفريات واسعة ضمن مشروع «إعادة بناء حارة اليهود»، مدمرة بذلك نسيجها التاريخي ومعيدة بناء غالبية المباني من جديد بشكل لم تشهده بلدة قديمة في العالم من قبل. ورافق ذلك حفريات أثرية تهدف إلى ربط الحارة بالفترات التاريخية القديمة، خاصة فترة هيرودوس (ما يسمى في الكتابات الإسرائيلية فترة الهيكل الثاني)، إلا أن هذه الحفريات أيضا لم تضيف إلى الادعاءات التاريخية أية ذخيرة تذكر، لكنها زينت الحارة بالكثير من المواقع الأثرية وأعطتها عمقا تاريخيا مثل الكشف عن جزء من الشارع الروماني المعمد (كاردو مكسيموس)، والكشف عن كنيسة ألمانية تعود إلى القرن الثاني عشر (صليبية)، والكشف عن سور يعتقد بأنه يعود إلى نهاية الفترة الإغريقية سموه «الجدار الحسموني»، واليوم هناك إعادة دراسة لتأريخه لأنه غير أكيد. ولكن أهم الاكتشافات، كانت كنيسة بيزنطية ضخمة، هي أكبر باسيليكا في فلسطين، بناها الإمبراطور البيزنطي العظيم جستنيان.

كما جرى التركيز على الكنس اليهودية التي تقع في الحارة، حيث جرى إعادة ترميم لها، ويذكر بأن غالبيتها تعود إلى القرن التاسع عشر، وأن أحدها فقط له جذور تعود إلى الفترة المملوكية. وفي الآونة الأخيرة، جرى إعادة بناء لكنيس (كنيس الخربا) بقبة عالية جدا ضمن صراع على أفق المدينة القديمة، فلا يجوز من وجهة نظرهم بقاء المدينة القديمة بقبتين ضخمتين: قبة الصخرة وقبة القيامة، بدون إضافة قبة يهودية. على أية حال، لم يثبت من خلال الآثار، أية علاقة يهودية بموقع الحارة قبل الفترة المملوكية، وإن كانت هناك جوالي يهودية في المدينة قبل ذلك، فقد كانت جوالي هامشية لم تترك ما يشير عليها، سوى بعض الروايات من خلال أدب الرحلات والتي تتحدث عن جود رمزي لليهود خلال العهود الإسلامية المختلفة.

Digitized by Birzeit University Library

ت. محور سلوان

تعتبر قرية سلوان، الواقعة على بعد بضعة أمتار إلى جنوب وجنوب شرق البلدة القديمة، محورا رئيسيا إضافيا للحفريات المكثفة، وقد تم تسمية هذا الجزء من المدينة بـ «مدينة داود»، وهي عبارة عن التل الأقدم في المدينة والمسمى فلسطينيا وعلميا «تل الضهور». ويذكر بأن الحفريات في الموقع قد بدأت عبر الإرساليات التبشيرية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولم تتوقف الحفريات فيه حتى اليوم. لقد تم تحويل الموقع بعد العام 1967 إلى متنزه وطني يهودي من الطراز الأول. وبالرغم من ضحالة الاكتشافات في هذا التل وعدم وضوحها، إلا أنه قد جرى تضخيمها بشكل لا مثيل له، وسخرت كل علوم الصوت والضوء والصورة لرواية قصة لا أثر لها في الموقع[1]. ومن المثير معرفته بأن هذا التل يقع فوق عين الماء الوحيدة في القدس، عين سلوان، التي تتصل بالكثير من القنوات والأنفاق التحت أرضية، مما فتح للخيال أبوابا لا نهاية لها. لقد أصبح الوضع في هذا الموقع مضحكا إلى حد السخرية، فيتم الحديث عن قصر داود العظيم وحدائقه الغناء ومراكز إدارته لمملكة مترامية الأطراف، وما يتم مشاهدته على أرض الواقع ليس له أية علاقة بالموضوع، وأقصى ما يشاهد هو قرية صغيرة (في فترة العصر الحديدي المتأخر حوالي العام 1000 ق.م) متخلفة نسبيا عن الكثير من المواقع المحيطة بالقدس. ومحور سلوان يتم توسيعه يوميا لعله يتم اكتشاف أي شيء جديد.

اليوم اتسع نطاق هذا التل ليشمل المزيد من مراكز العرض والشرح والتأويل وباب الخيال الذي لاحدود له، وبات قبلة منهمكة في رواية تاريخ

(1) يجب عدم الاستهتار بهذا المنهج الذي يقنع أعدادا كبيرة من الزوار، من الإسرائيليين والأجانب على حد سواء، فليس الجميع مسلح بالمعرفة، وما يتم سرده هناك، يعتبر مسلم به لأنه مرتبط بالعهد القديم ونصوصه، لذلك يعتبر الموقع مركزا دعويا من الطراز الأول.

Digitized by Birzeit University Library

غير مرئي للقدس، يضم مراكز للزوار، كما ربط الموقع بنفق ببركة سلوان، وآخر يسير تحت أسوار البلدة القديمة وصولا إلى الحديقة الأثرية التي تضم القصور الأموية ومكونات أثرية أخرى، كما يربط الموقع بساحة حائط البراق المقامة على أنقاض حارة المغاربة، وبالرغم من أن الغالبية الساحقة من الآثار التي يمكن إثباتها في المناطق المحيطة للتل تعود إلى الفترات الرومانية والبيزنطية والأموية، إلا أن التاريخ المروي يتعلق فقط بالفترات «التوراتية»[1].

ث. أماكن متفرقة في القدس

لم يتم التواني عن حفر أي قطعة أرض في منطقة القدس سواء في داخل أسوار البلدة القديمة أو خارجها، وبسبب أعمال البنية التحتية التي نفذت في شرقي القدس، خاصة في سبيل بناء المستوطنات والشوارع الالتفافية وقطار الشوارع (ترام)، فقد انكشفت الكثير من المواقع والمعالم الأثرية في أماكن متفرقة من المدينة، مما زاد من وتيرة النهم في الحفر، كما أن حتى طلب ترميم مبنى في البلدة القديمة من سلطة الآثار الإسرائيلية لا يمكن تحقيقه بدون إجراء حفرية داخل المبنى. وفي الحقيقة أنه لم تتبقى تقريبا أية بقعة في المدينة دون أن يتم حفرها، وأصبح من الصحيح الإدعاء بأنه لم يتبقى ما يحفر في المدينة.

لن تعالج هذه المداخلة مسألة الحفريات الإسرائيلية في القدس منذ عام 1967، فقد جرى التطرق لذلك عبر العديد من الدراسات[2]، وستركز

(1) يمكن مراجعة المقالة المثيرة التي كتبها يوسف النتشة، Yousef Said al-Natsheh, «The Digital Temple Mount», in *Jerusalem Querterly File*, 19 (2003), pp. 53-58.

(2) حول ذلك أنظر الدراسة التفصيلية التي قامت بها نادية ابو الحاج:
Facts on the Ground :Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society, University of Chicago, 2001.

Digitized by Birzeit University Library

على ما يدور على أرض الواقع اليوم. وبالتأكيد تستند الكثير من الحفريات الآن إلى الأسس الفكرية والمنهجية ذاتها التي طورها «علماء» الآثار التوراتيين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو المنهج الذي بنى عليه لاحقا الإسرائيليون عملهم المكثف في حقل الآثار[1]، وبالطبع هناك دائما من خرج عن الانصياع. كما لن تعالج هذه المراجعة مسألة في غاية الأهمية تتعلق بالوضع القانوني للحفريات في القدس بشكل خاص وبالأراضي المحتلة بشكل عام، لكن يكفي أن نقول بأن كل أنواع الحفر ونقل العاديات من أراض محتلة إلى خارجها يعتبر مخالفا للقانون الدولي[2].

وتصاعدت في الآونة الأخيرة حملات نهب الآثارِ والأرض وما تحتها باسم «الحفريات الأثرية». وفي الحقيقة بأن ما يسمى «الاستكشاف الأثري» الذي يدور الآن، ما هو إلا جزء لا يتجزأ من حملة سياسية واسعة النطاق تجتاح منطقة القدس ضمن مخطط وضع مسبقا، ومن أعلى المستويات، وبشكل معلن، حيث تتركز النشاطات «الأثرية» في المنطقة التي تسمى

Greenberg, Rafael., "Archaeology in Jerusalem 1967-2008: Towards an Exclusive Archaeology in Jerusalem: The Case of Silwan/the City of David", in *Public Archaeology*, Vol. 8, No. 1, pp. 35-50.

كما يمكن مراجعة المقالات المختلفة حول تاريخ القدس في كامل العسلي (محرر)، القدس في التاريخ، عمان، 1992.

(1) لا يقصد هنا التعميم، بالتأكيد ظهر الكثير من علماء الآثار التوراتيين وكذلك الإسرائيليين الذين تحلوا بروح ومنهج نقديين، ويبقى الحديث هنا عن المدرسة التي تمثل المؤسسة الرسمية، وهي في حقيقة الأمر تمثل الغالبية العظمى من العاملين في حقل الدراسات التاريخية بشكل عام والدراسات الأثرية بشكل خاص في إسرائيل.

(2) تعتبر القدس بشرقها وغربها أرضا محتلة بموجب القانون الدولي، حيث أن القرار الدولي الوحيد الذي ينطبق على المكانة القانونية للقدس هو قرار التقسيم لعام 1947، والذي تحتل فيه القدس مكانة خاصة تحت إدارة دولية. ويذكر بأن كافة القرارات الدولية اللاحقة لم تغير هذه المكانة، كما لم تغيرها الاتفاقات الفلسطينية الإسرائيلية منذ العام 1993، ومما يؤكد ذلك وضع القدس (وليس الشرقية فقط) على قائمة موضوعات الحل النهائي، وذلك في اتفاقيات أوسلو.

Digitized by Birzeit University Library

«الحوض المقدس» أو «الحوض التاريخي»[1]، وهي المنطقة التي تضم البلدة القديمة ومحيطها، وتضم أيضا السفوح الغربية لجبل الزيتون، وسلوان، ووادي حلوة، وحي البستان، ووادي الربابة، وتمتد إلى الشيخ جراح شمالا. وقد طالبت إسرائيل مرارا بالسيطرة الكاملة والحصرية على هذه المنطقة ضمن مفاوضات الحل النهائي مع الجانب الفلسطيني.

وتترافق حملة «الآثار» هذه مع حملة واسعة للاستيطان الصهيوني من جهة، وعملية الطرد السكاني للفلسطينيين من جهة ثانية. ويمكن إدراك ما يجري بالتحديد في هذه المنطقة عبر مراقبة حملات هدم المنازل المكثفة في سلوان، بشكل عام وفي حي البستان بشكل خاص، كما وتصاعدت وتيرة الاستيطان في وادي حلوة[2]، جنبا إلى جنب مع ازدياد عدد الحفريات وحجمها وموقعها في نفس المنطقة، وينطبق الأمر ذاته على منطقة الشيخ جراح، حيث يجري إخلاء حي كامل والتخطيط لزرع المستوطنين في نفس الموقع.

(1) اصطلاح أطلقه الإسرائيليون رسميا في مفاوضات الحل النهائي في كامب ديفيد عام 2000، أما في المفاوضات التحضيرية وغير الرسمية فقد ظهر هذا الاصطلاح منذ منتصف تسعينات القرن الماضي، ويقصد به المنطقة الجغرافية المذكورة أعلاه، وقد يتسع أو يضيق مداها تبعا للتطورات. يعبر الإسرائيليون عن مصالحهم الدينية والعليا في هذه المنطقة. وبالرغم من الموافقة الإسرائيلية المبدئية على معايير الرئيس الأمريكي الأسبق كلينتون، والتي تقضي بتقسيم القدس تبعا للسكان، بحيث تصبح الأحياء الفلسطينية تابعة للسلطة الفلسطينية، وكذلك بالنسبة للأحياء الإسرائيلية، إلا أن المفاوض الإسرائيلي أصر على خصوصية هذه المنطقة.

(2) استطاع المستوطنون السيطرة على أكثر من خمسة عشر عقارا في وادي حلوة، كما قامت بلدية القدس وسلطة الآثار الإسرائيلية بالسيطرة على غالبية المساحات المفتوحة، وقد قدر حجم الاستحواذات هذه بأكثر من ثلث مساحة وادي حلوة. ويذكر بأن الاستيطان في وادي حلوة هو مجرد حلقة في سلسلة من المخطط الاستيطاني القاضي بعزل غالبية أجزاء البلدة القديمة ومحيطها عن التواصل السكاني مع الفلسطينيين الذي يعيشون في محيط البلدة القديمة، ويتم ذلك مرة باسم الحزام الأخضر الذي سيغلف البلدة القديمة، ومرة أخرى باسم الآثار وإنشاء المحميات الثقافية.

Digitized by Birzeit University Library

وفي البلدة القديمة، وبالرغم من صعوبة التمدد الاستيطاني، بسبب الوعي المتزايد لدى السكان، ومأسسة الدفاع السياسي والقانوني عن العقارات، وتنامي حملات التصدي للمستوطنين، وبسبب أعمال ترميم المباني السكنية وتأهيلها لتحسين شروط سكن الفلسطينيين، هذا عدا عن الحاجة الماسة والمتزايدة للمساكن، مما أدى إلى رفع قيمة العقارات المادية وغير المادية، وزاد من شدة تمسك السكان الفلسطينيين بأملاكهم، إلا أن محاولات المستوطنين مازالت تشكل خطرا حقيقيا على أجزاء واسعة من البلدة القديمة. وفي هذا الإطار يمكن فهم محاولات السيطرة الواسعة على العقارات باستخدام كل الطرق الملتوية، وأخطر المحاولات تدور عند باب الخليل (ميدان عمر بن الخطاب) المتمثلة بمحالة السيطرة على فندق الامبريال وفندق البتراء، وكلاهما من أملاك كنيسة الروم الأرثوذكس[1]، كما أنه من المفيد التذكير إلى استمرار سيطرة المستوطنين على نزل سان جون (يوحنا) القريب من كنيسة القيامة، والذي تعود ملكيته أيضا إلى بطريركية الروم الأرثوذكس، والذي تم السيطرة عليه بطرق ملتوية تشبه بعض

(1) سيطرت إسرائيل على قلعة القدس الواقعة في نفس الميدان عام 1967 وذلك بحجة أنها أملاك دولة، وقامت بإجراء الحفريات فيها، وحين لم تنطق هذه الحفريات بتاريخ يهودي ذا مغزى أو أهمية، حولت المباني القائمة، وغالبيتها مبان تعود إلى الفترات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، إلى متحف لتاريخ القدس، يسرد تاريخا متحيزا ويعبر عن الرؤية والرواية الرسمية الإسرائيلية لتاريخ المدينة. وليس بعيدا عن القلعة، صادرت الشرطة الإسرائيلية مبنى القشلة (القشلاق)، تحت نفس المبرر. ويذكر بأن مبنى القشلة قد شيده إبراهيم باشا بن محمد علي الكبير أثناء السيطرة المصرية على القدس (1831-1840). ويستخدم القشلاق الآن مقرا للشرطة الإسرائيلية وسجنا، وفيه مركز مراقبة البلدة القديمة عبر الكاميرات المنتشرة في كل بقعة من البلدة القديمة. إن استكمل المشروع الاستيطاني في هذه المنطقة الحيوية، فإن مساحة ضخمة من البلدة القديمة (منطقة باب الخليل) ستتحول إلى بوابة إسرائيلية يهودية للقدس، وهي بوابة مركزية جدا. وقد حاولت إسرائيل مرارا في كل المفاوضات الرسمية وغير الرسمية ضمان السيطرة الإسرائيلية على باب الخليل وصولا إلى حارة اليهود عبر حارة الأرمن.

Digitized by Birzeit University Library

الشيء الطرق التي استخدمت بالسيطرة على فندقي باب الخليل. كل هذا إلى جانب المحاولات المستميتة للسيطرة على المزيد من العقارات في المنطقة المحيطة بالحرم الشريف، وفي الأحياء التالية: عقبة الخالدية، وعقبة القرمي، وعقبة التكية، وطريق باب الحديد، وطريق الواد، وطريق باب السلسلة، وعلى درجة أقل في كل من باب حطة وحارة السعدية[1]. ولم تعد حارة النصارى بمنأى عن هذه التوجهات بعد أن أحجمت الحركات الاستيطانية لفترة طويلة عن دخولها، لكنها كسرت هذا التوجه بنزل سان جون الكائن في سوق أفتيموس، وأتبعوه بمحاولات السيطرة على منطقة باب الخليل. تهدف كل هذه المحاولات إلى إظهار القدس القديمة كمدينة إسرائيلية يهودية، تسهل بعد ذلك رواية تاريخها.

صحيح جدا بأن عدد الذين بدأوا يفلتون من هذه الكماشة في إسرائيل قد أصبح ملموسا، خاصة بعد إقلاع الكثيرين حول العالم عن التعامل مع التوراة كمصدر تاريخي، كما أن عدم ثبات الكثير من الروايات التوراتية أمام النقد العلمي، قد أضعف التوجه الرسمي في إسرائيل، مما اقتضى التحول إلى مهام جديدة في كتابة تاريخ القدس وتقديمه للقراء والمشاهدين، كما سنأتي عليه لاحقا.

لقد ترافق وهذه المرحلة إعادة كتابة تاريخ للقدس بهدف تعزيز العلاقة بين اليهود، والإسرائيليين بشكل خاص، والمدينة، فبعد أن كانت الحركة

(1) تجاوز عدد النقاط الاستيطانية 85 نقطة في البلدة القديمة، وذلك خارج ما يسمى بحارة اليهود. وتدور الكثير من المشاريع الاستيطانية سواء فوق الأرض او تحتها حول ربط هذه النقاط بعضها ببعض، وربطها مجتمعة بحارة اليهود وساحة حائط البراق، وهنا يتضح الدور المركزي الذي تتمتع به سلطة الآثار الإسرائيلية باستخدام حجج دراسة تاريخ القدس والكشف عن آثار المدينة وتشجيع السياحة، وذلك في سبيل لتنفيذ هذا المخطط.

Digitized by Birzeit University Library

الصهيونية لا تحلم بتحويل القدس (خاصة البلدة القديمة) عاصمة لها، حانت الفرصة التاريخية لذلك باحتلال كل القدس عام 1967، فلم تتردد ولو لحظة إعلان «القدس الموحدة عاصمة لدولة إسرائيل» أضيف لها لاحقا «أبدية»، وكان على المؤرخين الإسرائيليين التقاط هذا الموضوع والتوسع في إثبات تاريخيته، وتاريخ الوجود اليهود في المدينة باعتماد الإحصائيات السكانية للمدينة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لإثبات وجود أغلبية سكانية يهودية في المدينة على مدار أكثر من قرن، وقد حظي هذا الموضوع باهتمام خاص بين المؤرخين الإسرائيليين، كما سيرد أدناه.

ويمكن القول بأن كتابة تاريخ القدس ما بعد العام 1967، وبشكل مواز مع الكتابات الأثرية، قد اتسمت بروح عنفوان وغطرسة انتصار حزيران عام 1967، والكتابات كانت أخلاطا ما بين إثبات تواصل التاريخ اليهودي من جهة وتقليل أدوار وعلاقات «الأغيار» بالمدينة من جهة ثانية. لقد شكل الانتصار دافعا لم يكن بالإمكان لجمه أو كبح جماحه، واستخدمت هم الجنود وفرحتهم اللامتناهية بعظم الانتصار، ووثقت اللحظات «العاطفية» لالتقاء الجنود وقادتهم على أنقاض حارة المغاربة المدمرة برقصات هستيرية تشارك فيها الجنود والحاخامات، ولم يكن غبار تدمير حارة المغاربة قد تلاشى بالأفق بعد، ولم تكن جنازير الجرافات قد هدأت بعد هدم ما تبقى من بيوت المغاربة على أطراف الحارة. فجاء المؤرخون بهذه اللحظات وجعلوها منطلقا لكثير من أعمالهم التاريخية، وذلك جنبا الى جنب الأعمال الأدبية والفنية المختلفة.

لقد تم تشكيل المكتشافات الأثرية ليس فقط في سبيل إثبات ما هو مكتوب في النص المقدس، بل أيضا للتعبير عن السيطرة الإسرائيلية وحقها التاريخي بذلك. لقد استوعب علماء الآثار والتاريخ الإسرائيليين توجهات

Digitized by Birzeit University Library

الدولة «القومية» تماما، فقاموا بسرعة فائقة كجنود مجندين بتعميم المعلومات والمعارف حول الدولة «الداودية» وتعزيزها، وكأنها حقيقة يمكن لمسها بأطراف أصابع اليد، وذلك لتبرير وجود دولة إسرائيل المعاصرة، وتبرير احتلال الأراضي، بل تبرير أيضا التطهير العرقي، وتفادي بقدر الإمكان الفجوة التاريخية الطويلة بين الاثنتين (دولة داود ودولة إسرائيل الحالية) والبالغة حوالي 3000 عام. هذه الصلة بين الدولتين، مصدر الشرعية، تتركز بشكل أساس في القدس، فلا بد للآثار في القدس إذا أن تقوم بهذه المهمة، وليس هاما كيف، وعلى علماء العلوم التاريخية من الإسرائيليين القيام بذلك[1]، كمساهمة منهم في المجهود الحربي وتتويجا للانتصار المظفر. وتعبر هذه الطالبة كريستينا بردو في رسالتها عن فرضية الدراسة بقولها:

> *"I will argue that archaeology in Israel has been politicized successively through the efforts of colonialists, biblical archaeologists, the process of nation-state building and tourism, and that 'the facts' of archaeological investigation have been and continue to be determined through political agendas and biases"*[2].

لقد نشأت كل الحركة الصهيونية على وعد أن اليهود سيعودون إلى «وطنهم التاريخي»، وعلى العلوم التاريخية بتفرعاتها إذا أن تثبت ذلك، وتؤكد أن هذا الوعد ليس أسطورة بل «حقيقة تاريخية» يمكن إثباتها عبر الآثار، وأن هذا الوعد ليس له خلفية روحية ورمزية وحسب، بل أيضا يجب أن يؤمن به كل يهودي حتى لو كان علمانيا. وفي الحقيقة بأن الأمر قد تعدى

(1) Christine R. Perdue, *The Politics of Archaeology in Israel*, unpublished Master's Degree Thesis, University of Oregon, Interdisciplinary Studies, 2005, p. 58.

(2) Ibid, p. 2.

Digitized by Birzeit University Library

ذلك، حيث يجب أن يؤمن بالوعد أيضا كل مسيحي، وهو الأمر الذي تقوم به حركات مسيانية غربية واسعة من أمثال المحافظين الجدد في أمريكيا، لكن أيضا في شمال أوروبا وكندا وإستراليا[1].

5. ما بعد المراحل؟

ساهمت التطورات السياسية في المنطقة بتراجع دور العلوم التاريخية في تشكيل «الهوية»، خاصة بعد اتفاقية السلام الموقعة في كامب ديفيد عام 1978 بين مصر وإسرائيل، حيث اعترفت أكبر وأهم دولة عربية بحق إسرائيل في الوجود، وبالتالي لم يعد على المؤرخين الإسرائيليين الاستمرار بمنهج إثبات حق إسرائيل بالوجود بالاستناد إلى التاريخ والآثار، صحيح جدا أن هذا الأمر لم ينتهي كليا، حتى بعد الاعترافات الفلسطينية المتلاحقة بهذا الحق، وذلك خلال اتفاقات أوسلو (1993) وقبلها وبعدها، لأن الإحساس العام في إسرائيل مازال يؤمن بأن هذه الاعترافات شكلية وتعكس موازين القوى، ولا تعكس بالتأكيد قناعات المجتمعات العربية بشكل عام والمجتمع الفلسطيني بشكل خاص، حيث تتزايد الأصوات المطالبة بمقاطعة إسرائيل،

(1) إن قيام دولة اليهود على كل أرض فلسطين هي ضرورة موضوعية وأساسية لتمهيد الطريق لعودة المسيح المنتظر، وهي حق لليهود بوعد إلهي. يمكن الحديث مطولا حول هذه الحركات، لكن تكفي الإحالة إلى الصفحة الالكترونية لما يسمى «السفارة المسيحية في القدس»، والتي تأسست سنة 1980 وتمثل ملايين من المؤمنين المنتشرين في أنحاء مختلفة من العالم، وتقوم كل عام بتنظيم مظاهرة حافلة بمناسبة إنتصار إسرائيل في حرب عام 1967 وترفع شعارات تطالب إسرائيل بعدم التنازل عن شبر واحد من «أرض إسرائيل»، والمحافظة على القدس واحدة موحدة تحت السيادة الإسرائيلية وكعاصمة أبدية للشعب اليهودي، علاوة على دورها الدعاوي الواسع. للاطلاع على أفكار هذه الحركات على سبيل المثال، أنظر الصفحة الالكترونية للسفارة المذكورة على الرابط: https: //int.icej.org /about-us

Digitized by Birzeit University Library

وتنتشر هذه حملات المقاطعة على نطاق واسع في العالم[1]، لذلك كله لم ينتهي منهج «إجبار التاريخ» و«تطويع الآثار»، بل يجب الاستمرار في تجنيده لأنه يخاطب قطاعات واسعة في الغرب المهووس بالآثار، فما بالك إن كانت «توراتية».

لكن من المثير مشاهدة أصوات إسرائيلية نقدية قد بدأت فعلا بالظهور منذ نهاية ثمانينات القرن الماضي، سميت في حينه بظاهرة «المؤرخين الجدد»، وهي ظاهرة مهمشة ومثيرة للجدل داخل إسرائيل، ولكن محتفل بها بأوساط مختلفة في العالم، وخاصة في العالم العربي، وقد اقتصرت معالجات هذه المجموعة على السنوات الأخيرة من فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، وركزت على النكبة ومسألة تهجير الفلسطينيين من ديارهم. وبالتأكيد تأتي الإثارة في موضوع المؤرخين الجدد على اعتبار أنهم من قلب المجتمع الإسرائيلي وخريجي مدارسه وجامعاته، ومعتمدين بالأساس على الوثائق الإسرائيلية في معالجاتهم، وسنأتي لاحقا على التطرق إلى بعض النماذج منهم[2].

لم تنتقل ظاهرة المؤرخين الجدد إلى «الأثريين الجدد» بنفس الصخب الإعلامي الذي حظي به «المؤرخون الجدد»، فتأثيراتها على العموم أقل صدى، وفهمها أصعب بكثير، فالأولى تثير الكثير من معاصري الأحداث: اللاجئين الفلسطينيين والحركة الوطنية الفلسطينية (ومن معهم) من جهة، وقادة إسرائيل والكثير من جنودها ومؤسساتها (ومن معهم) من جهة ثانية، في حين أن حقل الآثار يقتصر على أعداد محدودة من المتخصصين، وليس في

(1) حول الحركة ما لها وما عليها، أنظر الرابط: http://www.acrseg.org/40843

(2) حول ظاهرة المؤرخين الجدد، أنظر إيلان بابيه (أحد اقطاب هذا التيار) «تقلبات 1948: تدوين تاريخ إسرائيل»، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 84، 2010، ص 73-89.

Digitized by Birzeit University Library

الموضوع إثارات شعبية عارمة، حيث أن فهم العموم لمعنى هذه التحولات يبقى صعبا، بل يتناقض في كثير من الأحيان مع معتقداتهم الدينية، مما يصعب عليهم حتى الاستماع إلى ذلك. لكن بالتأكيد ظهرت أصوات إسرائيلية نقدية تطالب بإعادة دراسة الآثار بطرق نقدية، وعدم تسخير هذا الحقل في خدمة المؤسسة السياسية الحاكمة، وأصبحت تنظر إلى العهد القديم بوصفه مجموعة من الحكايات الشعبية المجمعة من مختلف دول الشرق وثقافاته، ورفض استعماله الأعمى كمصدر تاريخي[1]. صحيح جدا بأن هذه المدرسة التي ظهرت منذ فترة طويلة خارج إطار المنطقة، لكن ليس بعيدا عن فكرة الصراع الدائر، إلا أن تأثيراتها بين علماء الآثار الإسرائيليين قد بدأت تظهر حاليا بشكل ملموس أكثر، وذلك بخصوص كل تاريخ فلسطين بشكل عام، وتاريخ القدس بشكل خاص، كما سيأتي ذكره.

ويعتبر حقل الآثار من أهم الحقول التي تعالجها الكتابات الإسرائيلية حول القدس، وقد اعتمدت هذه الكتابات على محاولة حثيثة لإثبات نصوص العهد القديم من خلال الآثار. صحيح جدا بأن هذه المحاولة تواجه مشاكل صعبة في الوصول إلى المقاربة بين الآثار والنصوص، فالنصوص غنية جدا لكن الآثار فقيرة جدا، ولم يتم حتى الآن اكتشاف نقاط ارتكاز واضحة تثبت العلاقة بين المكونين، ولا يمكن بناء عليه، ضمن ما تجميع لدينا من

(1) هناك مجموعة من هؤلاء، وهم لا يشكلون مدرسة واضحة المعالم، نرى أحيانا أن بعضهم قد فلت من حبل الرواية الرسمية في قضية ما، ويعود ويتبناها في مسألة أخرى. من أبرز من يمكن اعتبارهم ممثل لهذا التيار رافي جرينبرغ (Rafi Greenberg) الأستاذ في جامعة تل أبيب، وقد نشر مجموعة من الدراسات النقدية لتسيس الآثار في إسرائيل، أنظر على سبيل المثال:
R. Greenberg and A. Keinan. *The Present Past of the Israeli-Palestinian Conflict: Israeli Archaeology in the West Bank and East Jerusalem Since 1967*. S. Daniel Abraham Center for International and Regional Studies: Research Paper 1. Tel Aviv, 2007; R. Greenberg and A. Keinan. *Israeli Archaeological Activity in the West Bank and East Jerusalem: A Sourcebook*. Ostracon Press, 2009. 180 pp. digital database.

Digitized by Birzeit University Library

معلومات هائلة بعد مئات الحفريات، من تشكيل صورة ولو شكلية[1].

وفي ظل التراجع النسبي لدور الآثار في «إضفاء الشرعية»، على أساس أن هذا الدور قد استهلك نسبيا وفعل فعله، أصبح للآثار أدوار أخرى في القدس، حيث عزز ارتباطه وحركة الاستيطان في المدينة، بحيث أن غالبية الحفريات الأثرية المنفذة الآن ممولة من الحركات الاستيطانية وبدوافع الاستيطان وتعزيزه في القدس القديمة ومحيطها.[2]

وحتى لا نبالغ في أهمية الحراك الذي يطال علم الآثار، والذي قد ينفي كل أساس التاريخ التوراتي، إلا أن ذلك لن يغير الواقع بشكل ثوري، وقد لا ينتقل هذا الحراك إلى أبعد من نقاشات أكاديمية بين حفنة من المختصين سواء على هذه الضفة من النقاش أو تلك، فقد تعززت الرواية التوراتية وأصبحت مكونا أساسا في المجتمع الإسرائيلي، ولن يضيرها أي اكتشاف في حقل الآثار أو إثبات عدم صحة هذه القصة التوراتية أو تلك. وقد عبر حتى منتقدي الرواية التوراتية عن عدم الحاجة الموضوعية لهذه الروايات لاستخدامها في تبرير وجود إسرائيل. يتمنى هيرتسوغ: «أن لا يقرن موقفه بفرضية أن تقويض تاريخية القصص التوراتية يعني تقويض حقنا التاريخي في أرض إسرائيل». وبالتأكيد، إن أحد أسباب رفض هيرتسوغ لتلك الفرضية هو أنه يمكن التوصل إلى استنتاجات سياسية، تؤكد على العكس من ذلك أهلانية الإسرائيليين، الذين لم يأتوا اليها كغزاة. فالإحساس بالانتماء للبلاد،

(1) لقد قاد هذا الأمر إلى الكثير من الأبحاث، ومن المثير أن نشير إلى ما تنبه إليه أستاذ التاريخ الإسرائيلي شلومو ساند (Shlomo Sand)، الذي قام بتأليف كتاب تحت عنوان «اختراع الشعب اليهودي»، وأتبعه بكتاب آخر «إختراع أرض إسرائيل».

(2) لمزيد من التفاصيل حول ارتباط الحفريات الأثرية بالحركات الاستيطانية، أنظر نظمي الجعبة، «القدس بين الاستيطان والحفريات»، **مجلة الدرسات الفلسطينية**، مج 20، عدد 79، صيف 2009، ص 39 وما بعدها.

Digitized by Birzeit University Library

السائد بين الجيل الشاب، لا تعيقه الحاجة لتبرير وجود دولة إسرائيل استنادا إلى وعود ربانية[1].

(1) أنظر، بيتربيرغ، مصدر سبق ذكره، ص 308.

Digitized by Birzeit University Library

ثانيا. مفهوم تاريخ القدس في الرواية الإسرائيلية

ارتبطت عملية كتابة تاريخ القدس، بناء على الرواية الإسرائيلية، بسلسلة من القضايا، لكنها اعتمدت بالأساس على مبدأين مركزيين، الأول يحاول تفكيك ارتباط العالم بالقدس بقدر الإمكان، وإن لم ينجح هذا فيتم التشكيك بصدقية هذا الارتباط وتهميشه أو تحديده بقضية بعينها دون غيرها. أما المبدأ الثاني فهو، تعزيز علاقة إسرائيل بالتراث اليهودي وتضخيم هذه العلاقة وتجذيرها، وتصويرها على أنها علاقة يومية لم تنتهي لا بالشتات ولا بغيره، وتسند هذه العلاقة على أسس «قومية» وليس دينية فحسب. فمرة تعترف إسرائيل بالعلاقة الرمزية للديانات السماوية بالقدس، وتؤكد بدورها على احترامها لهذه العلاقة على شكل حج وزيارة، ومرة أخرى ترى باليهودية جماعة قومية لها الحق بالاستحواذ المطلق على فلسطين، طبعا المؤيد بإرادة سماوية مقدسة، ومرة أخرى تعترف للبعض بعلاقة سياسية بالقدس، وذلك في سبيل تهميش علاقتهم الدينية بها، وقد يتغير الأمر بناء على الأوضاع السائدة. سنحاول في الصفحات القادمة مراجعة المبادئ المختلفة التي تساهم في كتابة تاريخ القدس من وجهة نظر إسرائيلية.

ويمكن في حقيقة الأمر تلخيص علاقة اليهود بالقدس بالاعتماد على المفهوم الإسرائيلي، أنها لم تنقطع أبدا حتى في ظل شتات اليهود في المعمورة، وأن «يروشلايم» (القدس) العاصمة الأبدية لشعب إسرائيل كانت كذلك في الماضي وهي كذلك في الحاضر وستبقى كذلك في المستقبل، وهي مدينة

Digitized by Birzeit University Library

قدس الأقداس بالنسبة لليهودية، وقلب الأمة ومركزها الوطني والديني والروحي، وهي عاصمة دولة إسرائيل الجديدة، ومقر المؤسسات المركزية للدولة والحكومة الصهيونيّة. وقد ورد اسم القدس في التوراة 6400 مرة، سميت «يبوس» في عهد القضاة، وبعد أنْ احتلّها الملك داود سميت «مدينة داود»، حيث أقام عليها المذبح لتكريم يهوى، واتخذها عاصمة لمملكته. وأمّا إبنه سليمان، فقد بنى هناك الهيكل الأول الذي أصبح شعارًا لوحدة اليهود في كل العالم ومركزا روحيا لهم ومازال الهيكل كذلك حتى الآن. وعندما انقسمت المملكة في عهد (رحبعام) إلى مملكتيْ (يهوذا في الجنوب) و(إسرائيل في الشمال) بقيت القدس عاصمة للمملكة يهوذا فقط. وحتى أثناء الشتات، كانت القدس قبلة اليهود ومحجهم، وكان اليهود قبل افتراقهم يتمنون إعادة اللقاء في القدس «السنة القادمة في القدس».

وليس من الضروري الرد على كل نقطة من النقاط المذكورة أعلاه في إدعاء العلاقة بالقدس بين الأسطورة والتاريخ، ولكن سيصار إلى عرض وتحليل أهم مكونات هذه الروايات.

1. تضخيم المكانة وتعظيمها وتنميتها على مدار التاريخ

القدس هي مصدر الشرعية الأساس في التاريخ الإسرائيلي، وتعتمد جل الروايات الرسمية وغير الرسمية على مركزية القدس في الرواية الصهيونية المستمدة شرعيتها من وراثة التاريخ اليهودي في المدينة، على اعتبار أن يهود اليوم هم الورثة الشرعيين ليهود ما قبل الغزو البابلي وليهود ما قبل تدمير هيكل هيرودوس وليهود ما قبل الشتات. لقد عاشت القدس في الرواية اليهودية في الشتات وبقيت مشتعلة متقدة في ذهنهم، وتوارثتها الأجيال المختلفة عبر أشكال متعددة، صحيح أن الحركة الصهيونية قد قلمتها

Digitized by Birzeit University Library

وشحذتها ووجهتها باتجاه مشروع قيام دولة إسرائيل، لكنها كانت موجودة دائما وبأشكال مختلفة، لم تبتعد كثيرا عن فكرة النستلجيا والحنين والذكر في الصلوات والتمنيات، وهي مكانة لم تبتعد عن مكانة مكة للمسلمين أو القدس للمسيحيين في العالم، ولم تكن ما قبل الحركة الصهيونية مشروعا لدولة أو حتى الاقتراب من ذلك.

وبغض النظر عن تاريخية هذه المفاهيم، والتي يمكن نقضها بأشكال مختلفة، إلا أن «التاريخية» سواء صدقيتها أو دقتها لا تلعب دورا هاما في تقرير أهمية الرواية، فقد تكون الرواية مختلقة تماما، وهذا أبدا غير هام ما دامت قد وجدت من يؤمن بها، فالأسطورة قد تتحول إلى «حقيقة تاريخية» لا يمكن تغييرها حتى لو ثبت عدم صحتها، خاصة إذا ما تم تناقلها عبر الأجيال بحيث يتم تناسي مصدرها ودورها الذي كونت من أجله بالأساس. وهذه المسألة لا تقتصر على اليهودية أو على الصهيونية، فكثير من معتقدات العالم قد مرت في نفس الطريق. الشئ الوحيد الذي قد يؤدي إلى تقليل أو تخفيف وطأة تلك الروايات هو انعدام الحاجة إليها، عندها قد تتحول إلى فلكلور له مريديه ويمكن إدخاله في علم الأنثروبولوجيا.

وللتدليل على ذلك نأخذ مثلا مقام النبي داود في القدس نموذجا، والذي يقع اليوم على تلة تبعد عدة أمتار عن السور العثماني الجنوبي، ويرتبط بالبلدة القديمة عبر باب النبي داود. لقد تم تحديد علاقة النبي داود بالموقع في الفترة البيزنطية ولا شيء يوحي بوجود مثل هذا التراث قبل ذلك، ولم يؤمن اليهود بأن قبره يقع في هذا الموقع، بل كان اعتقادهم، بناء على الروايات التوراتية، بأن قبره يقع في تلة الضهور[1]، حيث خرائب القدس العتيقة،

(1) على أغلب الظن هي جبل صهيون المذكور بالتوراة، وليس الموقع الحالي للجبل، فتحديد جبل صهيون في موقعه الحالي لم يظهر قبل الفترة البيزنطية.

Digitized by Birzeit University Library

وأول إشارات اهتمام يهودي بموقعه الحالي قد جاءت في القرن الرابع عشر ميلادي، وذلك في إطار التنافس مع طائفة الفرنسيسكان المسيحية التي تحدد الموقع مكان علية صهيون (غرفة العشاء الأخير) وقبر النبي داود، أي بعد أكثر من ألف عام على تأليف الأسطورة. وفي القرن السادس عشر قام السلطان سليمان القانوني بانتزاع المقام وبعض المباني المحيطة به وتحويله على موقع إسلامي، حيث شيد هناك مسجدا ومجموعة من الزوايا الصوفية، وتحول إلى أحد مراكز التصوف الأساسية في القدس، وهكذا بقي حاله حتى النكبة عام 1948، أي موقع إسلامي مع احترام حق المسيحيين بزيارة غرفة العشاء الأخير والصلاة فيها.

وحين وقع الموقع بكل مكوناته تحت الاحتلال الإسرائيلي عام 1948، تحول إلى مركز ديني يهودي أساسي، عوضا عن حائط البراق، وعوضا عن الكنس اليهودية التي تقع داخل أسوار البلدة القديمة، حتى أن رئيس إسرائيل قد اتخذ لنفسه حجرة داخل المجمع، ولعب المجمع دورا أساسا في الاحتفالات اليهودية الدينية والسياسية على حد سواء وتم تطوير طقوس دينية وصوفية يهودية خاصة بالمقام. استمرت مركزية مقام النبي داود في الممارسات الإسرائيلية حتى العام 1967، الذي يخلو من أية أبنية بنيت على يد اليهود أو إسرائيل، حيث أن المجمع عبارة عن مبان تعود إلى الفترة الصليبية، وأخرى تعود إلى الفترة المملوكية، وغالبيتها تعود إلى الفترة العثمانية ومنها بيوت آل الدجاني (الداودي) ومقابرهم، الذين عينوا في وظيفة سدنة المقام منذ القرن السادس عشر، فسكنوا داخله وفي محيطة حتى تحول إلى حي سمي «الداودية» حتى العام 1948 حين أجبروا على إخلاءه. وبعد حزيران 1967، انتقل الاهتمام اليهودي (الإسرائيلي) إلى حائط البراق، حيث أصبح التركيز الديني والسياسي، أو الجمع بينها، يتمثل في ساحات البراق التي شيدت على أنقاض دمار حارة المغاربة.

Digitized by Birzeit University Library

تراجعت إذا الأهمية الفعلية والحاجة الرسمية لدور مقام النبي داود، لكن بقيت الرواية التي شكلت لأغراض مختلفة، وتحول الموقع إلى مزار ومدارس دينية ومركز لحركات مسيانية وتصوفية، وازدادت مظاهر تهويده، بحيث أصبح جزءا من الرواية الرسمية على أنه «حقيقة تاريخية». على أي حال إن تتبع حالة مقام النبي داود تشكل نموذجا لكيفية اختلاق الرواية وتطويرها لتصبح في مصاف «العقائد»[1].

تقول الرواية الرسمية التي تتكرر في كل المصادر الإسرائيلية واليهودية والكتب المدرسية بأشكال وتعبيرات مختلفة، حول القدس، والتي يمكن أن نلخصها بما يلي: «علاقة اليهود بالقدس قديمة وقوية. لقد صنعت اليهودية قدسية القدس منذ ثلاثة آلاف عام، وخلالها بقي اليهود مرتبطين بشدة بالقدس. يصلي اليهود باتجاه المدينة، يذكرون اسمها في صلواتهم يوميا، يختمون صلاة عيد الفصح بعبارة «السنة القادمة في القدس»، كما يختمون وجباتهم اليومية بتبريك من القدس. أن دمار الهيكل قد بقي حيا في وعيهم، حيث يحتفل به خاصة في يوم دمار الهيكل، كما يتم تذكر الهيكل عبر إبقاء شيئا ناقصا في بناء البيت، أو بقاء تزين النساء وحليهم غير مكتملة تماما، كما يرمز تكسير الزجاج في حفل الزفاف إلى دمار الهيكل. بالإضافة إلى ذلك تحتل القدس مكانا تاريخيا مرموقا، فقد كانت العاصمة الوحيدة للدولة اليهودية، كما كانت المدينة الوحيدة في العالم ذات الأغلبية اليهودية في القرن التاسع عشر».

ولإثبات مركزية القدس في العقائد اليهودية والصهيونية يتم الإشارة إلى أن القدس تذكر في العهد القديم 669 مرة، كما تذكر صهيون (أي القدس) 154 مرة، بمعنى أن القدس تذكر في نصوص العهد القديم 823 مرة. ويذكرها

(1) حول مقام النبي داود، أنظر أمل كاتبة الدجاني، مسجد ومقام النبي داود: دراسة تاريخية أثرية معمارية، رام الله 2014.

Digitized by Birzeit University Library

العهد الجديد، أي في المسيحية، 161 مرة. ويمكن القول بأن هذه المقولات لم تعد تحتل موضعا معياريا لدى الباحثين، فقد بدأت عمليات تفكيك النص التوراتي، نقد النص المقدس، في حقيقة الأمر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد تصدر هذه المدرسة المستشرق واللغوي الألماني يوليوس فلهاوزن.

صحيح جدا بأن هناك وجهات نظر أخرى بدأت في التكاثر بشكل متصاعد تحاول وضع الأمور في نصابها. يقول توماس تومبسون في كتابه «التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي» الصادر عام 1992: «إن العهد القديم لم يكن تاريخاً تحول إلى خيال، بل خيالاً تحول إلى تاريخ»، لكن الوقائع التاريخية تؤكد أن الخيال اليهودي في الماضي لم يتحول إلى تاريخ أبداً، والكلام هنا للمؤرخ الصهيوني زئيف هيرتزوغ[1] «بعد سبعين سنة من الحفريات المكثفة في أرض فلسطين توصل علماء الآثار إلى استنتاج مخيف: الأمر مختلف من الأساس فأفعال الآباء (The Patriarchs) هي مجرد أساطير شعبية، ولم يكن الإسرائيليون في مصر أبدا، ولم يتيهوا في الصحراء، ولم يفتحوا الأرض (فلسطين) في حملة عسكرية، ولو يوزعوها بين القبائل الإثني عشر. وقد يكون أشد صعوبة ابتلاع أنه لم يكن مملكة داوود وسليمان المتحدة، التي يصفها الكتاب المقدس بالقوة الإقليمية، لم تكن في أفضل أحوالها سوى مملكة قبلية صغيرة. .... فمعظم المنشغلين بالبحث العلمي الخاص بمعالم الكتاب المقدس المتشابكة والأركيولوجيا وتاريخ الشعب اليهودي، والذين دخلوا هذا المجال بحثا عن ما يؤكد صحة قصة الكتاب المقدس، يتفقون الآن على أن الأحداث التاريخية الخاصة بمراحل تشكيل الشعب اليهودي،

(1) زئيف هيرتسوغ، ناقد أثري من جامعة تل أبيب، أصبحت آراءه تضايق الكثيرين من التيار المركزي في كتابة التاريخ في إسرائيل، كما يتعرض إلى مضايقات رسمية.

Digitized by Birzeit University Library

تختلف جذريا عما تقوله هذه القصة ... والباحثون والمختصون يعرفون هذه الوقائع منذ وقت طويل، ولكن المجتمع لا يعرف».

ويضيف هيرتزوغ: «نشأ وضع بدأت فيه الاكتشافات الكثيرة تقوض المصداقية التاريخية للوصف التوراتي بدلاً من أن تعززه، وبدأت مرحلة الأزمة، وهي مرحلة لا تستطيع النظريات أن تحل العدد المتزايد من المجاهيل، وغدت التفسيرات معقدة وغير لبقة فتشوشت الصورة، لكن التسليم بهذه الحقائق التاريخية، والمادية الدامغة غير ممكن صهيونياً، لسبب بسيط هو أن الصهيونية هي حركة لا عقلانية، ولأن القبول بتلك الحقائق ينفي وجودها ويبددها، لذلك دائماً تحني هذه الحقائق، وتتوسل المنظور التوراتي». ويضيف المؤرخ زئيف هيرتزوغ: «لقد شكل التاريخ التوراتي أحد أحجار الأساس في بناء الهوية القومية للمجتمع الصهيوني»[1].

أما هارولد فيتش، رئيس جامعة بار إيلان في بئر السبع، فيقول: «... ما بعد البعد اللاهوتي تتلاشى الصهيونية هباءً منثوراً». وفي هذا الصدد يقول أيضا يعقوب تالمون، أستاذ التاريخ في الجامعة العبرية في القدس: «إن الحق اليهودي التاريخي في فلسطين يفتقر إلى أساس ثابت، فيما لو تم إقصاء مسألة الإيمان بالوعد الإلهي، وفكرة الشعب الذي اختاره الرب واصطفاه، مما يؤدي حتماً إلى الظهور بمظهر الفاتحين والإمبرياليين».

ويقول أخاي مازار، الذي يشكل مرحلة بين المحافظين والمنفتحين ويحاول التوفيق بين المنهجين: «كان علم الآثار في فلسطين، وإلى حد بعيد حتى اليوم، مدفوعا بدوافع الاهتمام بالعهد القديم. وكان غالبية الآثاريين العاملين في فلسطين يتشكلون من الباحثين والمتخصصين بالعهد القديم،

(1) أنظر مقالته التي نشرها في جريدة هآرتس تحت عنوان: «تفكيك جدران أريحا»، صحيفة هآرتس 29/ 10/ 1999.

Digitized by Birzeit University Library

وبالتالي كانوا يفهمون الآثار والتاريخ من خلال النصوص التوراتية، وكان هذا الفهم يسيطر على تحليلهم للمكتشفات الأثرية ... وعلى هذه الخلفية، تم ارتكاب أخطاء جسيمة في الاكتشافات الأثرية في فلسطين مثل تشخيص «مناجم الملك سليمان» في تمناع ... وفهم بئر وارن (Warren Shaft) في القدس...»[1].

وفي الحقيقة فإن ما يمثله مازار، وهو قريب مزار المؤسس، في النص المذكور أعلاه يعتري غالبية الأثريين والمؤرخين الإسرائيليين، فبعد انتهاء المدرسة المهيمنة تقريبا في الأوساط العلمية،[2] لم يعد بالإمكان التمسك بالرواية التقليدية بحذافيرها، كما لم يكن بإمكان غالبيتهم التخلص منها تماما، فاختاروا منزلة بين منزلتين، حيث يتم فهم روح نقدية في جنبات نصوصهم، لكنها تفتقد إلى الوضوح ولا يقطع غالبيتهم الميل الأخير من الرحلة الصعبة، رحلة الانتقال من البرنامج الموضوع مسبقا ونتائج العلم المتزنة، وأعتقد أن الأمر لديهم مرتبط بوظيفة كتابة التاريخ، حيث أن الصراع على أرض فلسطين لم ينتهي لا بكامب ديفيد ولا بأسلو، وبالتالي يتطلب الخروج من البوتقة التقليدية (الرواية الصهيونية) ظروفا موضوعية غير تلك التي سادت حتى اليوم.

(1) Amihai Mazar, *Archaeology of the Land of the Bible*. 10,000-586 B.C.E. New York, 1992.

(2) في الحقيقة أن هذا الأمر غير دقيق، فما زال عتاة التوراتين يحتلون مكانا مرموقا في الأكاديميا الإسرائيلية وفي سلطة الآثار أيضا، ومن ضمنهم حفيدة مزار نفسه، إيلات مزار، التي تقوم بالحفر في سلوان مهوسة تماما بقصة داود وسليمان، حتى أنها إدعت قبل عدة سنوات اكتشاف قصر داود في القدس، وحينها تعرضت إلى الكثير من الاستهزاء حتى من قبل هواة الآثار. حول الاكتشاف وردة الفعل، أنظر مقالة نيويورك تايمز بتاريخ 5/ 8/ 2005 على الرابط: https://www.nytimes.com/2005/08/05/world/africa/king-davids-fabled-palace-is-this-it.html

Digitized by Birzeit University Library

ويبدو أننا قد دخلنا في مرحلة كان من المقرر لها أن تؤكد وتثبت آثار النص اليقين المقدس، ولكن بعض النزاهة العلمية عند بعض الأثريين الإسرائيليين ستؤدي إلى نتائج مغايرة تماما لما خطط لها أصلا، أي انقلاب السحر على الساحر، أو لنقتبس ما كتبه الناقد الفلسفي الإسرائيلي غبرائيل بيتربيرغ: «... مع ذلك، فإن نتائج هذه البحوث (الأثرية) كانت هدامة، بل وغبية إلى حد ما. فالإخلاص للصدق العلمي من قبل الأثريين من جيل هيرتسوغ أدى إلى دحض ما كان المفترض أن يثبت ويتأكد»[1].

إذا نحن أمام منهجين، الأول يحاول لوي ذراع التاريخ ورواياته وأحداثه، واستعماله مصوغا للوجود كدولة لها عاصمة ونشيد وطني، نافيا السبب الأساس من وراء تأسيس دولة إسرائيل من قبل قوى ومنظمات كولونيالية هدفت من وراء ذلك السيطرة على مقدرات منطقة إستراتيجية هامة بموقعها ومواردها، وكمساهمة مركزية في تفتيت أوصال هذه المنطقة، مانعة انبعاثها من جديد كقوة تملك الجزء الأكبر من إكسير الطاقة المسيرة لعجلة الإنتاج الرأسمالية. وبعد عقود على هذا التأسيس، ومأسسة الدولة المخترعة، لعب التاريخ دورا مركزيا في ضمان استمراريتها، أو لنقل لضمان استمرار شرعيتها، وفي الحقيقة فإن دور هذه «الدولة» لم ينتهي بعد، وقد ينتهي في المستقبل، لكن يجب عدم التقليل أبدا من الآليات التي يمكن أن تطورها لضمان

(1) غبرائيل بيتربرغ، **المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير وسياسات ودراسات إسرائيلية**، ترجمة سلافة حجاوي، رام الله، منشورات مدار، 2009، ص 292. صدر الكتاب أولا بالإنجليزية تحت عنوان:

Gabriel Piterberg, *The Returns of Zionism: Myth, Politics and Scholarship in Israel*, London and New York, 2008.

Digitized by Birzeit University Library

استمرار وجودها، حتى لو تتضاءل دور التاريخ في مبرر الوجود[1].

أما المنهج الثاني، فيتشكل من مجموعة لم تستطع، بسبب منطقيتها وعلميتها، إنكار ما تكشف من معلومات تاريخية تناقض ما ذهبت إليه الرواية الصهيونية، ولنقل على أقل تقدير لم تستطع إثبات هذه الرواية، وهنا يجب الحذر في عدم المبالغة في دور هذه المجموعة، كما يجب القول بأن نفي دور التاريخ في مسألة الشرعية لم يتلاشى، إلا أنها لا تنفي «حق إسرائيل في الوجود»، وتسعى إلى خلق أسس جديدة لهذا «الحق» بعيدة كل البعد عن المصوغات التاريخية. وهذه تتلاقى في المنهج والمنطق مع بعض مكونات مدرسة المؤرخين الجدد (بني موريس مثلا)، والتي لا تنفي منهج تهجير الشعب الفلسطيني من وطنه ضمن خطط وضعت مسبقا، أي لا تنفي مبدأ تنفيذ التطهير العرقي على أيدي العصابات الصهيونية بمختلف مسمياتها، لكنها تؤكد على شرعيته على اعتبار أنه كان ضرورة وجودية لتأسيس دولة إسرائيل، وبهذا لم يعد المصوغ الأخلاقي ولا التاريخي هام بتشكيل الدول، وهو تطور على درجة عالية من الأهمية، حيث أن مؤسسي دولة إسرائيل اعتمدوا عليها في فكرة التأسيس، هذا طبعا عدا عن استعمال التاريخ كحاضن ومشرع للفكرة، طبعا بالمباركة الإلهية، ولا يجب تناسي الاستخدام الواسع للتاريخ في فبركة «شعب إسرائيل» وصناعته، ودمجه من الشتات، ومحاولة تركيب هوية له بخلفية تاريخية.

---

(١) لمزيد من الإسهاب حول ذلك، أنظر:

Nur Masalha *The Bible and Zionism: Invented Traditions, Archaeology and Post-Colonialism in Palestine-Israel*. London: Zed, 2007; P L Kohl, M. Kozelsky, and N. Ben-Yehuda, eds. *Selective Remembrances: Archaeology in the Construction, Commemoration, and Consecration of National Pasts*. Chicago: University of Chicago Press, 2007; Nadia Abu El-Haj, *Facts on the Ground. Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society*, Chicago and London: University of Chicago Press, 2001.

Digitized by Birzeit University Library

وبالمنهجين المذكورين أعلاه، تحتل القدس مركز الصدارة في النقاش، ففيها يتركز التاريخ بكل أدواره التي صممت المدينة للعبها، وفيها طورت الأساطير على مدار قرون طويلة، وفيها تطور مصنع تاريخ التوراة، وفيها مصدر الشرعية، وهي مركز كل الرموز المختلقة، لذلك شكلت مكان التضاد بين المدارس المختلفة من جهة والرواية الفلسطينية، إن صح القول، من جهة ثانية.

2. الهروب من مسيحية القدس

إن كانت مواجهة الرواية الإسلامية حول القدس قد شكلت مهمة أساسية للمؤرخين والأثريين الإسرائيليين وأبائهم المؤسسين من المستشرقين هدفا لهم، كما سيرد أدناه، فقد تم توخي الحذر التام بالتعامل مع علاقة المسيحيين بالقدس. وفي الحقيقة أنه ليس هناك مطالب مسيحية سياسية في القدس، فمسيحيو فلسطين هم جزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني، وهم مكون أساس من حركته الوطنية، ومطالبهم لا تختلف أبدا من ناحية سياسية ووطنية عن مطالب باقي الشعب الفلسطيني، علاوة على أن نسبتهم قد تراجعت بشكل كبير، بحيث باتوا يشكلون الآن حوالي 1% من مجموع الشعب الفلسطيني على أرض فلسطين. لقد كانت الحركة الصهيونية حذرة جدا بأن لا تستفز مشاعر المسيحيين عندما يتعلق الأمر بالقدس، ويبدو أن الاستراتيجية تشكلت من محاولة عدم التصادم مع المسيحية، خاصة وأن الاستعمار الأوروبي (المسيحي) هو الذي حرص على إقامة إسرائيل، كما اعتبرت أوساط واسعة من المسيحية، أن إقامة إسرائيل هي نبوءة لا بد أن تتحقق. وبهذا، استطاعت إسرائيل تجاهل التاريخ المسيحي للقدس، ولم تحتل هذه الفترة إلا مساحة ضئيلة من العمل الأكاديمي التاريخي الإسرائيلي،

Digitized by Birzeit University Library

بالرغم من تزايدها خلال العقدين الماضيين. لم يكن من الصعب على إسرائيل الاعتراف بمصالح العالم المسيحي (الدينية) في القدس، فهو إعتراف يمكن استثماره بشكل جيد في زيادة الحج المسيحي إلى العتبات المقدسة، مما يزيد من شرعية إسرائيل كحامية للكنائس المسيحية وميسرة للحج المسيحي، لكن أيضا كحاصدة للفوائد الاقتصادية للحج المسيحي.

وفي الحقيقة استطاعت إسرائيل حتى السنوات القليلة الماضية تفادي أي تصادم مع العالم المسيحي إلا ما ندر[1]، لكنها لم تستطع أخيرا الحفاظ على ذلك، فقد تورطت مجموعات استيطانية في محاولات شراء مبان كنسية (خاصة أملاك بطريركية الروم الأرثوذكس)[2]، ثم جاءت مسألة مطالبة الكنائس بدفع ضرائب معينة، مما أثار حفيظة كنائس القدس، ومن خلفها الكثير من دول الغرب الأوروبي، وقامت بإغلاق أبواب كنيسة القيامة لمدة ثلاثة أيام احتجاجا على السياسة الإسرائيلية، وهي مسألة كادت أن تخرج عن إطار السيطرة، حتى قامت السلطات الإسرائيلية بتجميد القرار إلى أجل غير مسمى، لكن لا يمكن التكهن متى سيعاد فتح الموضوع من جديد. ترى الكنائس المسيحية في القدس أن هذا الأمر هو انتهاك للوضع الراهن، والذي يعود إلى قرون خلت، حيث أنها لم تدفع مثل هذه الضرائب طوال تاريخها حتى اليوم. وبالرغم من الوعي الإسرائيلي بضرورة عدم الوقوع بتناقض مع العالم المسيحي بخصوص القدس، إلا أن التاريخ المسيحي والمصالح المسيحية في

(1) جرت خلال السنوات الماضية اعتداء على عدد كبير من الكنائس في القدس وطبرية وسواهما، سواء بالحرق أو بالتدنيس، ووقف وراء ذلك حركات يهودية متعصبة، أنظر القائمة الموثقة لإعتداءات على الكنائس المسيحية على الرابط:
http://www.wafainfo.ps/atemplate.aspx?id=10874

(2) تتعدد أشكال الاستيلاء على الأملاك الكنسية، خاصة الأرثوكسية، من تأجير طويل الأمد (99 سنة أو أقل)، البيع بطرق ملتوية، المصادرة ... إلخ وكثير من العقارات يتم تسريبها عن طريق ابتزاز بطريرك القدس الأرثوذكسي

Digitized by Birzeit University Library

القدس بالكاد يتم ذكرها، خاصة استمرار إعلان إسرائيل بأن القدس هي عاصمتها لوحدها، وهي مدينة يهودية كانت ومازالت. بالتأكيد فإن مثل هذه الإعلانات لا تقع بشكل مريح على الأذن الغربية. وفي الحقيقة عندما أعلن الرئيس الأمريكي ترامب الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، ونقل السفارة الأمريكية إليها، لم تستصغ معظم الدول الأوروبية هذا الإعلان، وشعرت بأنه مهدد ليس للحل السياسي، بل أيضا يهدد مصالحها في المدينة. ويذكر بابا الفاتيكان قد استبق قرار ترمب عندما أعرب عن «قلقه الشديد» إزاء التطورات التي تخص مدينة القدس، مؤكدا أن «الاعتراف بحقوق الجميع في الأرض المقدسة (القدس) هو شرط أساسي للحوار». أما بابا الأقباط فأعلن رفضه لقاء مايك بينس نائب الرئيس الأميركي في القاهرة أثناء زيارته للعاصمة المصرية محتجا بذلك على قرار ترامب. كما وجه 13 بطريركيا وزعيما من زعماء الطوائف الأرثوذكسية المسيحية رسالة مفتوحة إلى ترمب يحذرون من أن خطوته هذه سوف تؤدي إلى «مزيد من الكراهية والصراع والعنف والمعاناة في القدس والأرض المقدسة»[1]. خاصة وأن السياسة الفلسطينية الرسمية طالما تؤكد على البعد المسيحي إلى جانب البعد الإسلامي للقدس.

ومن الهام التذكير، بأن البحث التاريخي الإسرائيلي لا يركز كثيرا على القمع البيزنطي لليهود على مدار أكثر من ثلاثة قرون، بما فيها منع اليهود من السكن في القدس، وكأن الأمر عادي جدا، وذلك في محاولة لتركيز الصراع مع العرب والمسلمين، حتى لو أدى الأمر إلى التنازل عن جزء من الرواية الرسمية.

(1) أنظر نص الرسالة على الرابط: https://paltoday.ps/ar/post/312065/

Digitized by Birzeit University Library

3. تهميش أهمية القدس للمسلمين

تعتمد الرواية الإسرائيلية ليس فقط على إظهار أهمية القدس بالنسبة لليهودية، والمبالغة بالأمر إلى حد أصبح مزعجا حتى للمؤرخين الإسرائيليين المحافظين، بل أيضا تعتمد على تهميشها بالنسبة للعرب والمسلمين. لقد كانت مهمة تهميش الأهمية غير مجدية بالنسبة للمسيحية، فليس هناك معركة معها الآن، خاصة وأن المسيحية بطوائفها المختلفة، طبعا وبدرجات متفاوتة، ليس لديها مشكلة مع الرواية التوراتية، كما أن بعض الطوائف المسيحية الغربية، خاصة الإنجيلية بمدارسها المختلفة، تقوم بدعم الرواية الصهيونية بقوة ونجاح أكبر من الصهيونية بحد ذاتها. ويكفي الاستدلال على ذلك بأفكار ومعتقدات ونشاطات ما يسمى بالسفارة المسيحية (Christian Embassy) والتي تنظم مسيرة سنوية بيوم «توحيد القدس» ترفع فيها شعارات تطالب إسرائيل بعدم التخلي عن أي جزء ليس فقط من القدس، بل من أي شبر من «أرض إسرائيل الكاملة»، وذلك على اعتبار أن وجود إسرائيل شرط أساس لعودة المسيح المنتظر، وأن وجود إسرائيل هو «كلمة الله»، التي تتجسد بالقدس تحت السيطرة اليهودية، ويجب عدم تقليل من المعاني المختلفة التي تمثلها هذه السفارة ومدى تأثيرها، ويذكر بأنها تحظى بدعم غير محدود من أوساط واسعة من المحافظين الجدد سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو بعض الأوساط الأوروبية[1].

(1) تأسست السفارة المسيحية في القدس عام 1980 وذلك من مسيحيين من مختلف أنحاء العالم، تضامنا مع حلم الشعب اليهودي وعلاقته بالقدس التي تمتد الى عمق 3000 سنة. تمثل السفارة المسيحية اليوم ملايين من المؤمنين المنتشرين في 125 دولة والذين يكنون الحب ويشعرون بالقلق اتجاه الشعب اليهودي. السفارة المسيحية هي أكبر منظمة مسيحية صهيونية، ولها ممثلين بين 80 شعبا. يعمل في السفارة في القدس 50 موظفا متفرغا. تقوم السفارة بتنظيم الكثير من النشاطات التربوية الهادفة الى إقناع مسيحيي العالم بعدالة القضية اليهودية وحقها في «أرض إسرائيل الكاملة»، كما تقوم بتشجيع الهجرة الى إسرائيل وخرط المهاجرين داخل المجتمع الإسرائيلي، هذا عدا عن الأعداد الكبيرة لمنشوراتهم بلغات مختلفة، ونشرات دورية وشهرية. لمزيد من التفاصيل، أنظر صفحتهم الالكترونية: http://www.icej.org

Digitized by Birzeit University Library

لذلك انصب جل الجهد الرسمي والأكاديمي على الطعن بعلاقة المسلمين بالقدس، وقد امتلأت الكتب المختلفة بشتى أنواع المقولات الجاهزة حول الموضوع، وهناك جهدا هائلا في العمل الأكاديمي الإسرائيلي واليهودي العالمي الذي ركز عمل عشرات السنوات على هذه المسألة. صحيح جدا بأن الكثير من هذه المقولات قد سقطت وتراجعت، لكنها في حينها لعبت دورا هاما في تشكيل الرأي العام العالمي، كما أنها لم تنتهي من إعادة الإنتاج بأشكال وصيغ جديدة تتماشى وضرورات النقاش الذي يدور على الحلبة الأكاديمية بشكل خاص وعلى الحلبة الدولية بشكل عام، وبالتأكيد مازالت تردد بشكل دائم على ألسن رجال السياسية في إسرئيل وكذلك في الإعلام. ولنبدأ بعرض بعض المقولات الأساس التي تعرضت للموضوع:

- لم تذكر القدس بأي من أسمائها الكثيرة ولا مرة واحدة في القرآن الكريم، وأن المسجد الأقصى لا يقع أصلا في القدس.
- القدس ليست قبلة الصلاة عند المسلمين، وإن اتخذوها قبلة لفترة محددة فقد كانت بتأثير من التعاليم اليهودية وبتأثير ممن أسلم في وقت مبكر من اليهود، وبعدها غير الرسول (ص) رأيه، بسبب فشله كسب وضم اليهود إلى مشروعه، لذلك وجه القبلة باتجاه مكة، قبلة العرب، مهمشا بذلك دور القدس في الإسلام.
- لا تذكر القدس في صلوات المسلمين، فإن كان الوضع كذلك فهي غير هامة لهم، وبالتالي فإن الأهمية الإسلامية للقدس مصطنعة، تم تكيفها لتخدم أغراضا سياسية سواء في الماضي (الحروب الصليبية) أو في الحاضر في خضم الصراع مع إسرائيل.

Digitized by Birzeit University Library

- لم تربط القدس بأي حدث بحياة النبي محمد (ص)، والإسراء والمعراج ليست لهما علاقة بالقدس بل بمسجد بعيد (أقصى) يقع في طرف المدينة المنورة، وأن ربط القدس بالإسراء والمعراج اختراع أموي له علاقة بإضفاء قدسيتهم على ميدانهم السياسي الأهم، وإضفاء شرعية على عاصمتهم التي نقلوها من الأراضي المقدسة، أي الجزيرة العربية، إلى بلاد الشام. وهذا الأمر ينطبق على باقي الأحاديث التي تتحدث عن القدس، مثل حديث شد الرحال، وحديث أرض المحشر والمنتشر، وحديث الصلاة في المسجد الأقصى، وحديث أي بيت وضع للصلاة أولا ... إلخ كلها جرى صناعتها في دمشق الأموية.
- لم يأت عمر بن الخطاب إلى القدس ضمن عملية الفتح، لأن المدينة غير مقدسة للمسلمين، بل اختلق الرواية مؤرخون مسيحيون، تبناها بعدهم مؤرخون مسلمون، حيث توافقت وأهوائهم.
- لم تكن القدس ولا مرة واحدة في القرون الأربعة عشر الأخيرة عاصمة لدولة إسلامية، ولم تلعب دورا مركزيا أبدا طوال سيطرة الإسلام عليها، وإن احتلت مكانة في عهد بني أمية فلفترة قصيرة ولأغراض محددة هدفها بالأساس مقارعة عبد الله بن الزبير وتقديرا لعرب الشام. وبالتالي، لم يكن للقدس أهمية سياسية تذكر على مدار التاريخ الإسلامي.
- لم تكن في أي يوم من التاريخ الإسلامي مركزا علميا أو ثقافيا، وأن حواضر العلم في العالم الإسلامي كانت البصرة والكوفة وبغداد وخرسان، والقاهرة ودمشق...الخ.

Digitized by Birzeit University Library

ومن الكتابات التي تلخص الدراسات الإسرائيلية حول مكانة القدس بالنسبة للمسلمين، يمكن الإشارة إلى ما كتبه دانيال بايبس الكاتب اليهودي الانجليزي الذي نشر مقالا مطولا في صحيفة نيويورك صن (New York Sun)، وذلك في 20 يونيو 2006، الذي يقول: «تعاظمت وتضاءلت المكانة الدينية للقدس (أورشليم) لدى المسلمين تاريخيا وفقا للظروف السياسية. فالمسلمون كانوا يهتمون ويركزون على المدينة عندما كانت تخدم حاجاتهم وكانوا يهملونها ويتجاهلونها عندما كانت لا تخدم هذه الحاجات، وذلك في دورة متسقة ثابتة يمكن التنبؤ بها تكررت ستة مرات عبر 14 قرنا. كان هذا التناقض أو التعارض واضحا على وجه الخصوص خلال القرن الماضي. أدى الانتداب والحكم البريطاني للمدينة، في الفترة من 1917 إلى 1948، إلى إثارة مشاعر الغضب من أجل القدس (أورشليم) تلك المشاعر التي غابت خلال 400 عاما من الاحتلال العثماني. وبالرغم من ذلك تجاهلها وأهملها العرب بصورة كبيرة خلال فترة الاحتلال الأردني لمدينة الأسوار، في الفترة من 1948 إلى 1967».

ويضيف بايبس «لم ينشط اهتمام المسلمين بالمدينة إلا مع الغزو الإسرائيلي للقدس (أورشليم) عام1967 ، عندئذ أصبحت القدس (أورشليم) المسألة الأساسية في السياسة العربية». ويقول أيضا أنه «في عام 1968، قامت منظمة التحرير الفلسطينية بتعديل ميثاقها بحيث ينص على أن القدس (أورشليم) هي مقر منظمة التحرير الفلسطينية وأعلن ملك العربية السعودية أن المدينة من الناحية الدينية هي مثل أو لها نفس مكانة مكة».

ويذهب إسحاق رايتر أستاذ الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية في القدس، والذي كتب عشرات الدراسات حول القدس في الإسلام وحول مؤسسة الأوقاف الإسلامية في القدس، إلى أن هناك ثلاثة أحداث أساسية

Digitized by Birzeit University Library

في السنوات الماضية قد قامت بتحويل الأسطورة المليئة بالأهواء الذاتية إلى إيديولوجية (عقيدة) رسمية لدى المسلمين (في فلسطين وخارجها):

- واقعة أمناء جبل الهيكل في أكتوبر 1990 حيث قامت جماعة يهودية بمحاولة فاشلة لوضع حجر الأساس للمعبد الثالث، مما أدى إلى قيام المسلمين بأعمال شغب فقد فيها 17 مشاغب حياتهم (طبعا على حد قول رايتر). أدى هذا الحادث إلى زيادة مخاوف العرب الفلسطينيين من تدمير الأماكن المقدسة الإسلامية، وإلى الحث على العمل من أجل إثبات أن القدس (أورشليم) كانت دائما مدينة مسلمة وعربية فلسطينية.

- اتفاق أوسلو في سبتمبر 1993 حيث وضعت القدس (أورشليم)، ولأول مرة، على مائدة التفاوض. واستبسل العرب الفلسطينيين بمحاولة التشكيك في الصلات والروابط اليهودية بالمدينة، وذلك لإثبات علاقتهم بالموقع.

- شهدت قمة كامب دافيد في يوليو 2000، ومرة أخرى لأول مرة، مطالبة الحكومة الإسرائيلية بالسيادة على أجزاء من «جبل الهيكل». وكما عبر عنها دينيس روس، وهو دبلوماسي أمريكي يهودي حضر القمة، وبقسوة فإن عرفات «لم يقدم على الإطلاق أي فكرة جوهرية، ولا حتى فكرة واحدة» في المحادثات. ولكنه «عرض فكرة جديدة واحدة وهي أن الهيكل لم يكن في القدس (أورشليم) وإنما في نابلس.» وبهذا أصبح التاريخ الكاذب للقدس هو السياسة الرسمية للسلطة الفلسطينية.[1]

(1) Yitzhak Reiter, *Jerusalem and its Role in Islamic Solidarity*, New York: Palgrave Macmillan, 2008.

Digitized by Birzeit University Library

مثير جدا مراجعة ما كتبه رايتر حول القدس، والذي يعتمد في بحثه على ثغرات هنا أو هناك في التاريخ الإسلامي تساهم في التشكيك في مكانة القدس لدى المسلمين، وذلك بالرغم من معرفته الأكيدة بالكم الهائل من الكتابات الإسلامية حول المدينة على مدار تاريخها المديد.

لم يكن إسحاق رايتر سوى حلقة في سلسلة من الدراسات التي سبقته بجيلين على أقل تقدير، وقد تتلمذ على أيدي من سبقه من المستشرقين الإسرائيليين. وبالتالي، وللتوصل إلى مثل الاستنتاجات السابقة، كان لا بد عليه من الاعتماد على سلسلة من الدراسات الأكاديمية. وكانت بدايات الأعمال الأكاديمية الإسرائيلية قد تخصصت بدراسة النصوص الإسلامية بشكل خاص، والخوض بالنقاش الإسلامي الداخلي، الذي بالتأكيد عبر عن تطور الفكر الإسلامي وتطور مناهج البحث الديني والتاريخي عند المسلمين، ونشر مستشرقي إسرائيل عشرات الكتب والمقالات حول الأدب الإسلامي وعلاقته بالقدس.

يذهب برنارد لويس، الذي لم يهدأ له بال في تقديم الدراسات التي تشكك بعلاقة المسلمين بالقدس، إلى الادعاء بأنه كان هناك مقاومة شديدة (لاحظ شديدة) من قبل العلماء والفقهاء في صدر الإسلام لقدسية القدس في الإسلام، وقد جاءت هذه المقاومة في مواجهة محاولات من أسلم من اليهود فرض قدسية إسلامية للقدس، أي أن قدسية القدس في الإسلام لم تكن متأصلة، وأن زجها بالإسلام كانت صناعة يهودية خالصة، استخدم فيها يهود الإسلام معارفهم وخلفياتهم حول فلسطين والقدس، والتي استمدت بالأساس من التوراة والتلمود والمشناة. ويذهب لويس حديثا إلى موقف يدعي فيه بأن احتلال القدس من قبل الصليبيين عام 1099 لم يثير المسلمين، ولم يؤدي إلى قيام حرب إسلامية شاملة على الصليبيين، وأن ما استفز

Digitized by Birzeit University Library

المسلمين ودعاهم إلى إعلان الجهاد ضد الصليبيين هو التطاول الصليبي على الحجاز وتهديدهم للأماكن المقدسة في الحجاز، وليس القدس[1]. وبالطبع ليس هذا المقام للرد على برنارد لويس، فهذا خارج اهتمامنا هنا، وبالرغم من احتواء هذه المقالة على كثير من الايجابيات، لكنها أيضا تعيد إلى الأذهان تلك المحاولة الدائمة لفك ارتباط المسلمين بالقدس.

ويأتي الكثير من الكتاب الإسرائيليين على ذكر وتحليل الحوار الذي دار بين الخليفة عمر بن الخطاب وكعب الأحبار، اليهودي الأصل، والذي أعلن إسلامه، واقترح على الخليفة عمر أن يبنى المسجد الأقصى على الصخرة المقدسة أو إلى الشمال منها فيجمع بذلك القبلتين (قبلة موسى وقبلة محمد)، وقد أجابه الخليفة «لقد ضاهيت اليهودية يا كعب»، ويضيف عمر مخاطبا كعبا لقد شاهدتك تخلع صندلك قبل ولوجك إلى الموقع «لقد أمرنا بالكعبة ولم نأمر بالصخرة»[2]. هذا الحوار، بين عمر وكعب الأحبار، وبغض النظر

---

(1) أنظر مقالته في جريدة: Wall *Street Journal*, Jihad vs. Crusade. A Historian's Guide to the New War,
بتاريخ27/09/ 2001 ـ والذي يناقش فيها استعمال الرئيس الأمريكي بوش الابن لاصطلاح «صليبي»، حيث أثار ردة فعل قوية في العالم الإسلامي في حينه، لربط المسلمين بين هذا الاصطلاح واحتلال فلسطين.

(2) لا يمكن التوصل إلى فكرة التنافس المزعوم بين القدس ومكة المكرمة في كتب فضائل بيت المقدس. إن أية نظرة موضوعية عليها تنفي هذا الادعاء تماما، بل تأسس كتب الفضائل إلى علاقة ثلاثية خالدة بين بيت المقدس وكل من مكة المكرمة والمدينة المنورة، على أي حال يمكن تلخيص محتويات غالبية كتب فضائل بيت المقدس بما يلي:

1. مكانتها في الديانات السماوية، أي في اليهودية والمسيحية والإسلام، وتذكر العلاقة المميزة لها بالمدينة.
2. تركيز واضح على الإسراء والمعراج.
3. فتوح القدس وزيارة عمر بن الخطاب وكل ما ارتبط بها بما فيها العهدة العمرية ووضع أساسات أول مسجد في المدينة وتنظيف الصخرة.
4. بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى.
5. من زارها أو دفن فيها من الأنبياء والصحابة والأولياء الصالحين.

Digitized by Birzeit University Library

عن تاريخيته التي لن نخوض بها هنا، ولن نخوض أيضا بمصداقية الروايات الكثيرة المنسوبة إلى كعب الأحبار (الإسرائيليات)، فقد بحث هذا الموضوع من قبل أكثر من كاتب، ويقع خارج اهتماماتنا. لكن يمكن الاستدلال من استمرار استعمال المستشرقين الإسرائيليين لهذه المرويات، على أن:

- قدسية الصخرة هي فكرة يهودية، نقلها كعب الأحبار.
- استمرار يهودية كعب بالرغم من إعلانه إسلامه، ويتم ذلك عبر ترسيخ العقائد اليهودية وإضفاء بعدا إسلاميا عليها (تقية).
- رفض عمر بن الخطاب قدسية الصخرة، وأصر أن ما هو مقدس في الإسلام هو الكعبة، وطبعا لا يتم تفسير لماذا أمر عمر ببناء مسجد جامع في هذا الموقع بالذات.
- أن عمر بن الخطاب لم يكن واعيا لمسألة ارتباط الصخرة بالإسراء والمعراج، وهي لا تذكر ضمن الرواية أصلا.

وبالتالي يتوقف الكاتب عند هذا الحد من الرواية، بحيث تتحول إلى رواية بحد ذاتها، ويتناسى استكمال الرواية والتي تتحدث عن بحث عمر عن الصخرة وقيامه وصحبه بالكشف عنها وتنظيفها وغسلها وتطهيرها. إن ما يهم الكاتب بالأساس، هو فك ارتباط المسلمين بهذه الصخرة، وبالتالي التشكيك بصدقية علاقة المسلمين بالقدس.

---

6. دورها يوم المحشر والمنشر.
7. الأماكن المقدسة في المدينة وحولها وفي الخليل وبيت لحم.
8. أهمية الزيارة.
9. ثواب الصلاة في الأقصى.

وبالإجمال لا تختلف مكونات كتب فضائل بيت المقدس عن مثيلاتها التي تناولت مدن إسلامية أخرى مثل دمشق والقاهرة وبغداد وطبعا مكة والمدينة.

Digitized by Birzeit University Library

وفي كثير من الأحيان يتم البحث عن نصوص إسلامية تؤكد عدم الارتباط بالقدس، فمثلا يتم اقتباس محمد بن الحنفية (ت حوالي 700م)، والذي يقول بأن: «الرسول محمد لم تطأ قدماه صخرة القدس، وقد ادعى الملاعين من أهل الشام (أي بني أمية) بأن الله قد وضع قدمي النبي على الصخرة، علما أن النبي الوحيد الذي لامست قدمه الصخرة هو سيدنا إبراهيم».

أي أن ابن الحنفية يرفض ربط الإسراء والمعراج بصخرة بيت المقدس، وابن الحنفية مرجعية لا تضاهى لديهم، وكلماته هذه دليل قاطع على عدم قدسية القدس في الإسلام. ويشكل هذا بالتأكيد لويا وقهرا للرواية، فابن الحنفية لم يقصد أبدا عدم ارتباط صخرة بيت المقدس بالإسراء والمعراج، لكن رفض وجود أثر لقدم النبي على الصخرة، وهو الأمر الذي ذهب إليه عوام المسلمين. كما أن نقاش ابن الحنفية قد جاء في سياق رفضه للتجسيم وتحويل الإسلام إلى شكل من أشكال عبادة الأصنام.

كما ويشار في كثير من الحالات إلى موقف شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 1328م)، ويتم المبالغة بأهميته في الفقه الإسلامي على اعتباره مرجعية فقهية غير مختلف على مواقفه (وطبعا هذا ليس بدقيق أبدا)، وذلك ليس من باب الإيمان بعبقرية ابن تيمية ومساهماته الفقهية، بل من باب تقديم مصداقية لفتواه المتعلقة بالقدس. وقد أصدر ابن تيمية فتوى ضد قدسية بيت المقدس عرفت باسم «قاعدة في زيارة بيت المقدس» وقد جرى الاحتفال بهذه الفتوى بشكل واسع بحيث لم يبقى مستشرق إسرائيلي لم يتناولها بالتحليل والدعم والتأييد والتأكيد، ويتم تلخيص فتواه بأنه يرفض قدسية القدس ويدعي فيها بأن قدسية القدس قد استمدت من اليهودية والمسيحية على خلفية الصراع بين بني أمية وعبد الله بن الزبير، والذي أعتبر صراعا بين مكة والقدس.

Digitized by Birzeit University Library

بالتأكيد كان هدف ابن تيمية تخليص القدس من الروايات المبالغ فيها، والتي التصقت بها نتيجة الاحتلال الصليبي لها مدة تسعة عقود، فاختلطت الروايات واختلط القديسون وقصصهم بالرواية المحلية وخاصة الصليبية، وكثرت الخزعبلات بين المسلمين، فأراد ابن تيمية تصحيح المسار ووضع القدس في مكانها، صحيح جدا بأن ابن تيمية قد تطرف في موقفه وذهب إلى الحد الأقصى في صراعه مع «الدين الشعبي» في فلسطين وباقي العالم الإسلامي.

وابن تيمية يؤكد صحة الحديث المتعلق بشد الرحال إلى بيت المقدس، والاعتكاف في ظلال المسجد الأقصى، كما يؤكد ابن تيمية صلاة الرسول عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج في المسجد الأقصى مع باقي الأنبياء، كما أكد على الكثير من العبادات التي تجري في القدس. لكنه رفض وحرم نقل الشعائر المتعلقة بالحج خاصة الأضاحي والوقوف والطواف، كما رفض وجود أثر لقدم الرسول على صخرة القدس، كما أنه رفض تسمية المسجد الأقصى حرما، واقتصر التسمية على مكة. ولا أدري ما هي الأمور التي قلل فيها ابن تيمية من قدسية القدس فيها، سوى تخليصها من الخزعبلات الشعبية وعدم الخلط بينها وبين مكة المكرمة. لذلك، لا يمكن فهم فتوى ابن تيمية في إطار مناهضته لقدسية بيت المقدس، بل بالعكس تماما، فقد أكد ابن تيمية على العناصر الأساسية في الرواية الإسلامية حول قدسية القدس، ورفض المبالغة، كما رفض البدع، فالحجة هنا ليس لها قيمة سوى التشكيك والذي قد يجدي على المدى البعيد، خاصة إذا انتشر هذا التشكيك، في زعزعة علاقة الإسلام بالقدس[1].

(1) لقد تمت ترجمة رسالة ابن تيمية إلى الإنجليزية وبشكل مبكر، وذلك تسهيلا على الذين لا يتقنون العربية، بحيث تصبح سهلة الاستعمال، أنظر:
A Muslim Iconoclast (Ibn Taymiyyeh) on the 'Merits' of Jerusalem and Palestine", by Charles D. Matthews, *Journal of the American Oriental Society*, volume 56 (1935), pp. 1–21. [Includes Arabic text of manuscript of Ibn Taymiyya's short work *Qa'ida fi Ziyarat Bayt-il-Maqdis*. قاعدة في زيارة بيت المقدس.

Digitized by Birzeit University Library

وبنفس المعنى يجري استخدام ابن قيم الجوزية (ت 1350م)، تلميذ ابن تيمية، الذي قطع شوطا إضافيا، واعتبر بأن فضائل بيت المقدس عبارة عن دعاية لمواجهة الصليبيين. ولا أحد يمكن أن ينكر بأن فضائل بيت المقدس قد استعملت، كما تستعمل اليوم، في الدعاية لتجميع القوى وحشدها في سبيل تحرير بيت المقدس، لكن هذا الاستخدام أو حتى «سوء الاستخدام» لا ينفي القدسية ولا المكانة. ومن المفيد هنا الإشارة إلى حقيقة مفادها، بأن فضائل بيت المقدس وكتبها قد سبقت الاحتلال الصليبي لبيت المقدس بقرون، لذلك لا يمكن فهم نشوء وتطور فضائل بيت المقدس بخلفية الصراع مع الصليبيين، بالرغم من عدم إنكارنا أبدا بأنها قد استخدمت بشكل واسع لهذا الغرض أيضا، وازداد عدد الكتب التي ظهرت، لكن هذه الظاهرة قد استمرت بالتصاعد خلال القرون التالية، خاصة خلال الفترتين المملوكية والعثمانية، حين انحسر الخطر الصليبي كليا، فإن كانت فضائل بيت المقدس قد ارتبطت بالحملات الصليبية والدعاية لتحرير القدس منهم، فما هو مبرر تضاعف ظهورها بشكل كبير في الفترة المملوكية، حيث لم يعد هناك ضرورة أصلا لإعادة تحصين القدس.

وتستمر حملة الاقتباسات من كتاب مسلمين معاصرين للتدليل على تدني مكانة القدس في الإسلام، فمثلا يتم اقتباس محمد أبو زيد الذي كتب كتابا سنة 1930 في مصر، ومنع من التداول. ويشير أبو زيد إلى أن رحلة الإسراء والمعراج لم تتم من مكة إلى القدس بل من مكة إلى المسجد الأقصى الذي يقع في أقصى المدينة المنورة، وليس للقدس أية علاقة بالموضوع. ولا أحد يستطيع إنكار وجود مثل هذه الأفكار حتى في صدر الإسلام، لكنها لم

Digitized by Birzeit University Library

تتحول إلى موقف جاد لا في صدر الإسلام ولا بعده. ولا يكفي مستخدمي أبو زيد تراثا إسلاميا متراكما استمر مدة أربعة عشر قرن من الزمن لإثبات صلابة هذه العلاقة، وصلابة تحديد أن المسجد الأقصى يقع في بيت المقدس وليس في طرف المدينة المنورة، وأن لا أحد ينكر على الإطلاق بأن تحديد المسجد الأقصى قد تم في صدر الإسلام، أي خلال الفترة القريبة من النص القرآني وليس بعدها بقرون[1]. ومن المثير للسخرية، أن تحديد الأماكن بموجب التراث التوراتي قد تم بعد ثلاثة آلاف سنة، وهذا طبعا لا تشوبه شائبة، أما تحديد الأماكن في التراث الإسلامي في النصف الأول للقرن الهجري الأول، بالتأكيد قد تعرض للتزوير. أي منطق هذا؟

وختاما، يجري نسب اقتباس للرئيس الليبي الراحل معمر القذافي، الذي صرح في القمة العربية في آذار عام 2001 «فليذهب الأقصى إلى الجحيم» وأضاف «إنه مجرد مسجد وأستطيع الصلاة في أي مكان». طبعا ليس أكيدا أن معمر القذافي قد قال هذه الأقوال، ولنفترض جدلا بأنه قالها فعلا فما دلالة ذلك، ومن يقتبس معمر القذافي ويأخذ كلامه على محمل الجد في قضايا لها علاقة بالفقه وقدسية المسجد الأقصى، ومن المستغرب جدا أن يصبح القذافي فجأة مرجعية دينية ومرجعية لقدسية بيت المقدس حتى يتم الاحتجاج به. يترك آلاف العلماء والمؤرخين من العرب والعجم من المشرق والمغرب، ويتم اقتباس معمر القذافي (طبعا مع الاحترام).

ومن أكثر الأمور التي تم تلقفها من قبل المؤلفين الإسرائيليين واليهود، تلك الكتب التي تخصصت بفضائل بيت المقدس، حيث نجد أن أكثر من كتب حول هذا الموضوع هم الإسرائيليون إلى جانب المستشرقين اليهود في

(1) لقد اتفق علماء التفسير أن اصطلاح «أدنى الأرض» الوارد في القرآن الكريم (سورة الروم) يعني أطراف بلاد الشام، فكيف يمكن أن يتم فهم اصطلاح «الأقصى» في طرف المدينة المنورة.

Digitized by Birzeit University Library

الغرب. وقد تم تناول هذه الكتب من عدة زوايا هدفت بالأساس المس بقدسية القدس عند المسلمين.

ومن الأمور المثيرة التي جرى نقاشها مسألة تأخر الكتابة المتخصصة بفضائل بيت المقدس[1]. لقد استخدمت هذه القضية في إثبات أن قدسية القدس في الإسلام لم تبدأ إلا في فترات لاحقة، وبالتالي فقد تأخرت الكتابات بسبب عدم وجود قدسية للقدس أصلا، وأن القدسية قد اختلقت في وقت متأخر، خاصة في الفترة الأموية، لحاجات سياسية لها علاقة بالصراع مع الزبيريين. ويقول كستر (Kister)[2]، أحد أعمدة الاستشراق الأساسيين في إسرائيل تربع على هذا التخصص لعقود، أنه كانت اتجاهات لدى فقهاء المسلمين لتأكيد وتعظيم قدسية مكة والمدينة والتقليل من قدسية بيت المقدس، وفي الحقيقة لا يمكن إنكار مثل هذا التوجه لدى بعض الفقهاء حين جرت مبالغات في قدسية القدس لتصل حد اعتبارها «محجا» وليس «مزارا». ويكفي أن نستذكر ما قاله الفرزدق لمعرفة سبب التوجهات المذكورة:

وبيتان بيت الله نحن حماته وبيت بأعلى إيلياء مشرف

(1) هناك كثافة مميزة بعدد هذه الكتب التي تخصصت في فضائل بيت المقدس، وقد تضم في ثنايا فضائل الخليل وقد تتسع لتشمل فضائل الشام ككل، لقد وصل عدد الكتب التي نعرف أسماؤها إلى أكثر من 45 مؤلفا، وصلنا عدد كبير منها، وسيكشف المستقبل المزيد من هذه المؤلفات. إن هذا يعني أن للقدس مكانة قدسية مميزة حتى تستقطب هذا الكم الكبير من المؤلفات. ولا يمكن الارتكان إلى النقاش الذي دار حول ارتباط ظهور هذه المؤلفات وسقوط القدس بيد الصليبيين، هكذا ادعى البعض، خاصة من المستشرقين الإسرائيليين، إلى حين اكتشاف بعض المؤلفات المتخصصة والتي تعود إلى ما قبل الفترة الصليبية. لمزيد من التفاصيل أنظر: كامل العسلي، **مخطوطات فضائل بيت المقدس**، عمان، 1981. كذلك محمود إبراهيم، **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة**، الكويت، 1985.

(2) M. J. Kister, "You shall only set out for three Mosques. A Study of an Early Tradition", *Le Museon*, LXXXII, Louvian, 1969, pp. 178-191.

Digitized by Birzeit University Library

وبالتأكيد يمكن إحالة مجموعة من النقاشات التي دارت بين الفقهاء في صدر الإسلام إلى تأكيد قدسية كل المدن المذكورة وإعطاء كل مدينة حقها. وبالرغم من هذا، فإن كستر كان مضطرا إلى الاعتراف بأن أحاديث فضائل بيت المقدس كانت معروفة جدا منذ بداية القرن الثاني الهجري، وأن الكثير منها قد استعملت في تفسير مقاتل (ت 150هـ). على أية حال، يتوصل كستر إلى أن غالبية أحاديث فضائل بيت المقدس قد ظهرت في النصف الثاني من القرن الهجري الأول، وهذا لا يخرجها من الإطار العام الذي افترض بأن هذه الأحاديث قد «صنعت» في خضم الصراع بين الأمويين والزبيريين، وبالتالي في سبيل إعلاء شأن بيت المقدس الأموية في مواجهة مكة الزبيرية.

وفي هذا السياق، يتم تجاهل العدد الكبير من الكتب غير المتخصصة بالقدس وفضائلها، التي ذكرت الكثير من فضائل بيت المقدس، نورد بعضها هنا للتذكر فقط:

- كتاب فتوح الشام للواقدي (ت 207هـ)
- تاريخ اليعقوبي وكتاب جغرافية اليعقوبي (ت 284هـ)
- كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة (ت 276هـ)
- فتوح البلدان للبلاذري (ت حوالي 297 هـ)
- تاريخ الطبري وتفسير الطبري (ت 310هـ)

القائمة طويلة وتضم أكثر من ثلاثين كتابا، وكلها تقدم قدسية القدس بطريقة أو بأخرى، وهي بواكير الكتب الإسلامية التي وصلتنا، وقد ظهرت جميعها قبل ظهور كتاب الواسطي المتخصص بفضائل بيت المقدس، والذي قام بجمعه من الكتب المذكورة أعلاه، هذا عدا عن وجود معلومات كثيرة حول بيت المقدس في كتب التفسير والحديث. وبالتالي إن تأخرت الكتب

Digitized by Birzeit University Library

المتخصصة بالفضائل إلى القرن الخامس الهجري، فإن مرويات الفضائل نفسها كانت معروفة ومنتشرة بشكل واسع بين المسلمين قبل ذلك بوقت طويل.

وقام المستشرق الإسرائيلي اسحق حسون بتحقيق كتاب فضائل البيت المقدس، الذي ألفه أبو بكر محمد بن أحمد الواسطي، كما قام بوضع مقدمة مطولة له عالج فيها مسألة قدسية بيت المقدس من خلال كتب الفضائل، ونشره ضمن منشورات الجامعة العبرية سنة 1979. ويقول حسون بأنه لم يكن على قدسية القدس إجماع بين المسلمين، إلا منذ مطلع القرن الثاني الهجري، كما لم يتفق المسلمون على موقع المسجد الأقصى، كما يقدم حججا من قبيل أن بعض الشيعة لا ترى قدسية للقدس، ويتفق مع سابقه بأن قدسية القدس قد تم تصنيعها في المعامل الدعاوية الأموية لأسباب سياسية، وجل هذه القدسية قد نقلت عن أهل الكتاب.

ويناقش حسون تأخر كتب الفضائل (كتب الواسطي فضائله سنة 410هـ) بعد ظهورها في كثير من المدن، بالرغم من وجود أحاديث فضائل بيت المقدس منذ بداية القرن الثاني، ويعزو ذلك إلى النقاش الذي دار بين العلماء حول قدسية القدس. وبالضرورة، لو كان هذا الأمر صحيحا، لظهرت هذه المؤلفات بشكل مبكر، حيث أن احتدام الخلاف مدعاة للتأليف وليس لعدمه، حيث سيحتج كل طرف بمجموعة من الحجج، والتي ستظهر على شكل كتب أو رسائل[1].

كما يقدم حسون سببا إضافيا، وهو تضاؤل أهمية القدس بسقوط بني أمية وانتقال دار الخلافة إلى بغداد، وهذا موقف يجمع عليه مستشرقي إسرائيل، من منطلق تقليل أهمية القدس وإن كانت هناك أهمية، فهي موسمية سياسية

(1) أنظر أبو محمد بن أحمد الواسطي، فضائل بيت المقدس، دراسة وتحقيق أ. حسون، القدس، دار ماغنس، 1979. (خاصة المقدمة).

Digitized by Birzeit University Library

تنتهي بانتهاء الحاجة السياسية، لكنهم وفي نفس الوقت ينفون أهمية القدس السياسية للعرب والمسلمين. وما لم يقله حسون بأن خلفاء بني العباس قد استمروا باهتمامهم بترميم قبة الصخرة والمسجد الأقصى، حين تضررا بسبب الزلازل أكثر من مرة وفي كل مرة كانوا يعيدوه على أحسن مما كان، ومازالت النقوش الكتابية موجودة في المسجد تدل على ذلك، كما قام كثير من خلفاء بني العباس بزيارة بيت المقدس، فإن ابتعدت القدس عن مركز دار الخلافة، فلا يعني هذا أن قدسيتها قد تضاءلت، وإلا فكيف يمكن تفسير ارتباط المغاربة والأندلسيون بالقدس بشكل مميز بالرغم من بعدهم الهائل من ناحية جغرافية عن القدس، وهو البعد الذي يزيد كثيرا عن بعد بغداد عن بيت المقدس، كما من المفيد التذكر بأنه لا توجد حواجز طبيعية بين بغداد والقدس؟

ومن الطريف ذكر ما قاله مانويل سيفان حول تدني الأهمية الدينية لبيت المقدس هو نقل قرني كبش إبراهيم وتاج كسرى من الصخرة في القدس إلى الكعبة، وذلك بعد سقوط بيت المقدس بيد العباسيين وعدم اعترافهم بقدسية القدس. طبعا هذا أمر يدعوا للضحك والسخرية، اعتقاد أستاذ جامعي على درجة كبيرة من الأهمية، ويعتبر من أهم علماء إسرائيل ومرجعيتها الأساسية حول الإسلام بما فيها الحركات الإسلامية المعاصرة، أن يؤمن بمثل هذه الخرافات ويستعملها كحجة في معرض تقليله من أهمية القدس. فمن المفترض أن سيدنا إبراهيم قد عاش في القرن السابع عشر قبل الميلاد، فإن تمت عملية النقل هذه في الفترة العباسية (أي حوالي العام 750م) فيكون قد مضى على القرنين أكثر من 2400 سنة[1]. ويدل هذا على عدم الترفع عن استخدام

(1) قدم العديد من أصحاب كتب الفضائل الرد العقلاني على سيفان قبل ثمانية قرون، حيث ذكروا بأن هذه القصة هي مجرد أسطورة ليس للواقع علاقة بها وليس للعقل البشري أن يؤمن بمثل هذه الأساطير، ومن هؤلاء الكتاب عبد الله بن هشام الأنصاري (ت 761هـ)، في كتابه تحصيل الأنس لزائر القدس، الذي نشر مختارات منه محمود إبراهيم في كتابه فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، الكويت 1985، ص 322-327، أنظر بشكل خاص ص 326.

Digitized by Birzeit University Library

أية حجة كانت، حتى لو لم يقبلها العقل السوي، وذلك للوصول إلى نتيجة مفادها أن القدس غير هامة للمسلمين، وبالتالي ليس للمسلمين حقوقا فيها، فهي حلال زلال لليهود. وبالطبع سبق وناقشنا مسألة قدسية بيت المقدس لدى العباسيين، فلا داعي للخوض فيها من جديد.

وينسب حسون إلى معاوية اختلاقه نظرية أن القدس هي أرض المحشر والمنشر. ويستدل على ذلك بوصية أبو عبيدة عامر بن الجراح الذي أوصى بأن يدفن في بيت المقدس، ولكنه سرعان ما غيرها وطلب دفنه حيث يأتي أجله، ما يعني أن القدس ليست أرض المحشر. والحقيقة أن أبو عبيدة خاف أن تجري سنة بين المسلمين بنقل موتاهم ليدفنوا في القدس، فعدل عن وصيته، والتزم بالقاعدة الإسلامية بأن «كرامة الميت دفنه» السريع، وأن النقل من مكان إلى آخر يؤجل الدفن. وكغيره ممن تعاملوا مع موضوعة الفضائل، احتج حسون بإبن تيمية «قاعدة في زيارة بيت المقدس»، للوصول إلى نتيجة أن بيت المقدس لم تكن على أهمية لدى المسلمين وأن أهميتها لاحقة ونمت مع مرور الوقت[1].

ويدفع مانويل سيفان النقاش حول قدسية القدس باتجاه آخر: «أن القدس لم تحتل في ضمير العالم الإسلامي المكانة التي يمكن أن يخلص إليها المرء من خلال الأحاديث النبوية التي تروى في امتداحها، والتي ترجع إلى القرن الثاني الهجري وما بعده»، ويضيف سيفان «أن قداسة القدس كانت شائعة فقط بين سكان القدس والمنطقة المحيطة بها مباشرة، وقد تتعداها إلى باقي فلسطين وبلاد الشام». إذا هي قدسية محدودة غير متفق عليها وغير

(1) ابو بكر محمد بن أحمد الواسطي: فضائل البيت المقدس، تحقيق إسحاق حسون، معهد الدراسات الأسيوية والإفريقية في الجامعة العبرية، القدس، 1979، وخاصة المقدمة. كذلك أنظر ما كتبه حسون في كتاب:

Symposium: *Muslim Literature in Praise of Jerusalem*, pp. 169-176.

Digitized by Birzeit University Library

معروفة بين عموم المسلمين، وأن الاتفاق على قدسية القدس قد جاءت مع مرور الوقت وبشكل تراكمي، وبدوافع سياسية محضة، ليس للعقيدة الإسلامية أي دور فيها. ويتابع سيفان نظرية عدم قدسية القدس للمسلمين حين يدعي بأنه لم يكن هناك ردة فعل إسلامية واسعة على سقوط القدس بيد الصليبيين، فلو كانت تتمتع بالمكانة التي يدعى أنها موجودة، لهب المسلمون في كل بقاع الأرض لتحرير القدس، وهي فكرة أعاد إنتاجها برنارد لويس فيما بعد، كما ذكرنا أعلاه.

إن قدرة سيفان على فهم التاريخ بصورته الشمولية تتوقف عند القدس، فلم يرى تشرذم العالم الإسلامي وانهماكه بالصراعات الداخلية كسبب كامن وراء سقوط القدس بيد الصليبيين، وبالتالي عدم قدرتهم محاربة الفرنجة، وليس عدم أهمية المدينة لهم وقلة قدسيتها عندهم. لا أراه يجرؤ على المس بقدسية القدس عند المسيحيين حيث لم يهبوا للدفاع عن المدينة في وجه المسلمين مثلا عندما سقطت بيد المسلمين في القرن السابع الميلادي. طبعا غني عن القول بأن كتب التاريخ والأدب العربي في القرن الثاني عشر مليئة بردات الفعل حول سقوط القدس بيد الصليبيين، كما هي مليئة بوصف الصدمة التي أصابت العالم الإسلامي بخبر سقوط القدس[1]. وليس من التوقع منه تتبع الجهود الفاطمية لاسترداد بيت المقدس. كما لم يتطرق إلى الاحتفالات التي اجتاحت العالم الإسلامي في كل عواصمه بوصول خبر تحرير القدس على يدي صلاح الدين الأيوبي عام 1187م، فلو لم يتأثروا بسقوطها بيد الفرنجة، فلماذا يحتفلون بتحيررها إذا؟

ومن المثير فعلا اكتشاف هذا الشغف الشديد والمنقطع النظير للاستشراق الإسرائيلي بأدب فضائل بيت المقدس، حيث استعمل وبشكل

(1) Emanuel Sivan, "The Beginning of the Fada'l al-Quds Literature", in *Israel Oriental Literature*, 1971, pp. 263 ff.

Digitized by Birzeit University Library

يدعوا إلى السخرية في سبيل التشكيك في صدقية قدسية بيت القدس لدى المسلمين[1]، وكأن هذا التشكيك سيغير رأي المسلمين من جهة ويزيد من احتكار قدسيتها لليهود.

إن استعراض هذه النماذج، على سبيل المثال لا الحصر، والأمثلة في حقيقة الأمر كثيرة، ولا مجال هنا لتتبعها جميعا، لأنه لم يتبقى إسرائيلي متخصص في الدراسات الإسلامية إلا وقد كتب في ذلك، علاوة على المستشرقين اليهود في الجامعات الأوروبية والأمريكية، وتتفق جميع دراساتهم تقريبا، وبدون استثناء، على هامشية القدس في صدر الإسلام، وتصل إلى نتائج مشتركة إلى حد بعيد، يمكن تلخيصها بما يلي:

1. ظهرت قدسية القدس في الإسلام في بداية القرن الهجري الثاني، أي في الفترة الأموية، وأخذت تنمو تدريجيا وتتغذى بالأحاديث والروايات المختلقة والمفبركة، وبهذا أوجدت حالة وهالة من القدسية حول المدينة، تم تطويرها بوعي تام وبشكل تدريجي، وأنّ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد بني قبة الصخرة ليصرف أنظار المسلمين عن الكعبة، وذلك بسبب ثورة ابن الزبير، وأنّ بناءه لقبة الصخرة المشرفة جاء ليكون مبنى يحجّ إليه المسلمون ينافس أو كبديل للكعبة لأنها كانت آنذاك تحت سيطرة عبد الله بن الزبير، ولأنّ عبد الملك لم يردْ أنْ يحجّ رعاياه إلى منطقة التمرد، وأنه قد منع الأمويين من أداء الحج في مكة، وقد قال بذلك بشكل خاص وجولد زيهر.

2. بسبب عدم قدسية القدس في الإسلام، تأخر ظهور كتب فضائل بيت المقدس. ويمكن القول بأن التأخر في ظهور هذه المؤلفات يعود

(1) نظر على سبيل المثال عيسى القدومي، «فضائل بيت المقدس ... وشغف الباحثين اليهود» على الرابط: http://www.aqsaonline.org/news.aspx?id=3498

Digitized by Birzeit University Library

الى عدم إجماع المسلمين على قدسيتها، بل لقد وصل الاختلاف بين العلماء حد التصارع، وبالتالي لم تتوفر الظروف المناسبة للكتابة حول فضائل القدس. علاوة على ذلك، يفسر التأخر في ظهور الكتابات المستقلة حول القدس بسبب عدم الاهتمام العباسي بالقدس وانتقال دار الخلافة إلى بغداد، فلم تعد القدس هامة كما كانت عليه في الفترة الأموية. وباختصار فإن صناعة قدسية القدس قد بدأت على يد بني أمية، وذلك في معرض تصارعهم مع الزبيريين، فأرادوا أن تكون لهم مدينة مقدسة ومنافسة بالقرب من دار خلافتهم تساعدهم في إضفاء الشرعية على حكمهم، لذلك اتجهوا الى أخذ البيعة في القدس، كما شجعوا على الحج الى بيت المقدس بدلا من مكة، وأنشئوا قبة الصخرة لتكون بديلا للكعبة، وجعلوا حولها ساحة واسعة تتيح المجال للطواف حولها، ولممارسة باقي طقوس الحج في القدس.

3. وعليه، فإن فضائل بيت المقدس، وإن كانت قد ظهرت قبل ذلك، هي مقولات سياسية نمت حين سقطت القدس بيد الصليبيين، وكان هدفها حث المسلمين على تحرير بيت المقدس، وتزيد قدسية القدس كلما وقعت بالأسر وسعى المسلمون لتحريرها، لذلك فقدسيتها ليست جزءا من العقيدة، بل هي قدسية سياسية دعاوية.

4. أن المسجد الأقصى المذكور في سورة الإسراء يقع في طرف المدينة المنورة وليس له علاقة بالقدس، بل وأن معجزة الإسراء والمعراج هي مجرد رؤيا. وهناك تفسير آخر للمسجد الأقصى وهو أنّ المسجد الأقصى «الذي باركنا حوله»، هو في السماء وليس في الأرض، وأنّ كلمة الأقصى تفيد أنّه مصلى سماوي، أي القدس العليا، البعد الزماني المعلق، أو أن الأقصى مكان آخر في المدينة.

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

5. أن القدس لم تذكر في القرآن الكريم ولا لمرة واحدة، وأن التفسيرات التي ربطت القدس بالقرآن الكريم هي اختراعات لاحقة مثل «فضرب بينهم بسور له باب. باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبلة العذاب» (سورة الحديد، الآية 13)، قال المفسرون بأن السور المذكور هو سور بيت المقدس. وكذلك الآية «فإذا هم بالساهرة» (سورة النازعات، الآية 14)، والساهرة هي الأرض المنبسطة نسبيا والتي تقع إلى الشمال من القدس القديمة. ومثال ذلك أيضا ما ورد في الآية «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه» (سورة النور، الآية 36)، فقال المفسرون بأنها بيت المقدس. ويذكر بأن تفسير هذه الآيات على النحو المذكور هو تفسير مبكر، وصلنا من أقدم التفاسير القرآنية التي وصلتنا والمنسوبة إلى مقاتل بن سليمان، مما يعني بأن الربط بين هذه الآيات والقدس هو ربط مبكر جدا، ولا يعقل ان تكون من نتائج أعمال بني أمية.

6. أن مصدر غالبية الفضائل هو الإسرائيليات، والتي تشمل العهد القديم والجديد والتلمود والمشناة وكتب التفسير التوراتية المختلفة، ولذلك تنسب الكثير من فضائل بيت المقدس إلى كل من كعب الأحبار ووهب من منبه، وكلاهما كان يهوديا وأسلم ونقل القصص والإسرائيليات إلى التراث الإسلامي. وبالتالي، فإن قداسة بيت المقدس مصطنعة وأنّ الهالة القدسية التي تعاظمت لبيت المقدس ولفلسطين كانت بسبب الموروثات الإسرائيلية والمسيحية حول بيت المقدس. وعليه فإن الأحاديث التي رُوِيت في فضائل بيت المقدس وجدت في فترة متأخرة وبالتحديد في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وأنّ جلّ الأحاديث هذه هي من اختلاق محمد بن شهاب الزهري.

Digitized by Birzeit University Library

7. أن الشيعة لم تقبل قدسية القدس كما عرفها أهل السنة. بالطبع فهذا ادعاء لا يقبله سوى عدم المطلع على التراث الشيعي، ولا على أعمال الفاطميين في المسجد الأقصى وقبة الصخرة. من الهام التذكير هنا أن بعض الشيعة قد ذهب باتجاه ربط بيت المقدس بالمهدي المنتظر. صحيح جدا أن لبعض الشيعة تصنيفات للعتبات المقدسة مرتبطة بالأئمة، لكنهم يجمعون على قدسية بيت المقدس.

ومن المحاور الهامة التي جرى العمل عليها، تلك التي تشكل صلب الرواية الإسلامية حول القدس، ومنها على سبيل المثال أهمية الفتح العمري في تراث القدس الإسلامي، فقد جرى الطعن والتشكيك به بأشكال مختلفة، ويمكن النظر إلى أكاديميين إسرائيليين مشهورين جدا في عالم الاستشراق ولهما إسهاماتهما المميزة في هذا الميدان، وقد قاما بالتأسيس لهذه المسألة، الأول شموئيل جويتين (Goitein) والثاني هربرت بوسيه (Busse)، وقد استثمرا مساحة واسعة من أعمالهما في هذه القضية. يعتقد كلاهما، كل بطريقته الخاصة، بأن الروايات التي تتحدث عن زيارة عمر بن الخطاب إلى القدس هي روايات تفتقد إلى الصدقية، وتهدف في حقيقة الأمر إلى رفع وتعزيز مكانة القدس بأعين المسلمين، حيث تحول هذه الروايات فتح بيت المقدس إلى حدث مركزي بالرغم من هامشيته، حيث تهدف أيضا إلى تصوير عظمة وتواضع عمر بن الخطاب، هذا الخليفة المركزي في التاريخ الإسلامي والذي يعتبر مرجعية هامة، يخرج من المدينة المنورة إلى القدس لاستلام مفاتيح استسلامها، وخروجه هذا هو من باب التقدير والتقديس للمدينة، وبالتالي إن كانت هذه الروايات صحيحة ودقيقة، فهذا يعني أن للقدس مكانة مميزة في عقائد المسلمين، وبالتالي فإن إسقاط الصدقية عنها هو بالتالي إسقاط القدسية الإسلامية عن القدس.

Digitized by Birzeit University Library

ويذهب بوسيه إلى القول بأن قصة الفتح تذكره بأصولها الموجودة في الإسرائيليات، وذلك في كتاب التفسير التوراتي المعروف بالمدراش، حيث يذكر المدراش بأن «أورشليم لن تذعن إلا لملك»، وعمر بن الخطاب في هذه الحالة هو «الملك»، وبالتالي لا يمكن أن تستسلم القدس إلى قادة الجند ولا حتى إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح الذي حاصر المدينة، وهكذا كان على عمر القدوم إلى القدس لاستلام مفاتيحها من البطريرك صفرونيوس، فالقصة بهذا تكون ليست مستوحاة فقط من المدراش، بل مختلقة تماما وتنتمي إلى أدب الإسرائيليات، وليس لها أي أساس تاريخي، بل عبارة عن فبركة إضافية لاضفاء قدسية على القدس.

ويذهبا في تفسير الروايات الإسلامية المتعلقة بالفتح العمري مذاهب شتى، منها أن الزيارة العمرية هي مجرد أسطورة إضافية من أساطير المؤرخين المسلمين، والتي جاءت ضمن إطار منظم وموضوع بشكل مسبق لاستلاب قدسية المدينة من اليهود والمسيحيين، وبالتأكيد خاصة من المسيحيين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمي من سكان القدس قبل الفتح الإسلامي وبعده. وينسى تماما أن الرواية تتضمن أيضا العهدة العمرية التي تؤكد على قدسية القدس بالنسبة للمسيحية وحماية حقوق المسيحيين بالقدس حتى بشكل مبالغ فيه تتجاوز كل العهد التي أعطيت للمدن التي جرى فتحها على يد الفاتحين العرب، كما تحتوي الرواية على قصة رفض عمر الصلاة في كنيسة القيامة حفاظا على الحقوق المسيحية فيها. إذا والحال كذلك، الرواية لم تختلق لتهميش علاقة المسيحيين في القدس، فالرواية تلعب دورا مغايرا كليا لا يتوافق والنتائج التي أراد «مختلقي» الرواية التوصل إليها، على حد زعمهم، فالعهدة العمرية تشكل إعترافا إسلاميا مبالغ فيه بقدسية القدس للمسيحيين.

Digitized by Birzeit University Library

وحين لم يستطع بوسيه إنكار ذكر زيارة عمر إلى القدس، حيث وردت في مصادر غير إسلامية، مثل السريانية واليونانية، فقد افترض خطأ المؤرخين العرب وغير العرب، أي أجمع الجميع بدون استثناء على الخلط بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص، وأن الأمر إلتبس عليهم جميعا، وأن الفاتح الحقيقي للقدس ليس عمر بن الخطاب، طبعا لما يمثله من رمزية، بل هو عمرو بن العاص[1]. وبالتالي، من استلم مفاتيح بيت المقدس من بطريركها صفرونيوس هو عمرو بن العاص، ومن أصدر العهدة العمرية الشهيرة التي تنظم علاقة مسيحي القدس بالسلطة العربية الإسلامية هو عمرو بن العاص، وليس للفاروق أي علاقة بالأمر.

وبعد كل المداولات المذكورة أعلاه، والتي عقد لأجلها مؤتمر في الجامعة العبرية، حدث ما لا يحمد عقباه وقلب الكثير من المفاهيم التي جرى تسويقها بكل لغات العالم الحية رأسا على عقب، فقد شكل اكتشاف دار الإمارة الأموية إلى الجنوب والجنوب الغربي من الحرم الشريف إشكالية كبيرة للصورة النمطية الموضوعة مسبقا لتاريخ القدس، فالقدس ليس لها دور هام لا في السياسة ولا في الإدارة، هكذا أرادت لها الأكاديميات الإسرائيلية أن تكون، لكن اكتشاف هذا الكم من القصور الأموية بملاصقة المسجد الأقصى قد فجر إشكالية كبيرة، تعارضت وكميات كبيرة من الكتابات الإسرائيلية، بل وأحرجتها وكشفت عن نواياها.

(1) حول مواقف الاثنين، أنظر:
S. Goitein, "al-Kuds", in *Encyclopedia of Islam* (New Ed.); "Jerusalem in the Arab Period (638-1099)", in *The Jerusalem Catheadra*, 2 (1982), pp. 168-196.; H. Busse, "Omar's Image as the Conqueror of Jerusalem", in *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 8 (1986), pp. 149-168.

Digitized by Birzeit University Library

لم نكن نعرف بهذه القصور من خلال المصادر الكتابية[1]، وما كان معروف حولها من معلومات لا يشكل فكرة ولو أولية عن حجمها وأبهتها ومكانتها. لكن كان من المعروف الاهتمام المميز لبني أمية بالقدس، والدلالة على ذلك قدمها الحرم الشريف بامتياز، هذا عدا عن فترات الإقامة الطويلة لغالبية خلفاء وأمراء بنو أمية في القدس، وأخذ معاوية بيعته فيها وكذلك فعل لولي عهده، وبالتالي تأسيس الخلافة الأموية في القدس، وهي عادة سار عليها من بعده عدد من خلفاء بني أمية. ولكن قبل الدخول في توصيف المسألة، لا بد من مراجعة مواقف المؤرخين الإسرائيليين حولها.

يقول سيفان، الذي سبق ذكره، بأنه لم يكن للقدس أية أهمية في صدر الإسلام، وأنها لم تكن عاصمة لفلسطين في هذه المرحلة[2]، وهو الموقف الرسمي والذي عبر عنه غالبية ممثلي التيار المركزي في كتابة التاريخ في إسرائيل وخارجها من أصحاب هذا التيار، صحيح بأن بعضهم قد اضطر إلى إعادة تركيب موقفه من جديد توافقا مع المكتشفات، خاصة وأن الأمر قد وصل إلى اكتشاف مسكوكات أموية (وحتى تعود إلى قبل ذلك) ضربت بالقدس، فاتجهت المواقف باتجاه «قد» يكون العرب «قد» خططوا لتحويل القدس إلى مركز إداري، وسرعان ما اكتشفوا أن بيئتها

---

(1) لم يكتب كثيرا حول هذه القصور، وما كتب حولها غير كاف نظرا للأهمية غير الاعتيادية لهذه الكشوفات، حول الاكتشاف ووصفها، أنظر:

Ben-Dov, M., *The Omayyad Structures near the Temple Mount*. Jerusalem, 1971; Ben-Dov, M., *In the Shadow of the Temple. The Discovery of Ancient Jerusalem*, Harper and Row, New York (1985); Ben-Dov, M., "The Area South of the Temple Mount in the Early Islamic Period" in *Jerusalem Revealed*, ed. Yadin, Y., Israel Exploration Society, Jerusalem (1975) 97-101; Mazar, B., "The Archaeological Excavations near the Temple Mount", in *Jerusalem Revealed*, ed. Yadin, Y., Jerusalem (1975) 25-40.

(2) E. Sivan, "The Sanctity of Jerusalem in Islam" in *Notes and Studies on the History of the Holy Land under Islamic Rule* (in Hebrew), pp. 35ff.

Digitized by Birzeit University Library

غير إسلامية، أي مليئة بالمسيحيين»[1]، وهي بعيدة عن خطوط المواصلات الرئيسة، فهي «قد» لا تصلح، و«قد» تخلق إشكالية، لذلك أنشئوا الرملة كعاصمة لفلسطين[2]. إن هذا الاستدراك في الموقف لم يبلغ مستوى التفسير المنطقي لهذه القصور الضخمة، والتي في حقيقة الأمر، قد تجاوزت بكثير حجم وعدد القصور الأموية حتى في دمشق عاصمة الخلافة، وأن المكانة الدينية للقدس لوحدها لا يمكن أن تفسر هذه الرموز الدنيوية السياسية، والتي تشير إلى مكانة «**عاصمة الأمر الواقع**»، ولو إلى حين، فلا أحد يدعي بأن هذه المكانة السياسية قد استمرت خلال الفترة العباسية، بل بالتأكيد اقتصرت على الفترة الأموية برمتها، مع مرورها بأوقات ذهبية خلال فترة حكم المروانيين[3]. وعودة إلى تأسيس مدينة الرملة على يد سليمان بن عبد الملك، فقد تم ذلك في نهاية القرن الهجري الأول، وجاء على حساب مدينة اللد وليس على حساب مدينة القدس، وأن بناء القصور في القدس قد سبق الرملة بعدة عقود، صحيح بأن سليمان بن عبد الملك قد عبر عن نيته نقل عاصمة فلسطين أو عاصمة الخلافة إلى القدس، لكنه عدل عن ذلك وبنى الرملة، لكن الموضوع هنا ليس عاصمة جند فلسطين، هذه القصور أكبر بكثير من حاجة جند فلسطين، إنها قصور تعبر عن حاجة الدولة المركزية

---

(1) وكأن بيئة دمشق في صدر الإسلام لم تكن مسيحية، وأن مسيحية دمشق لم تمنع بني أمية من تأسيس عاصمتهم فيها، كما أن البعد العربي، بشقية الإسلامي والمسيحي، في كل من دمشق والقدس قد جرى تجاهله تماما. لقد كان غالبية سكان المدينتين من العرب وبغض النظر عن ديانتهم.

(2) انظر على سبيل المثال ما كتبه جوايتين في عدة مقالات، منها مقالته في الموسوعة الإسلامية، كذلك مداولاته المطولة حول الموضوع في مقالته:
S.D. Goitein, Jerusalem during the Arab Period," in *Jerusalem since the Period of the Second Temple to the Modern Times* (in Hebrew), pp. 50-70.

(3) يقدم خليل عثامنة مراجعة هامة بخصوص المكانة السياسية لبيت المقدس في صدر الإسلام، وهي الأهم بهذا الخصوص، أنظر كتابه: **فلسطين في خمسة قرون، من الفتح الإسلامي حتى الغزو الفرنجي (634–1099)**، بيروت، 2000، ص 209 وما بعدها.

Digitized by Birzeit University Library

ككل، بمعنى أن لا أحد يدعي بأن القدس قد كانت عاصمة لخلافة بني أمية، فالعاصمة واضحة ولم تتغير وهي دمشق، لكن القدس كانت مستقرا محببا لبني أمية، طالما أطالوا فيها البقاء.

كان الانزعاج الإسرائيلي الرسمي والأكاديمي كبيرا من اكتشاف دار الإمارة، نظرا لما تمثله من إلغاء لنظرياتهم التاريخية، وبالتالي تفاوتت المواقف منها من خطأ بالتأريخ أولا، واعتبارها قلاع رومانية، وحين فشلت هذه المحاولة حاول بعضهم تجريفها وإزالتها وعدم الإعلان عن اكتشافها أصلا، ففي الوقت الذي فشلت فيه جهود قرن ونصف من الكشف عن آثار الهيكل، يظهر «هيكل سياسي» (عدا عن الديني) إسلامي بهذه الضخامة والأهمية، فقد جرى اكتشاف (حتى العام 2018) ثمانية قصور ضخمة لا يمكن مقارنتها بأي من قصور أموية الأخرى في المدن الإسلامية. وبعد فشل التدمير، أيضا لعوامل إسرائيلية داخلية، فقد جرى تهميش القصور أولا بعدم نشر ما يكفي من المعلومات حولها، وثانيا بهدمها التدريجي من ناحية فيزيائية، وتفتيت مكوناتها المعمارية، خاصة الحجارة الضخمة، والذهاب باتجاه اعتبار هذه الحجارة جزءا مما تبقى من حجارة مباني الهيكل، وأن بني أمية قد أعادوا استخدامها في بناء قصورهم. إذا وبالنتيجة النهائية، فإن ما تبقى من قصور لبني أمية في القدس هو ليس دلالة على نشاطهم واهتمامهم المركزي بالمدينة، وليس دلالة على أهمية القدس الدينية والسياسية، بل هذه القصور دلالة على مباني الهيكل الثاني، هيكل هيرودوس، وبذلك قضي الأمر.

Digitized by Birzeit University Library

3. مباركة «العناية الإلهية» للتطهير العرقي

لا تخلو كتب التاريخ الإسرائيلية، ولا تلك التي تم دعمها بالتراث المسيحي الغربي[1]، الذي يرى نفسه امتدادا للتراث العبري، من المسوغات الإلهية لشرعية وجود الدولة الإسرائيلية. فالقراءة السطحية للعهد القديم تقدم الإطار الأخلاقي الذي حول الاستيطان الصهيوني إلى دولة ترعاها العناية الإلهية وتدعمها بلا حدود، صحيح بأن الكتاب المقدس ليس المصدر الوحيد لهذه الشرعية، لكن امتدادات هذا الكتاب وتأثيره على عدد كبير من سكان الكرة الأرضية يجعل تأثيره لا يضاهي. إن الاستيلاء على الأرض «الموعودة» يستمد شرعيته من الأوامر والإرادة الإلهية، وكذلك الترحيل الجماعي للسكان الفلسطينيين مبرر بعناية ربانية، بل هو تنفيذ لها. وبهذا فقد تم عمليا توظيف الروايات التوراتية كنص تاريخي «حقيقي وموضوعي» يؤيد حق اليهود بأرض فلسطين (ايرتس يسرائيل)، ولم يتم فهم هذه النصوص كأساطير شعبية، كان هدفها تعظيم الماضي من جهة والحكمة والوعظ من جهة ثانية. لقد جرى تدعيم هذه الأساطير باكتشافات أثرية قرأت بطريقة معينة ووظفت للغرض نفسه. ومن المثير اكتشاف أن العلمانيين الصهاينة قد ساهموا بدرجة أكبر من المتدينين بهذه العملية، بغض النظر عن أنهم لا يرون في الكتاب المقدس مرجعا لحقهم في استيطان فلسطين وطرد سكانها منها[2].

يقول ألكسندر شولش: «إن المركب التاريخي الفكري المحدد للاهتمام البريطاني في فلسطين كان فكرة الألفية حول إعادة اليهود (Restoration of the

(1) أنظر مداولاتنا أعلاه حول عالم الآثار الأمريكي ألبرايت.

(2) ألم يفعل يشوع بن نون نفس الشئ تلبية للأوامر الربانية بقتل الشعوب وحرق المدن وتطهيرها من الأغيار وذلك بشكل عنصري، مؤسسا من ناحية المبدأ لفكرة التطهير العرقي وتصنيف الشعوب من يستحق الحياة ومن يستحق الفناء، لمزيد من التفاصيل أنظر سفر يوشع في العهد القديم.

Digitized by Birzeit University Library

Jews)، التي طورتها عقيدة المخلص المنتظر الأنجليكانية والعقيدة الإنجيلية. وفي بداية القرن التاسع عشر كان هذا المذهب جاهزا تام الصياغة، ولم تكد تضاف إليه فكرة واحدة جديدة في الأدب المترامي الأطراف الذي وضع في السنوات المائة التالية. ولذلك فإن تحقيق النبوءات (وليس التنبؤات كما يترجمها المترجم، فاقتضى التصحيح) حول نهاية الزمان كان مرتبطا ارتباطا لا فكاك منه بإعادة اليهود إلى أرض آبائهم، تلك الأرض التي يتمتعون فيها بحق غير قابل للتصرف»[1].

وبالتأكيد، يمكن وصف هذه الحركة المسيانية بحملة صليبية سلمية جديدة، على الأقل من الجانب الأوروبي، وبالتالي جاء مشروع الدولة اليهودية جزءا من المطامع الدينية والثقافية وبالتأكيد السياسية الأوروبية في فلسطين، ويمكن التأكيد بهذا الخصوص على أن فكرة «استرداد فلسطين» كانت استمرارا لفكرة الحملات الصليبية، ولكن هذه المرة بشكل سلمي، على الأقل في بداياتها. ويمكن قراءة هذا بكل اللغات الأوروبية سواء دان أصحابها للبروتستانتية أو للكاثوليكية. وتجلت تعبيرات هذه الحملة الصليبية عبر أعمال الخير، والتبشير، والمدارس، وانتقلت إلى حتى تمويل المشاريع العمرانية وتحسين طرق المواصلات المحلية، وطبعا من ضمنها سكة الحديد بين يافا، الميناء الأساس للحجاج الأوروبيين الصليبيين المسالمين، ومشاريع المياه، والمستشفيات، وحتى دور الأيتام والعجزة. وقد وقفت القدس على رأس الأولويات، حيث سيتم تحرير القبر المقدس بطرق سلمية بعد أن فشلت حملات الحج المسلح في العصور الوسطى[2]. لقد تمخضت

(1) شولش، سبق ذكره، ص 76.

(2) إن وجود بعض المبادرات الغربية بنية حسنة، وهو أمر من الصعب نفيه، لا ينفي أبدا أنها جاءت ضمن سياق إستعمار الشرق الإسلامي.

Digitized by Birzeit University Library

هذه الحملات عن حركة صهيونية ستقوم بالوظيفة المرجو منها، خاصة بعد أن خبى وهيج الصليبية السلمية بسبب التصارع الأوروبي المحموم على فلسطين لوقوعها في مركز المسألة الشرقية، وظهور بوادر الحرب العالمية الأولى، وبالتالي تراجعت هذه الحركات تدريجيا مع بداية القرن العشرين، بعد أن أسست لمرحلة جديدة تمثلت في تفتيت الدولة العثمانية إلى مناطق نفوذ مختلفة، واقتسام ما يمكن اقتسامه من أراضي الدول العثمانية بين الدول الاستعمارية، وإنشاء الدول الإقليمية بنفحات «قومية». لكن تركت هذه الفترة خلفها ثلاثة مكونات أساسية في القدس:

أ. زيادة واضحة في عدد اليهود في المدينة، وذلك من خلال تشجيع المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وانتقال جزء من يهود فلسطين، خاصة من الجليل، إلى استيطان القدس. وبهذا تشكلت أحياء حديثة خاصة باليهود خارج البلدة القديمة تتمتع بقدرات اقتصادية وثقافية غربية، وممولة من حركة صهيونية في أوروبا الغربية بدعم ممن يؤمنون بالحاجة المسيانية لإعادة بناء دولة اليهود، للتحضير لعودة المسيح المنتظر كشرط أساس لهذا الحدوث. كما قامت دول غربية بدعم اليهود في ذلك على اعتبار أنهم من رعاياها.

ب. إنشاء عدد كبير من المؤسسات الخيرية والتبشيرية الأوروبية داخل البلدة القديمة من القدس وخارجها، هذا عدا عن فتح القنصليات لمختلف الدول الأوربية فيها، وتأسيس كنائس وأديرة لمختلف الطوائف والقوميات الأوروبية في القدس، وبالتالي أصبح الوجود الأوروبي الداعم لفكرة نشوء دولة اليهود من الناحية النظرية والعملية، ملموسا وواضحا في فضاء المدينة، وحياتها اليومية، بل شكل حاضنة سياسية ودينية وثقافية، علاوة على المالية.

Digitized by Birzeit University Library

ج. ظهور ظاهرة الكولونيات الغربية (أحياء سكنية واسعة) مختلفة: الكولونية الألمانية[1]، والكولونية اليونانية[2]، والكولونية الأمريكية[3]. وضمن هذا المفهوم يمكن إضافة المسكوبية للروس، ودير ومجمع الأحباش...إلخ وهي عبارة عن أحياء قومية مغلقة (city states) لها هويتها المعمارية والحضارية المستقلة، أو لنقل مدن صغيرة غربية نشأت في أحضان القدس، تحضيرا لقدوم المسيح المنتظر وتمهيدا لطريق عودته إليها. لقد استندت هذه الحركات إلى مخزون ثقافي مسياني ظهر منذ القرن السابع عشر في أوروبا وتجذر تدريجيا، خاصة في الأوساط

(1) أنشأت كجزء من المستعمرات الألمانية (الهيكليين/ Templars)، في أماكن مختلفة من فلسطين، كان أشهرها تلك التي أقيمت على جبل الكرمل (حيفا) وفي سيرونا بالقرب من يافا، وطبعا التي أقيمت في القدس. لقد تم إنشاء 4 مستوطنات بين السنوات 1868 – 1873، وأضيف إليها لاحقا ثلاث مستوطنات إضافية بين السنوات 1902–1907. وكان كل سكانها تقريبا من الألمان القادمين من مقاطعة فوتيمبرغ الواقعة في جنوب غرب ألمانيا بالقرب من مدينة شتوتغارت. انتهى دور حملة الاستيطان هذه بالحرب العالمية الأولى، نظرا لسقوط فلسطين بيد الانجليز أعداء الألمان، فاقتضى الأمر تفكيك مستوطنات الهيكليين الألمان ورحيلهم، ولم يستطيعوا العودة إلى أرض فلسطين بسبب فرض الانتداب البريطاني عليها، كما أن دورهم قد انتهى بقيام دولة إسرائيل، حول الهيكليين الألمان ومستوطناتهم في فلسطين، أنظر

Alex Carmel, *Die Siedlungen der württembergischen Templer in Palästina 1868–1918. Ihre lokalpolitischen und internationalen Probleme*. Kohlhammer, Stuttgart 1973.

(2) تختلف هذه عن سابقتها، بالرغم من قربها منها، فقد أنشأت في بداية القرن العشرين من قبل طائفة الروم الأرثوذكس الفلسطينية، وقد قام المهندس الفلسطيني سبيرو خوري بتصميم أول 20 منزلا فيها، وكذلك تم بناء مركز مجتمعي، وبعد الحرب العالمية الأولى، أي أثناء فترة الانتداب البريطاني، تم إضافة 20 منزلا إضافيا. امتلك غالبية بيوت هذه الكولونية أغنياء من طائفة الروم الأرثوذكس، أنظر

Ruth Krak and Michael Oren-Nordheim, *Jerusalem and Its Environs: Quarters, Neighborhoods, Villages, 1800-1948*, Jerusalem, 2001.

(3) أنشأت في البداية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في البلدة القديمة، ثم انتقلت إلى منطقة تبعد حوالي 2 كم شمال البلدة القديمة في حي الشيخ جراح، حيث حازت على أبنية جميلة تعود إلى عائلة الحسيني، وأصبح أسمها الكولونية الأمريكية، بالرغم من جزءا أساسا من سكانها كانوا من أصول سويدية. حول هذه الكولونية، أنظر

Eric Dinsmore Matsson, *The American Colony of Jerusalem: A Brief Historical Outline*, USA, 1992.

Digitized by Birzeit University Library

الإنجيلية (بريطانيا على سبيل المثال) وتشكلت بناء عليه مجموعة من الحركات، بعضها أخذ الأمر بشكل رمزي، وبعضها الآخر حوله إلى موضوع عملي جرى ممارسته في القرن التاسع عشر على أرض فلسطين.

إذا فالمصوغات الدينية، والتي أثرت في كتابة تاريخ القدس من وجهة نظر إسرائيلية، قد وجدت تراثا فكريا غنيا جدا في الأدب المسيحي المسياني الغربي، وشكل هذا الأدب معينا لم ينضب أمام الحركة الصهيونية، ليس فقط لاستلال مشروعيتها منه، بل أيضا لتجنيد الدعم الغربي لمشروعها على أرض فلسطين، والذي في حقيقة الأمر كان مشروعا غربيا ليس لليهود علاقة به، لكن تنفيذه على يد اليهود قد سهل الأمر، وبهذا تم حل أكثر من مشكلة أوروبية بضربة واحدة.

بما أن «الله» قد قدم فلسطين (أرض كنعان) هدية خالصة «لشعب الله المختار»، فإن وجود إسرائيل ضرورة موضوعية لتجسيد العناية الإلهية، وأن دعم «حق إسرائيل بالوجود» غير خاضعة للمزاجات الفردية ومصالح الدول، والعلاقات الدولية، ولا حتى خاضع لحقوق الإنسان، بل هو حلقة هامة لاستكمال مبنى التاريخ، وبالتالي هو حتمية تاريخية. وفي سبيل تحقيق هذه الحتمية فإن تشريد أهل فلسطين (التطهير العرقي) هو مسالة هامشية، قد تحل بإرضاء الضمير الغربي بإغاثة المنكوبين ببعض القمح والزيت. وبناء على هذا، فإن القدس هي مركز الحدث في الوعد الإلهي.

4. القدس في القرن التاسع عشر

كما ذكرنا أعلاه، اهتم الباحثون الإسرائيليون بهذه الحقبة بشكل غير عادي أبدا، فكتبوا الكتب الكثيرة ومئات المقالات، التي تركزت على نقطة أساسية مفادها أن القدس قد أصبحت في القرن التاسع عشر مدينة ذات أغلبية سكانية يهودية، وأن النهضة التي شهدتها القدس كانت نتاج

Digitized by Birzeit University Library

النشاطات الصهيونية، بعد أن أسيء لها عبر سنوات الحكم الإسلامية الطويلة، فتحولت إلى خرائب لا يمكن إصلاحها «إلا بشعب الله المختار» وداعميه من الغرب المسيحي.

وخلفية البحث اعتمدت على إثبات سوء الإدارة العربية والإسلامية لأقدس مدينة في العالم، فيجري اقتباس الرحالة الأوروبيين، خاصة في القرن التاسع عشر، الذين اندفعوا بجموعهم وبجموح غير مسبوق إلى القدس. وبخلفية أوضاع أوروبا المتقدة تطورا وتنمية من عوائد الاستعمار والثورة الصناعية، قام هؤلاء الرحالة بمقارباتهم بالقدس، فعجت كتبهم بالشكوى من أن الكثير من الشوارع غير جيدة الرصف، وتزويد القدس بالمياه غير كاف، وفساد الحكم المحلي (الباشوات العثمانيين)، وتخلف السكان، وقلة التعليم، والتعصب (المحافظة) الديني، والفقر الواضح، وتردي أوضاع الأماكن المقدسة. وباختصار شديد كانت كتب الرحالة بمجملها، بحق أو بتجني، تعبر عن مدينة تعيش في العصور الوسطى. وبغض النظر عن مدى صدقية هذه النصوص، وخلفية ودوافع أصحاب الرحلات، وصعوبة فهم المجتمعات الشرقية بالنسبة لهم، وبغض النظر عن الاستشراق بمفهومه السلبي الذي طغى على كتاباتهم، والاستعلاء الحضاري والديني الذي صبغ غالبيتهم العظمى، وخلفيتهم الاقتصادية ونواياهم الاستعمارية، إلا أنه قد جرى الاحتفال بهذه النصوص من قبل الباحثين الإسرائيليين، وتحولت نصوصهم إلى نصوص مقدسة، توقفت العقول النقدية عن العمل، وهي نفس العقول التي شحذت كل أدوات النقد أمام النصوص الإسلامية[1]، كما أسلفنا.

(1) هناك عددا كبيرا من الباحثين الإسرائيليين الذين تخصصوا في هذه الفترة، نذكر منهم على سبيل المثال: موشيه معوز، حاييم جيربر، روث كراك، روبرت أيزنمان، جبرائيل بأير، أروي كوبرشميدت، جاد جلبر، شموئيل أفي تسور، يائير هيرتسفيلد، ألكس كارمل، موشيه رينوت، دافيد كوشنير، مردخاي إلياف، ناتان شور، والقائمة في حقيقة الأمر أطول من وجود مكان هنا لسردها، وقد كتبوا بكل لغات العالم الأساسية.

Digitized by Birzeit University Library

وتعتبر كتابات يهوشع بن أرييه مدخلا هاما لفهم التوجهات الإسرائيلية، وهي ممثلة لمجموعة كاملة من الدراسات التي ساهم بها الجغرافيين الإسرائيليين وخاصة الجغرافيين التاريخيين، فقد قام بتجميع ما اختاره من كتابات الغربيين حول القدس ونشرها في مجلدين، الأول: القدس في القرن التاسع عشر، البلدة القديمة، والثاني يحمل نفس عنوان الأول لكن خارج الأسوار[1]. اتبع بن أرييه منهج الجغرافية التاريخية لفهم المكان (الحيز) وأخذ يسلط الأضواء على مجموعة من القضايا الأساسية خلال كل الكتاب بجزئية داخل الأسوار وخارجها، معتمدا تقريبا بشكل حصري على الرحالة الغربيين الذين وصفوا القدس في القرن التاسع عشر:

أ. تخلف المجتمع الفلسطيني في القدس من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، مجتمع عصور وسطى بكل ما للكلمة من معنى، هذا عدا عن انتشار الفقر والتعصب الديني والاجتماعي.

ب. تدهور أوضاع المدينة من ناحية البنى التحتية، وعجز السلطة العثمانية عن تقديم الخدمات الضرورية الأساسية للسكان، وبالتالي للحجاج القادمين من الغرب المسيحي.

ج. جاء النمو والتطور إلى المدينة عبر المؤسسات الغربية، والخدمات التي أحضرتها هذه المؤسسات شملت حقل التعليم والصحة وأساليب

(1) Yehashua Ben-Arieh, *Jerusalem in the 19th Century*, Jerusalem, 1984.

وكان بن أريه قد نشر عددا كبيرا من المقالات حول فلسطين بالقرن التاسع عشر، وأعطى القدس مكانا هاما في دراساته، مع تركيز واضح على اليهود في القدس ونمو أعدادهم. لمزيد من التفاصيل، أنظر مقالته:

Ben Arieh, Y. "The Growth of Jerusalem in the Nineteenth Century", Annals *of the Association of American Geographers*, LXV (1975), pp. 252-269.

وكذلك كتابه الموسع، والذي يناقش فيه القدس في القرن التاسع عشر بالتفصيل:

Ben Arieh, Y. *The Rediscovery of the Holy Land in the Nineteenth Century*. Jerusalem, 1979

Digitized by Birzeit University Library

ومواد البناء الحديثة، ولم تأت نتيجة لتطور المجتمع المحلي وسلطته المركزية (العثمانية).

د. إضافة إلى مساهمات الغربيين الواضحة، فقد أحضر المهاجرون اليهود المزيد من التقدم إلى القدس.

ه. النمو المضطرد لعدد اليهود ومؤسساتهم في كافة الحقول في المدينة، ومساهماتهم الاقتصادية في إعادة تشكيل القدس[1].

و. تثبيت المسميات اليهودية للمواقع في المدينة، وإضافة ما لم تقدمه مصادر القرن التاسع عشر من مسميات «يهودية»، وتثبيت ذلك على الخرائط، ومن ثم إعادة تركيب التاريخ التوراتي من خلال «الشواهد» المختلفة التي مازالت ماثلة في المدينة.

وتركيزا على الإحصاءات، للعبها دوراً هامّاً، فإننا ننقل أدناه جدول تقديرات بن أرييه لعدد سكان القدس، ويجب ملاحظة الاصطلاحات المستخدمة، والتي تهدف في النهاية إلى إثبات بأن طائفة اليهود قد أصبحت منذ عام 1870 أكبر طوائف المدينة، وتشكل نصف عدد إجمالي السكان. كما

(1) أنظر مداولاته حول النمو السكاني اليهودي في الفصل الأول من الجزء الرابع من كتابه، ويحمل هذا الفصل عنوان «النمو السكاني لليهود قبل العام 1870»، خاصة الصفحات 268 وما بعدها، حيث يناقش نمو أعداد اليهود كل عشر سنوات، ومن الظريف أنه لا يقتنع بالأعداد التي تقدمها الكتابات، ففي الوقت التي تذكر فيه الإحصاءات المصرية (أثناء الحكم المصري) أن عدد اليهود هو 500 ذكر، يقوم روبنسون بالقول بأن هذا عدد صغير جدا، ويقوم بمضاعفته أربع مرات، وبذلك يصبح العدد 2000، ويؤيده بن أرييه بذلك، والذي يستنتج بأن عدد اليهود في القدس حوالي العام 1838 قد بلغ أكثر من 3000 نسمة، وأقل ما يمكن أن يقال عن طريقة الحساب هذه بأنها كلها غرابة ولا تسند إلى أي أساس علمي، كما أن تقديرات الرحالة لعدد السكان كان يعتمد بالأساس على البيئة التي اختلطوا بها أثناء إقامتهم بالقدس، والكثير منهم من كان يقيم بأنزال وأديرة المؤسسات الغربية، وكانوا على اتصال باليهود، من هنا يمكن استنتاج خلفية جمعهم للمعلومات.

Digitized by Birzeit University Library

تجدر الملاحظة بأن تعريف من هو ساكن غير هام، فهذه مسألة ثانوية، كما لا تلعب حدود مدنية القدس أي اعتبار، هذا عدا طبعا عن إشكالية تركيب هذه الأرقام بطريقة مريحة للكاتب ولأهدافه السياسية[1].

السنة	عدد اليهود	عدد المسلمين	عدد المسيحيين	أعداد غير اليهود	العدد الإجمالي
1800	2,250	4,000	2,750	6,750	9,000
1836	3,250	4,500	3,250	7,750	11,000
1840	5,000	4,650	3,350	8,000	13,000
1850	6,000	5,400	3,600	9,000	15,000
1860	8,000	6,000	4,000	10,000	18,000
1870	11,000	6,5000	4,500	11,000	22,000

(Y. Ben-Arieh, Jerusalem in the 19th Century, p. 279)

نحن نملك الإحصاءات العثمانية للعام 1872-1871، وهي آخر الإحصاءات الرسمية للدولة العثمانية، حيث تقدم معلومات مغايرة لما هو مذكور أعلاه. وبالطبع هناك إشكالية في هذه الإحصاءات، وهي تعريف المواطن العثماني، حيث اعتبر الزوار والحجاج والمقيمين بغير حق المواطنة ليسوا مواطنين عثمانيين، ولم يتم إدخالهم ضمن الإحصاءات، وهو أمر لا يختلف عن التعريفات الدولية المتعارف عليها في حينه. وبقي أن نشير، بأن الإحصاءات تعتمد على «الخانة»، وهو رب العائلة المكلف بالضرائب، وقد لا تشمل رجال الدين، ولكنها تحتسب غير المتزوجين من الرجال وتسميهم «مجرد». وقد جرى الاتفاق بين الباحثين على تقدير الخانة 5-4 أنفس، ولكن إذا أردنا التوصل إلى أرقام تتشابه مع تلك التي يطرحها بن أرييه، لا بد من

(1) حول إشكالية الأرقام وتجنيد إحصاءات القرن التاسع عشر لأغراض أيديولوجية وسياسية، أنظر شولش (وهو ألماني)، مصدر سبق ذكره، ومقارنة ذلك بما كتبه بن أرييه.

Digitized by Birzeit University Library

اعتبار الخانة ستة أفراد على أقل تقدير، لكن هذه المضاعفات لا تغير من النتائج شيئا. وتشير الإحصاءات العثمانية المذكورة إلى ما يلي:

المسلمون	1025 خانة
الروم الأرثوذكس	299 خانة
اللاتين	179 خانة
الأرمن	175 خانة
الروم الكاثوليك	18 خانة
البروتستانت	16 خانة
القبط	44 خانة
السريان	7 خانة
اليهود	630 خانة

إذا، فإن مجموع خانات القدس قد بلغ 2393 خانة، منهم 630 خانة من اليهود. وبهذا فقد كانت نسبة اليهود في القدس هي 26.3%، وبالتالي فقد شكل العرب بمسلميهم ومسيحيهم ثلاثة أرباع سكان القدس، ولا يوجد ما يمكن اعتباره أساسا لاعتبار أن اليهود يشكلون نصف سكان المدينة، كما ذهب إليه بن أرييه وعشرات من المؤرخين والجغرافيين الإسرائيليين.

والآن لنحول الإحصاءات إلى أرقام بعدد الأنفس (تقريبية)، بدلا من خانات، لنجمع الطوائف المسيحية المختلفة ضمن نفس المجموعة (638 خانة)، وبنفس منطق القائمة التي يقدمها بن أرييه، فنحصل على الجدول التالي:

Digitized by Birzeit University Library

الطائفة	تقديرات بن أريبه	الإحصاءات العثمانية الخانة = 4-5 أنفس	الإحصاءات العثمانية الخانة = 6 أنفس
المسلمون	6500	5125-4100	6150
المسيحيون	4500	3190-2952	3828
اليهود	11000	3150-2520	3780

جدول يبين عدد سكان القدس عام 1872-1871 بناء على الإحصاء العثماني

يتضح من خلال الجدول المعتمد على الإحصاءات العثمانية[1]، تطابق تقريبي بين أعداد المسلمين والمسيحيين في القدس وتقديرات بن أريبه، ويمكن تفسير الاختلافات من عدم القدرة على تقدير عدد أفراد الخانة بدقة، والاختلاف الجوهري بين الإحصائين يكمن في أعداد اليهود والتي تم مضاعفتها ثلاث مرات، ومن هنا يمكن فهم بداية خلق أمر واقع في الذهن والوعي العالمي ضمن مشروع مبرمج بشكل مسبق. كما تتضح النية المسبقة لتضخيم أعداد اليهود بشكل لا يعقل، فلا يعقل أن تتطابق الإحصاءات العثمانية حول عدد المسلمين والمسيحيين مع إحصاءات بن أريه المعتمدة على رحلات الغربيين وقناصلهم، وتختلف بعدد اليهود فقط. ومن الجدير بالذكر بأن مشروع «الدولة اليهودية» لم يكن قد طرح بعد، حتى تقوم الدولة العثمانية بتزوير أعدادهم. وغني عن القول بأن أكبر جوالي يهود العالم كانت في القرن التاسع عشر تسكن داخل أراضي الدولة العثمانية ومن رعاياها.

(1) حول الإحصاءات العثمانية، أنظر ألكزاندر شولش، **تحولات جذرية في فلسطين 1856-1882**، ترجمة كامل العسلي، عمان، 1988، ص 30. ويمكن مقارنة ذلك بما كتبه كل من بن آريبه، وجريبر، وجوتهايل، وجات، وآخرون.

Digitized by Birzeit University Library

أما المنطق الآخر الذي يكمن في التركيز على القدس في القرن التاسع عشر، فيعود إلى سياسة القفز عن الفترات التاريخية كمنهجية. فمنذ الفترة الرومانية تراجعت أعداد اليهود في فلسطين بشكل عام وفي القدس بشكل خاص، بحيث لم يعد لهم أي تأثير على الحياة العامة. وقد قدرت نسبة اليهود في فلسطين مع الفتوحات الإسلامية من قبل الباحثين الإسرائيليين أنفسهم بما لا يتجاوز 5% من مجوع السكان، وذلك بسبب الهجرة إلى خارج فلسطين أو بسبب الدخول بأعداد كبيرة بالمسيحية[1]، ولاحقا بالإسلام. وفي القرون التي تلتها، ازداد نقصان عدد يهود فلسطين بحيث بات بالكاد يذكرون في المصادر، فتركز وجودهم في الجليل في صفد وطبريا وبعضهم في المنطقة المحيطة بالقدس، ويظهر وجود جالية يهودية صغيرة وفقيرة في القدس الفاطمية انتهى وجودها مع الغزو الصليبي، ولا يوجد تأكيد على تجدد هذا الوجود في القرون القادمة، ويظهر أنه في الفترة المملوكية قد بدأ وجود يهودي صغير في قلب البلدة القديمة، ارتبط بسقوط الأندلس، وتنامى بشكل تدريجي ومتواضع حتى نهاية القرن التاسع عشر. وحتى خلال كل الفترات الإسلامية، لم ترتقي القدس من حيث درجة الاهتمام اليهودي والسكن فيها إلى مستوى مدينة طبريا، ولا حتى مستوى مدينة صفد، فكيف يمكن فهم هذا الاهتمام المفاجئ بالقدس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دون ربط ذلك كليا بالمشروع الاستعماري الغربي لفلسطين؟ لقد كانت القدس مفتوحة أمام اليهود سواء القاطنين في فلسطين أو في أي مكان من العالم الإسلامي، ولم يمنعهم أحد من السكن فيها، فلماذا لم يهاجروا إليها بأعداد معتبرة، ولماذا تم ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟

(1) حول الوجود اليهودي في فلسطين مع بداية الفتوحات الإسلامية، أنظر خليل عثامنة، **فلسطين في خمسة قرون (634-1099)**، بيروت، 2000، ص 162 وما بعدها.

Digitized by Birzeit University Library

صحيح جدا بأن ما كتبه بن أرييه بمجلديه يحتوي على معلومات مثيرة حول طبوغرافية وآثار وعمائر المدينة، فقد حفظ بن أرييه عبر مراجعته للأبحاث والتقارير المختلفة كمية هائلة من المعلومات حول القدس في القرن التاسع عشر، وقد جمعها وصنفها ولخصها بحرفية عالية، لكن ليس هنا تقع المشكلة، بل بنوع المعلومات وكيفية اختيارها، وكيفية استعمالها. إن انتشار الفساد والتخلف الاجتماعي والاقتصادي المصور في كتبه، لا يعبر بالتأكيد عن الصورة الحقيقة، فالبحث في سجلات المحكمة الشرعية في القدس، وهو ما لم يستعمله بن أريه، يقدم صورة مغايرة لتلك التي يقدمها الرحالة والباحثين المستشرقين.

إذا، الصورة والرسالة الأساس التي احتوتها هذه الدراسات حول القدس في القرن التاسع عشر تتلخص في أن القدس، تلك المدينة العظيمة بمكانتها الدينية، قد أساء العرب والمسلمون إدارتها، وبالتالي لا يستحقوها أبدا، وهذه النتيجة تبرر ضرورة انتزاع المدينة منهم وإعطائها لمن هم أقدر على إدارتها وأحق بحيازتها، والتي وهبهم الله إياها، فتمكينهم منها هو تنفيذ لوعد الرب.

أما الصورة الأخرى التي يقدمها بن أرييه في كتاباته حول القدس مع نهاية القرن التاسع عشر، فهي مدينة حيوية انتعشت وتشافت من الكثير من الأمراض بفضل التدخلات الأجنبية من جهة والاستثمارات اليهودية من جهة ثانية، لقد أثرت هذه النشاطات على النخب الفلسطينية في المدينة، ونشأت طبقة اجتماعية عربية بروح غربية. فلا شئ يمكن نسبه للعرب من تطوير المدينة، وحتى الأحياء العربية خارج الأسوار[1]، جاءت بعد تلك

(1) طبعا هذا غير دقيق أبدا، فقد انتعشت القدس منذ بداية القرن التاسع عشر قبل التدخلات الغربية، ويكفي أن ننظر إلى المشاريع المختلفة التي تمت، وتلك التي جرت على أيدي إبراهيم

Digitized by Birzeit University Library

التي أنشأها اليهود، وبعد إنشاء المؤسسات المسيحية الغربية[1].

باشا بن محمد علي الكبير قبل انتصاف القرن لفهم عقم هذا الادعاء. أما بخصوص الأحياء، فقد انتشر البناء العربي خارج الأسوار قبل القرن التاسع عشر بكثير، فمثلا حي الداودية (حي النبي داود) وجد منذ القرن السادس عشر، وقصور الكثير من أعيان القدس كانت تتربع على التلال المحيطة بالقدس، هذا عدا عن قصور المزارع، والمزارات (زاوية الشيخ جراح). هذا إذا ابتعدنا عن ذكر القرى الملاصقة للمدينة مثل سلوان، الثوري، الطور والعيسوية، ولا تبعد أي منها أكثر من كيلومترين عن أسوار المدينة القديمة، أما سلوان فلا تبعد 500 مترا هوائيا عن الأسوار. وحول النظرة الإسرائيلية لما دار في فلسطين، ومن ضمنها القدس، من نشاطات وتطورات، أنظر مقالة بآير:

Gabriel Baer, "The Impact Change on Traditional Society in Nineteenth Century Palestine", in Maoz (Ed.), *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jerusalem, 1975.

(1) أنظر حول ذلك مقالة:

Shmuel Avisur, "The Influence of Western Technology on the Economy of Palestine during the Nineteenth Century", in Maoz (Ed.), *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jerusalem, 1975.

كما يمكن مراجعة ما كتبه جريبر بهذا الخصوص، أنظر كتابه

Haim Gerber, *Ottoman Rule in Jerusalem 1890-1914*, Berlin, 1985.

Digitized by Birzeit University Library

ثالثا: أعمدة تاريخ القدس الخمس: هيكل أول وهيكل ثان وعام 1882 وعام 1948 وعام 1967

«مثل هذا النفق كان موجودا خلال فترة الهيكل الثاني»[1]

اعتمد المؤرخ الإسرائيلي بشكل عام على تشكيل تاريخ القدس بشكل خاص، وتاريخ فلسطين بشكل عام، على اختيار مراحل تاريخية واستلالها من التاريخ ومن سياقاتها الحضارية، وكأنها قد وجدت منفردة ومستقلة، ونسب لنفسه هذا التاريخ وامتلكه، وهي مسألة في حقيقة الأمر ليست حكرا على إسرائيل، بل تلجأ إليها الكثير من «الحركات القومية» لخلق هوية مشتركة لأمة تعاني من أزمة في هويتها، أو تهدف إلى صهر مجموعات مختلفة عرقيا وثقافيا لتشكيل «أمة جديدة»، وهنا يلعب التاريخ دورا محوريا في ذلك بعد أن يتم اختياره بدقة وتهذيبه وصقله بشكل يتلاءم والهدف، بحيث يساهم في تشكيل «المطبخ الوطني».

(1) هذا النص موجود على يافطة معلقة باللغتين العبرية والإنجليزية على جدار نفق أحد الأقواس الحاملة لجسر باب السلسلة، والذي يستعمل اليوم كممر يقود من طريق الواد إلى ساحة حائط البراق. ولا تذكر اليافطة أن هذا الجسر يعود إلى الفترة الأموية، فالنظرية («مثل هذا») تتحول إلى حقيقة في حين أن البناء الموجود في الحقيقة يتم تجاهله تماما. ليس المقام هنا لدحض النظرية أو إثباتها، ولكن هكذا يكتب التاريخ في إسرائيل.

Digitized by Birzeit University Library

لقد جمع بن غوريون، المؤسس والأب الروحي لدولة إسرائيل، بعد الإعلان عن استقلال دولة إسرائيل عام 1948، مجموعة من المؤرخين والجغرافيين والأثريين وأخبرهم: «لقد صنعت لكم دولة، والآن عليكم صناعة تاريخ لها»، وبهذا تشكل مطبخ التاريخ الإسرائيلي بشكل رسمي، وفي الحقيقة لم يكن هؤلاء ينتظرون التكليف الرسمي من قبل بن غوريون، بل بدأوا منذ العقد الثالث من القرن العشرين أعمالهم في الجامعة العبرية، إن لم يسبقوا ذلك، وشكلوا مع قيام الدولة قاعدة متينة يمكن لبن غوريون الارتكاز إليها، وتبع هذا التشكيل لجنة تخصصت بالمسميات[1]، قدمت الخرائط الجديدة وأرفقتها بمئات المؤلفات حول تاريخ فلسطين، وخلقت تاريخا يعتد به، وهو التاريخ المدرس بالمدارس حتى اليوم في إسرائيل، صحيح بأن تعديلات طفيفة قد أجرت عليه عدة مرات خلال الحقب الأخيرة، إلا أن جوهره ورسالته بقيتا كما قدر لهما منذ البداية أن تكونا، ولم تتأثرا كثيرا بما وصل إليه علماء التاريخ والآثار من اكتشافات على قدر عال من الأهمية، غيرت المفاهيم، لكن بقي داود في صورته وفي مكانه ولم يتزحزح قيد أنملة.

(1) شكلت الوكالة اليهودية سنة 1922 لجنة أسماء، قامت بتغيير أسماء 216 موقعا حتى عام 1948، كما غيرت خلال السنوات الثلاث القادمة 198 إسما، حين قرر بن غوريون ضمها إلى مكتب رئيس الحكومة، وقد ضمت اللجنة 24 مختصا في حقول العلوم التاريخية، وبعد تهجير الفلسطينيين من ديارهم سرعت اللجنة أعمالها فغيرت أسماء 560 موقعا خلال عامين، وبعدها استمرت اللجنة بعملها في محاولة لخلق خارطة كاملة جديدة لكل فلسطين في حدودها الانتدابية، وكان همها الأكبر ليس فقط إطلاق أسماء عبرية على المواقع، بل ربطها أيضا بقدر الإمكان بالتاريخ اليهودي والتوراة، حول ذلك أنظر شكري عراف، **المواقع الجغرافية في فلسطين: الأسماء العربية والتسميات العبرية**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 2004، ص2-3.

Digitized by Birzeit University Library

1. في مسميات الفترات التاريخية

اعتمدت في شرق البحر الأبيض المتوسط مسميات علمية للفترات التاريخية، وذلك بالاعتماد على المادة الحضرية التي هيمنت أو اكتشفت في فترة معينة مثل: فترات ما قبل التاريخ (Pre-history)، والعصر الحجري (Neolithic)، والعصر النحاسي (Chalcolithic)، والعصر البرونزي (Bronz Age)، والعصر الحديدي (Iron Age)، أو سميت باسم إمبراطوريات كبيرة مثل الأشورية والبابلية والفرعونية والإغريقية والرومانية والعربية الإسلامية ... وهكذا. أما في إسرائيل، واعتماد على دراسات الآثار التوراتية، فقد تم تشكيل مسميات مختلفة، فالعصر الحديدي أصبح اسمه «فترة الهيكل الأول»[1]، والعصر الإغريقي (الهيليني) أصبح اسمه «عصر المكابيين»، والعصر الروماني المبكر أطلق عليه اسم «فترة الهيكل الثاني»[2]... أما حرب تشريد الشعب الفلسطيني عام 1948 فسميت بالحرب الأهلية[3] وحرب الاستقلال، وحرب حزيران عام 1967 أطلق عليها لاذلال العرب اسم «حرب الأيام الستة».

---

(1) أي عصر داود وسليمان، ويمتد من حوالي 1000 قبل الميلاد وينتهي بالغزو البابلي (السبي البابلي) سنة 586 ق.م أي بدمار الهيكل الأول على يد نبوخذنصر البابلي، الذي بني بناء على هذه الروايات حوالي سنة 950 ق.م. وشهدت هذه الفترة انقسام مملكة سليمان إلى دولتين واحدة في الشمال (السامرة) والثانية في الجنوب (يهودا)، كما شهدت الغزو الأشوري عام 721 ق.م

(2) يشار بالعادة إلى ما قام به هيرود الكبير (حكم 40 ق.م إلى 4 ق.م)، وهو من أم نبطية وأب أدومي، تهود، وبنى لليهود الهيكل الثاني سنة 19–10 ق.م. ويذكر بأن هذه الهيكل قد دمره القائد الروماني تيطس عام 70 ميلادية.

(3) يجري وصف حرب استعمار فلسطين على أنه اختلاف بين مجموعتين عرقيتين تعيشان في نفس البلد، وبالتالي قامت إحداها بالانفصال والاستقلال مثل الذي حصل في البلقان أو الذي حصل في تشيكوسلوفاكيا، وليس مجموعة خارجية جاءت واستعمرت كولونياليا وطنا معمورا. وبالتالي، تم وضع المجموعتين «الفلسطينية» و«اليهودية» في نفس الكفة، أقصى ما يمكن أن تقدمه المجموعة الثانية إلى المجموعة الأولى هو حقها بالوجود، وفي أقصى تنازل هو حقها في تقرير المصير، وهو أمر لم يحصل حتى الآن.

Digitized by Birzeit University Library

ومن المثير استخدام هذه المسميات بدون التفكير بمعانيها، فمثلا ألن يكون مستهجنا أن تسمى الفترة الأموية في بلاد الشام بـ«فترة قبة الصخرة»، أو الفترة الفاطمية في مصر وبلاد الشام بـ«فترة جامع الأزهر»؟ لكن تثبيت مسميات الهيكل الأول والهيكل الثاني[1] والمكابيين[2] والحسمونيين[3]. ومصطلح «فترة الهيكل الثاني» لا يعبر عن فترة معينة في القدس وحسب، بل يجري أسقاطه على كل فلسطين، بل أيضا على شرق الأردن وسوريا.

أما التسمية الهامة التي يجب الانتباه إليها، والتي أصبحت الآن كحقيقة واقعة، فهي «مدينة داود» (عير دافيد - بالعبرية و David City بالإنجليزية)، هذه التسمية تستعمل اليوم في كل اللغات وتم تثبيتها. أما أصلها فيعود إلى عالم الآثار الفرنسي ريموند فايل (Raymond Weill) الذي اقترح هذه التسمية في حوالي العام 1920، وتبناها الإسرائيليون لاحقا خاصة في ستينات القرن العشرين، وبعدها أصبحت التسمية الوحيدة، وهي تسمية مضللة كليا، فحتى لو افترضا جدلا بأن هناك فترة تاريخية في القدس تعود إلى داود، فقد شكلت هذه الفترة مرحلة قصيرة في تاريخ مديد، سبق داود واستمر بعده بأكثر من ألفي عام، فكيف يمكن إطلاق تسمية بأثر رجعي لفترة صغيرة على كل تاريخ المدينة؟

---

(1) هناك روايات توراتية تعيد بناء الهيكل الثاني (سنة 520–515 ق.م) بعد سقوط القدس بيد الفرس (كورش/ كيروس) عام 537 ق.م وهو عصر هيرودوس، ويمتد من بضع سنوات قبل الميلاد حتى دمار الهيكل الثاني سنة 70 ميلادية.

(2) المكابيين هم سلالة يهودية وكيلة للسلوقين الإغريق، ثاروا وحكموا باسم الإغريق أجزاء من فلسطين.

(3) الحسمونيين (الحشمونيين) هم من المكابيين، حكموا أجزاء من فلسطين باسم الإغريق منذ العام 164–63 ق.م.

Digitized by Birzeit University Library

2. العمود الأول: داود وسليمان عاصمة وهيكل وقصر

احتل الملك داود، حسب الرواية التوراتية، القدس بعد أن حكم سبع سنين ونصف في الخليل، وتدريجيا تحول الاسم الكنعاني - اليبوسي أورسالم إلى أورشليم، وهي التسمية التي تستعملها إسرائيل اليوم متجاهلة التسميات الأخرى التي جاءت في العصور اللاحقة، حتى أنها تقلع اليوم بشكل تدريجي عن إستعمال «القدس»، وأصبحت تكتب على شارات الشوارع والأوراق الرسمية بالأحرف العربية «يروشالايم» وهذا جزء من الانتقائية التي تمت.

ويبدو من أنه من منطلق هذه الرواية، تنصب إسرائيل اليوم جسرا بينها وبين القدس وشرعية وجودها، حيث نراها قبل عقد من الزمن قد مدت الجسر إلى يومنا هذا بالاحتفال بمرور 3000 عام على تاريخ القدس، متجاهلة بذلك كل التاريخ الذي سبق ذلك، كما أن تسمية «مدينة داود» قد انتعشت من جديد منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع هجمة الآثار التي اجتاحت القدس، وأصبح لاحقا الموقع الأثري لخرائب القدس العتيقة هو «مدينة داود»، وهو أمر يستحيل نقاشه الآن بسبب هذا التراكم الهائل من الكتابات الغربية والإسرائيلية. تشكل «مدينة داود» محورا أساس في التربية «الوطنية الإسرائيلية» حيث تقاد إليه كل مكونات المجتمع الإسرائيلي: طلاب مدارس وجامعات وجنود ومتقاعدين نساء ورجال، كما يقوم أدلاء السياحة من الإسرائيليين بسوق أفواج السواح إلى الموقع. أو يشكل الموقع بعد حفره عبر عشرات الحفريات نقطة ارتكاز أساسية في بناء الرواية التوراتية. وأكثر الأمور إثارة هي أن الزائر لا يرى شيئا ذا بال أو قريب من ذلك يمكن أن يؤكد أي رواية، لكن يتم إعادة تركيب الرواية التوراتية وكأن «الحقائق» واضحة ولا غبار عليها ومتفق حولها، بل وحتى ملموسة: هنا

Digitized by Birzeit University Library

سار داود، وعبر هذا النفق احتل داود المدينة، ومن هذا النبع شرب داود وجيشه، ومن على هذه الصخرة تضرع إلى العلي القدير، وهنا كانت الحدائق الغناء التي أنشأها وكان يقطف منها الأعناب والتين ... إلخ. يتحول داود عبر هذه الرواية إلى شخصية تروي التاريخ وتمثله بكل حذافيره، وإن كان هذا لا يكفي فيتم اللجوء إلى تصوير أفلام وعرضها، بحيث ينطبع بذهن الزائر قصة لا يطولها الشك من قريب أو بعيد[1]. وفي الحقيقة أن أي مما ذكر لا يمكن مشاهدته ولا مشاهدة أي أثر يعبر عن مدينة أو حتى مستقر بشري متوسط الحجم. ما يمكن مشاهدته، وهذا ما أثبته الأثريون من الإسرائيليين أنفسهم، أن القدس في هذه الفترة لم تتعدى مفهوم قرية، لا يتجاوز عدد سكانها 1500 نسمة في أحسن الأحوال.

ليس في الحقيقة من آثار في الموقع يمكن أن تحكي أية قصة، فالقدس في القرن العاشر قبل الميلاد، وبناء على الحفريات الأثرية التي استمرت أكثر من قرن ونصف (منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى هذه اللحظة) لم تكن سوى قرية صغيرة أو بلدة متواضعة وفق معايير العصر الحديدي، وقد تكون قد احتوت على قلعة صغيرة، تصد عبرها هجمات الأعداء المحليين، لكنها تقل أهمية بكثير من المرات عن مواقع قريبة عاشت كمدن في نفس الفترة، وإن كانت القدس مهمة في هذا القرن، فلم تتعدى أهميتها المنطقة المحيطة بها، فلا شيء يدل على عاصمة دولة لا كبيرة ولا صغيرة ولا تتمتع بأي فخامة مزعومة. إن كل الدلائل تشير إلى وهمية هذا التاريخ، وأنه قد جرى تصنيعه في مصنع الأساطير والحكايات الشرقية بعد أكثر من خمسة قرون على هذه الفترة.، إن لم يكن بعد ذلك.

(1) لمزيد من التفاصيل يمكن زيارة الصفحة الالكترونية لمدينة داود: http://www.cityofdavid.org.il/IrDavidFoundation_Eng.asp

Digitized by Birzeit University Library

وبالانتقال إلى المرحلة الثانية من كتابة التاريخ، حيث يلعب سليمان بن داود دورا محوريا آخر، فهو باني الهيكل الأول وهو الذي بنى قصرا عظيما ذاع صيته بالأرجاء ووسع «مدينة داود» لتصبح عاصمة لإمبراطورية كبيرة. إن الآثار لا تختفي كليا، ولم يكن لأحد في الماضي مصلحة بإخفائها. يتمتع داود وسليمان في الإسلام بلقب الأنبياء، وآثارهم مقدسة، فليس للمسلمين مصلحة بطمس آثارهما، فأين ذهبت هذه الآثار؟ لم يتم حتى الآن اكتشاف قصر سليمان ولا هيكله ولا عاصمته ولا شيء يدل على وجوده في القدس، لكن ذلك ليس هاما أبدا، فكتبة التاريخ في إسرائيل يسدون كل فراغ ويجسرون كل فجوة لتكتمل الرواية[1].

وبهذا الخصوص، يتم تجاهل تاريخ القدس قبل ما يسمى «فترة الهيكل الأول»، فالعهد القديم يسكت تماما عن ذكر ما آل إليه سكان المدينة قبل احتلالها من قبل داود، والذين يسميهم العهد القديم بـ«اليبوسيين»، كما لا يتضح مصير آلهتهم وطقوسهم الدينية (الكنعانية)، ومدى تأثير الحضارة اليبوسية على القبائل العبرية البدوية، التي كانت بمعايير العهد القديم أقل تطورا من الحضارة المقيمة. ويخبرنا العهد القديم أن سليمان لم يجد من بين أبناء جلدته من يستطيع المساهمة من ناحية معمارية أو فنية في أعمال بناء الهيكل، فيستورد تبعا لذلك العمال المهرة من مدينة صور الفنيقية.

(1) قامت عالمة الآثار الإسرائيلية ايلات مزار عام 2005 بإجراء حفرية إلى الجنوب من المسجد الأقصى، واكتشفت بضع صفوف من الحجارة المهذبة وأعلنت أنها اكتشفت قصر داود، صحيح بأن الكثير من الجادين في حقل الآثار ومنهم إسرائيليين قد أشبعوها نقدا، لكن ذلك لم يؤثر في الرواية الرسمية التي تشير الآن إلى قصر داود. حول اكتشافات مازار، أنظر:
Eilat Mazar, "Did I Find David's Palace?" *Biblical Archaeological Review*, January/February 2006.

ولمراجعة وجهة النظر المعارضة لهذا الفهم، فيمكن الرجوع إلى:
Israel Finkelstein and Neil Asher, *David and Solomon: In Search of Bible's Sacred Kings and the Roots of Western Tradition*, New York, 2006, pp. 270 ff.

Digitized by Birzeit University Library

على أية حال، لا شئ من كل ما ذكر له ما يؤكده في الموقع الأثري، ولو من باب التقريب، فلا القصر المنيف ولا الهيكل العظيم قد بقي منهما ما يدل ليس على عظمتهما، بل حتى على وجودهما بشكل متواضع. تم تأليف المئات من الكتب والآلاف من المقالات حول هيكل سليمان، وساهم في ذلك الإسرائيليون واليهود في العالم، إلى جانب مساهمات ضخمة من علماء الآثار التوراتيين في الغرب. إن قراءة آخر ما تم التوصل إليه، لا يعدوا محاولات حثيثة لدراسة المعابد المعروفة في فلسطين والأردن ولبنان، وذلك في محاولة لتخيل شكل هيكل سليمان بالقياس على المعابد المذكورة. عبر هذه الدراسات أصبحنا نملك معلومات تفصيلية ورسومات بمقاييس رسم عن كل المعابد التي جرى اكتشافها في مصر وبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين، إلا عن معبد (هيكل) سليمان، فلم يتم اكتشاف شيء خارج إطار الرواية المنصوص عليها في العهد القديم[1].

3. العمود الثاني: الهيكل الثاني

يأتي الهيكل الثاني في سياق إثبات العلاقة بين اليهود والقدس وتواصل هذه العلاقة عبر العصور، وهو مبني رائع الكمال، بناء على الوصف المعتمد، يتجاوز في جماله وثراءه المعهود، ويتم زيادة تأنقه وروعته عبر العصور، ويحمل في طياته، بغض النظر عن الحقيقة التاريخية، كل أشكال النستلجيا والحنين، وتكتب حوله كل القصص، وتختلط المعلومات المتواضعة بأدب حنين لا ينضب. يصبح الهيكل الثاني أيقونة يهودية يدخل إلى مختلف العادات

(1) [illegible]:
Y. Aharoni, The Solomonic Temple, the Tabernacle and the Arad Sanctuary, in: H.A. Hoffner Jr. (ed), *Orient and Accidence*, Kevelaer, 1973, pp.1-8.

Digitized by Birzeit University Library

والتقاليد، الدينية والدنيوية، فهو إنجاز لا يضاهى، ودماره تعبيرا عن عقاب الله لمن ضلوا الطريق. ويعاد استنساخه من جديد بإضافات وتنميقات جديدة عبر القرون.

لقد تحول الهيكل وجبل الهيكل (جبل موريا) إلى رمز لا يضاهي، مبررا للوجود والتأصل، وسبب إحياء ذكرى إسرائيل على مر عصور الشتات منذ السنة السبعين بعد الميلاد حين قام طيطس الروماني بتدميره. وبالتأكيد، لعب دورا في صياغة «المشترك» بين يهود العالم، خاصة بعد تلاشي الكثير من «المشترك» مثل اللغة العبرية وبسبب الانخراط بالمجتمعات المختلفة، وبهذا كان يتم استحضار الهيكل الثاني، وبالتالي «القدس» ليعيد اللحمة بين اليهود وليساهم بالتصدي المستميت لعملية اندماج اليهود في مجتمعاتهم المختلفة. لقد قام الأغيار (الرومان) بتدمير الهيكل الثاني وطرد اليهود من القدس ومنعهم من السكن فيها لقرون طويلة وذلك خوفا أن يقوم اليهود بتحقيق ذاتهم، لذلك فالتمسك بقصة الهيكل ومركزيته هو تمسك بالهدف اليهودي لمنع الاندماج، وللبحث عن بقعة جغرافية تحقق عليها الذات اليهودية المختلفة عن محيطها بإرادة وقرار مسبق.

لذلك كله، جاء اللهث المبالغ به بحثا عن بقايا الهيكل الثاني في القدس بشكل عام وفي محيط المسجد الأقصى بشكل خاص، والأمر إن كان سياسيا في كثير من أبعاده، إلا أنه لا يخلو من محاولات تأكيد مسار التاريخ، والتأكيد على أن التاريخ اليهودي في القدس ليس أسطوريا، وحين جاءت نتائج البحث الأثري باهتة جدا، لا تتوافق وأقل تقدير مع الصورة المضخمة للهيكل الثاني، تم الاستعاضة عن ذلك بموقع قريب[1]، بحيث

(1) يقع الموقع إلى الجنوب من المسجد الأقصى فيما يسمى بالحديقة الأثرية، ويسمى أيضا مجمع دافيدسون، نسبة للثري اليهودي الذي تبرع بملايين الدولارات لإنشائه.

Digitized by Birzeit University Library

يتم عرض الهيكل الثاني بطريقة مختلفة تعتمد على التخيل وتقنيات الضوء والصوت وإقناع الزائر بأن الهيكل حتى في أدق تفاصيله الزخرفية هو حقيقة مطلقة. لقد تم تسخير جهاز حاسوب تفوق قدرته 300,000 قدرة الحاسوب الشخصي، واستخدمت تقنيات تم استقدامها من تجارب من أمريكيا وهي التقنيات التي يستعملها سلاح الجو الأمريكي لتخيل الطيران، أو الطيران الافتراضي[1]. لقد استحضر البرنامج القدس بالعهد الروماني بالأبعاد الثلاثية، وتم تخيل القدس بكل تفاصيلها، وصلت مرحلة تصور تفاصيل ملابس السكان، لكن هناك تركيز واضح حول الهيكل الثاني. تتحول القدس الرومانية عبر هذه الحديقة التاريخية إلى مدينة حرم للهيكل، وليس إلى مدينة رومانية وثنية، كما كانت عليه[2]. ويقوم الزائر بمشاهدة فيلم وثائقي تحت عنوان «من هنا بدأ كل شيء... ومازال مستمرا» (... Where it all began and still continues) رابطا بين داود الملك وإسرائيل، وكأن 3000 عام لم تمر ولم يكن بينها فترات تاريخية وحضارات مختلفة مرت على القدس، وكأن مستوطني إلعاد هم السكان الذين وطنهم داود في القدس اليبوسية. وتعزز الرواية بعشرات الأعلام الإسرائيلية التي ترفرف على الموقع وعلى بيوت المستوطنين. لقد تم تحويل ما استطاعوا السيطرة عليه من سلوان إلى حي توراتي جديد، أعادوا عظمة داود في بيته[3].

---

(1) لقد أثارتني قصة العرض والاستثمار به والتقنيات التي تم تسخيرها حين شاهدت العرض أكثر من قصة الهيكل نفسها، وهذا يدلل على مدى الاستثمار الذي سخر لإثبات قصة الهيكل.

(2) حول الحديقة الأثرية ورسالتها ودور حركة العاد الاستيطانية انظر:
Wendy Pullan and Maximilian Gwiazda, "City of David: Urban Design and Frontier Heritage", *Jerusalem Quarterly File*, Autumn 39, 2009, pp 29-38; Yusef Said al-Natsheh. "The Digital Temple", *Jerusalem Quarterly File*, October 19, 2003, pp. 53-58.

(3) حول ذلك أنظر:
Rafi Greenberg. "Towards an Inclusive Archaeology in Jerusalem: The Case of Silwan/the City of David", in *Public Archaeology*, 2009, 8.1, p. 35–50; J. Yas, J. "(Re)designing the City of David: Landscape, Narrative and Archaeology in Silwan". *Jerusa-*

Digitized by Birzeit University Library

تم تحويل كل مكونات الموقع المكون من تلة أوفل العتيقة، وموقع دار الإمارة الأموية إلى حديقة أثرية خدمة للأهداف السابقة وفتحوا بابا صغيرا بسور المدينة العثماني ليتحقق التواصل بين ما هو داخل وخارج الأسوار، وتم إعطاء الموقع كله لحركة استيطانية متطرفة (تسمى إلعاد)[1] لإدارته وتقديم روايتها للموقع[2]. ويترافق وهذه الرواية التوسع الاستيطاني في حي سلوان، وتسعى العاد إلى توسيع منطقة سيطرتها لتضم حي البستان، حيث تقرر بأن داود الملك كان يمتلك في هذا الحي حدائقه. يهدف المخطط هذا إلى إخلاء حوالي 90 مبنى فلسطيني من سكانها وتشريدهم وإحلال حدائق وروايات توراتية ومستوطنين مكانهم.

أول ما يشاهده الزائر في الحديقة الأثرية هي أشكال مختلفة لكيفية تمثل الهيكل الثاني بتعبيرات فنية ومعمارية عبر العصور، كما تقدم المخططات التفصيلية للهيكل كما تقدم مسطرة تاريخية للقدس. إن مجرد الدخول إلى هذه الحديقة التاريخية هي عبارة عن دخول بوابات الهيكل، وبهذا لا يمتلك

---

lem Quarterly File, Winter 2000, p. 17-23; J. M. Cahill and D. Tarler. "Excavations Directed by Yigal Shiloh at the City of David, 1978–1985", in H. Geva (ed.). *Ancient Jerusalem Revealed*. 2000, p. 31–45 (p. 38–40).

(1) العاد هي حركة استيطانية عنصرية متطرفة تأسست سنة 1986 بهدف إعادة القدس إلى اليهود بشكل عام، خاصة السلوان. وتعتمد هذه الحركة على تبرعات يهود العالم، خاصة يهود الولايات المتحدة. استطاعت الحركة وبطرق ملتوية ومصادرات السيطرة على عدد من البيوت العربية في حي وادي حلوة (إلى الجنوب من البلدة القديمة)، وقد بلغ عدد المستوطنين اليهود في هذا الحي حتى الآن حوالي 400 مستوطن.

(2) تقع كل المواقع الأثرية المفتوحة للزيارة في إسرائيل تحت سلطة حماية الطبيعة والحدائق العامة، وكان موقع تلة أوفل يقع تحت سيطرة السلطة المذكورة، إلا أنها قدمته في تسعينات القرن العشرين لحركة العاد الاستيطانية لإدارته، ومنذ ذلك الحين تقوم هذه الحركة ليس فقط بإدارة الموقع وتقديم روايتها المتطرفة والعنصرية حول تاريخ القدس، بل تعيد تشكيل كل المنطقة المحيطة بالموقع خدمة لخططها الاستيطانية، كما قامت بملئ المنطقة بالحراس المسلحين لتحويل حياة الفلسطينيين في سلوان لجحيم على طريق ترحيلهم، أنظر:
Meron Rapoport. 2006. "The Republic of Elad". *Ha'aretz*, 23 April 2006.

Digitized by Birzeit University Library

المشاهد سوى القدرة على التدقيق في تفاصيل الهيكل وينسى أية نظرة نقدية تجاه التاريخ، بحيث تأخذه التفاصيل من قطع فخارية إلى نقود إلى أشكال وتفاصيل إلى ثورة باركوخبا إلى تفاصيل ملابس كهنة الهيكل وأدواته المقدسة[1]. ومن يستطيع بعد كل هذه المؤثرات في ظل ترديد آيات من العهد القديم أن يمتك عقلا نقديا؟

4. العمود الثالث: 1882

يتم هنا تقديم أحوال اليهود في العالم، وهو عالم عنصري لا سامي يلاحق اليهود أينما وجدوا. فاليهودي مدان وملاحق أينما ذهب، فقط لأنه يهودي، وقد خلقت مشكلة اليهود في العالم في عصر شهد نشوء القوميات، والتي لم تجد بينها لليهود مكانا. وأصبحت الجتوهات (جمع جيتو) أماكن مكتظة فقيرة ووسخة، كل هذا أدى إلى نشوء «المسألة اليهودية». وفي هذا الخصوص، قلما يتم التطرق إلى اليهود الذين اندمجوا في المجتمعات الغربية بأشكال مختلفة، كما لا يتم التطرق إلى اليهود العرب، الذين لم يعانوا من الإشكالية القومية التي لم تكن أصلا مطروحة في العالم العربي بنفس الصيغة والحدة كما كانت عليه بالغرب المسيحي، كما يتم تجاهل أوضاع اليهود العثمانيين[2].

---

(1) Yusef Said al-Natsheh. «The Digital Temple», *Jerusalem Quarterly File*, October 19, 2003, pp. 53-58.

(2) بالإضافة إلى وجود جوالي يهودية عربية أصيلة في غالبية البلدان العربية التي خضعت للحكم العثماني، إلا أن أعداد اليهود قد ازدادت داخل الإمبراطورية العثمانية بسبب هجرة يهود إسبانيا (الأندلس) إليها، وتفضيلهم الدولة العثمانية على الغرب المسيحي. لقد احتضنت مدينة تسيلونيكي العثمانية (الآن يونانية) أكبر الجوالي اليهودية في العالم. لقد وصل بعض مهجري الأندلس إلى القدس، كما وصلوا إلى الخليل وصفد.

Digitized by Birzeit University Library

يتم اختصار تاريخ الجوالي اليهودية في العالم، والتي تصور وكأنها مجموعة قومية خاصة ومميزة وموحدة، وأن الفروقات بينها هي فوارق طفيفة بمفاهيم ثقافية محدودة، وذلك خلال القرن التاسع عشر بما يشمله من تغييرات درامية بالمفاهيم السياسية العالمية، وإعادة اصطفاف القوى لتقسيم العالم بين القوى الغربية المتناحرة. وبالتأكيد، تساهم الأصولية الإنجيلية في بريطانيا وشمال أوروبا والولايات المتحدة في تشكيل هذه الصورة، وتحول هذه «الأصولية اليهودية» إلى مجموعة مقدسة يجب الحفاظ عليها، وهي ضرورية لعودة المسيح المنتظر.

إن بدء الهجرة اليهودية إلى فلسطين عام 1882، ما يسمى الهجرة الأولى (**عليا رشوناه** بالعبرية)[1]، هو تتويج لمخاض طويل، لكنه ليس بمنفصل عن الفكرة المسيانية، كما شاهدناها في حركة الهيكليين (*Templars*)، وبالتالي يمكن القول بأن هجرات هذا العام هي امتداد لفكرة الهيكليين، حتى لو لم يكن للهيكليين الألمان أية دوافع مرتبطة بالحركة الصهيونية، لأنها أصلا سبقتها، ولا تتوافق في حقية الأمر معها، لكنها جاءتا في نفس السياق الاستعماري. يصور المهاجرون الجدد، والذين جاءوا من أوروبا[2]، بأنهم دخلوا أرضا بكرا فارغة تقريبا، أوضاعها متخلفة يقطنها بعض البدو المتخلفين الذين لم يغيروا الأرض التي بقيت كما تركها سليمان الملك قبل ثلاثة آلاف سنة. كان عدد اليهود في فلسطين، قبل هذا التاريخ، صغيرا، حيث لم يتجاوز عددهم 5000 نسمة، أي حوالي 2% من مجموع سكان

(1) بالرغم من هذه التسمية، والتي جاءت بخلفية التنظيم، كان قد هاجر قبل ذلك بعقد أو عقدين بعض اليهود إلى فلسطين، وخاصة إلى القدس، ومن ضمنهم بعض يهود اليمن وبعض اليهود من أقطار عربية أخرى، لكنها فهمت كجزء من الحركة السكانية العادية داخل الإمبراطورية العثمانية، ولم تفهم في حينه كمشروع استيطاني.

(2) كان المصدر الأساس للمهاجرين اليهود من رومانيا وروسيا وبولندا.

Digitized by Birzeit University Library

فلسطين، وكان نصف السكان اليهود يسكنون في القدس[1]، في حين توزع النصف الآخر على كل من صفد وطبريا والخليل، ولم يكن يسكن في الريف الفلسطيني إلا عدد قليل من اليهود في بعض قرى الجليل، علما بأن الريف الفلسطيني ضم أكثر من ثلثي السكان في حينه[2]. لقد قفز اليهود في فلسطين خلال هذه السنوات إلى حوالي 22000 نسمة، مشكلين بذلك حوالي 5% من مجموع السكان، مما جعل الأمر يبدو جليا بأن هناك مخططا واضحا وراء هذه الهجرة، التي أصبحت منظمة.

وما يميز الاستيطان الصهيوني (هواة/ محبي صهيون) عقب العام 1882، هو أنه لم يتم توجيهه باتجاه المدن المقدسة، كما كان عليه الحال قبل ذلك، بل إلى إنشاء مستعمرات في الريف أو بالقرب من المدن، ولكن ليس داخلها[3]. وقد امتدت حركة شراء الأراضي إلى أرياف القدس[4]، ونجد صدى ذلك بعريضة احتجاج رفعها وجهاء القدس إلى الصدر الأعظم سنة 1891 يطالبونه فيها بمنع الهجرة اليهودية.

---

(1) زاد عدد سكان القدس من اليهود عقب الزلزال الذي ضرب صفد طبريا عام 1837، حيث فضل عدد منهم (حوالي 1000) اللجوء إلى القدس التي لم تتضرر جراء هذا الزلزال.

(2) حول فلسطين في هذه الفترة أنظر: عادل مناع، **تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700–1918**، الطبعة الثانية، بيروت، 2003، ص 227 وما بعدها.

(3) بالرغم من الكتابات الهائلة في الأدب الصهيوني حول أهمية ورمزية هذا التدفق الاستيطاني الرائد والمؤسس لدولة إسرائيل، إلا أنه كان استيطانا فاشلا، فلم يشتهر يهود أوروبا بالخبرة الزراعية، كما أن أرض فلسطين ولا زراعتها ولا بيئتها ومناخها تشبه أوروبا بأي شكل من الأشكال، ففشل المشروع الزراعي، وبات يعيش على صدقات المحسنين اليهود وخاصة البارون روتشيلد.

(4) حتى عام 1897 كان قد تم إنشاء 17 مستعمرة، وصل عدد سكانها مجتمعة حوالي 3867 يهوديا من أوروبا الشرقية، وهذا يعني أن العدد الأكبر من موجة الهجرة الأولى قد توجهوا إلى المدن وخاصة إلى القدس، كما غادر الكثيرون أرض فلسطين باتجاه أمريكيا وأوروبا.

Digitized by Birzeit University Library

بغض النظر عن التأثير الحقيقي للهجرة اليهودية الأولى إلى فلسطين على المشروع الصهيوني برمته، إلا أنها تظهر كحالة مقدسة في الأدب الإسرائيلي، الذي يعتبر «هواة صهيون» المؤسسين الحقيقيين لدولة اليهود على أرض فلسطين. لقد أعاد هؤلاء العلاقة بين اليهود والأرض، فبعد أن اشتغل يهود العالم بالحرف والإدارة وغيرها، جاء هؤلاء وعملوا بالأرض كمزارعين، تماما كيهود فلسطين في العصر التوراتي، وهم من أحيا الآمال في العودة إلى صهيون والتخلص من الحكم الأجنبي لأرض الآباء والأجداد. تطور مفهوم الهجرة الاستعمارية الأولى ليشكل جسرا ما بين العام 70 ميلادية، عام دمار الهيكل في التقويم والثقافة اليهودية وطرد اليهود من القدس، إلى عام 1882، وهو عام التنفيذ العملي للعودة إلى القدس. أما التواريخ التي وقعت بين التاريخيين فكأنها لم تكون.

لقد سمي المستوطنون الجدد بالآباء المؤسسين الذين ضحوا برغد العيش في أوروبا وجاءوا إلى فلسطين تحقيقا لنبوءة، وكأنهم صليبيون جاءوا لتحرير القبر المقدس من الكفار. لم يزعج المؤرخون الإسرائيليون التناقض الواضح في هذه المقولات خاصة وأنهم قد أسسوا لكتابة تاريخ هذه المرحلة بلعن ظروف أوروبا العنصرية المعادية للسامية، لكنهم سرعان ما وصفوا المهاجرين اليهود إلى فلسطين بالمضحين برغد العيش وبالطلائعيين العظام. علاوة على ذلك، فإن المهاجرين (المستعمرين) الجدد كانوا في حقيقة الأمر من فقراء يهود أوروبا، وقد قام أثرياء يهود العالم (أمثال روتشيلد) بشراء الأراضي لهم ورشوة البيروقراطية العثمانية، وحتى قاموا بدفع تكاليف عيشهم على أرض فلسطين، ونادرا من كان منهم من هو بقادر على الانفاق على نفسه. على أية حال، منيت الهجرة الأولى بإخفاق شديد وفشل مريع، حيث عاد الكثير منهم إلى بلادهم الأم، أو غادروا فلسطين إلى أوطان

Digitized by Birzeit University Library

جديدة، إلا أن صفة الطليعية لم تسقط عنهم، كما شهدت فلسطين الموجة الثانية من الهجرة مع مطلع القرن العشرين، صحيح بأن من تبقى من هؤلاء على أرض فلسطين لم يتجاوز عدة ألاف، بسبب هجرة غالبيتهم القادمة من روسيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكن تركت هذه الموجة تأثيرا كبيرا على المشروع الصهيوني، وساهمت في بلورة المؤسسات الصهيونية الكبيرة، وشكلت القيادات المختلفة، كما أسست لمجمل الخدمات اليهودية من مؤسسات تعليمية وخيرية وصحية وبنوك وشركات وكيبوتسات ومصانع، علاوة على العمل العبري. وإلى جانب هذا، نشأ الصراع المسلح مع سكان فلسطين الذين قاوموا المشروع بشدة، بعد أن أصبحت معالمه واضحة للعيان.

ويتفاخر الأدب الإسرائيلي بالأحياء اليهودية الجديدة التي نشأت في غرب المدينة، حيث لم يكن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أي حي يهودي منفصل أو مقتصر على اليهود، بما فيه حارة اليهود في البلدة القديمة، التي كان يسكنها أخلاط من المسلمين واليهود، وكانت حارة ضيقة ووضعها العام مزري. أما في نهاية القرن التاسع عشر، فقد نشأت الأحياء اليهودية الجديدة خارج أسوار البلدة القديمة، مكنت اليهود من الاستقلال داخلها وتطبيق الشريعة الموسوية كما تراها. كما شكلت هذه الأحياء حاضنة للتفاعل الصهيوني وخلق ثقافة مشتركة وتجذير العلاقة مع القدس. وظهر خلالها أيضا أدبا عبريا حول المدينة والتراث اليهودي فيها، ودخلت القدس إلى ميدان الفنون العبرية المختلفة سواء التعبيرية أو الأدائية أو التشكيلية، كما تم إنشاء العديد من المطابع والصحف والنشرات الدورية التي تقوم بتعزيز علاقة اليهودي بالقدس.

لقد شكلت الأحياء اليهودية المستقلة أيضا فرصة للتظاهر بوجود «عمارة يهودية» ونسيج معماري واجتماعي يهودي. صحيح بأن الطرز المعمارية التي سيطرت على الأحياء اليهودية لم تختلف أبدا عن تلك التي استعملت في

Digitized by Birzeit University Library

الأحياء العربية الجديدة، لكنه ظهر العديد من المعماريين اليهود الذين بدأوا بالعمل في المدينة وقد حاولوا جاهدين إدخال رموز معمارية سموها يهودية. إذا شهدت القدس محاولة جادة لإبراز الوجود اليهودي وتجذيره.

يقدم الإسرائيلي دور غولد (Dore Gold)[1] رواية إسرائيلية رسمية لتاريخ القدس لهذه الفترة، والتي امتدت حتى عام 1948، وجل اهتمام هذا الرجل هو إثبات العلاقة الوطيدة بين اليهود والقدس من جهة، ومحاولة إثبات أن اليهود قد أصبحوا يشكلون الأغلبية السكانية في القدس منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لقد سبق وتعرضنا لمسألة الإحصائيات السكانية في القرن التاسع عشر، ولا داعي لنقاشها من جديد. ولكن الجديد في حواره هو محاولة إثبات اعتراف دولي بحق اليهود التاريخي بالقدس بشكل خاص، وبفلسطين بشكل عام. يستشهد دور غولد برسالة أرسلها الراهب المودوستي وليام بلاكستون (William Blackstone) إلى الرئيس الأمريكي بنجامين هاريسون (Benjamin Harrison) وإلى وزير الخارجية الأمريكية جايمس بلاين (James Blaine) يطالبهم بها عام 1891 بإعادة فلسطين إلى اليهود. ويؤكد غولد على أن هذه الرسالة قد عبرت عن الأجواء السياسية عند طبقة الحكام الأمريكيين حول أهمية «إعادة» فلسطين لليهود[2]. وبعدها

(1) عمل دور غولد رئيسا لمركز القدس للعلاقات العامة، كان سفير إسرائيل في الأمم المتحدة (1997–1999)، وكان مستشارا لرئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو. ما كنا لنناقش بعض أفكاره العنصرية هنا ولا فهمه غير السوي للتاريخ، إلا من منطلق تمثيله للرواية الرسمية الإسرائيلية، وانتشار كتابه المذكور في الأوساط اليهودية الأمريكية.

(2) Dore Gold. *The Fight for Jerusalem: the Radical Islam, the West, and the Future of the Holy City*, Washington 2007, pp. 219ff. من المثير ملاحظة زج مجموعة من الاصطلاحات داخل عنوان الكتاب، بحيث يجند أولا القارئ ضد الإسلام الذي يناقش فيه الراديكالية، ثم يزج الغرب في هذا النقاش لعبا على أحداث سبتمبر والقاعدة، وبعدها يطرح «مستقبل المدينة المقدسة»، وهو اصطلاح مسيحي بالأساس، والعنوان يعكس محاولة تجنيد للغرب في مواجهة الإسلام من جهة وفي المطالب الإسرائيلية بالسيطرة على القدس في المستقبل، فيقدم تنازلا بتسميتها «المدينة المقدسة».

Digitized by Birzeit University Library

يسرد مواقف مجموعة من المؤسسات الأوروبية والدولية في محاولة من قبل يهود العالم لتشكيل رأي عام عالمي مؤيد للمشروع الصهيوني في فلسطين.

لم يتضايق غولد أبدا من أن الراهب الأمريكي المذكور كان يناقش الأمر من زاوية مسيانية مسيحية ليس لليهود علاقة بها سوى أنهم حجر شطرنج في الموضوع، وأنهم الأداة وليس الهدف، كما لم يضايقه اقتباس راهب ويستعمله كمدخل للشرعية الدولية.

وجاءت الفرصة السانحة أمام الحركة الصهيونية بعد هزيمة الدولة العثمانية، التي شكلت سدا، ولو غير منيع، أمام المشروع الصهيوني، فانطلق المشروع بعدها مزودا بدعم بريطاني غير محدود تم ترسيمه لاحقا بوعد بلفور، وبالحركة المسيانية الإنجيلية البريطانية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لقد شهدت هذه الفترة دعما بريطانيا بمستويات مختلفة غير متناه للمشروع الصهيوني.

شكلت القدس إحدى التعبيرات الدرامية للصراع الفلسطيني اليهودي على أرض فلسطين، وكانت تعبيراته الأشد درامية ما اصطلح على تسميته بثورة البراق عام 1929، وإن كان الصراع على عدة أمتار من السور الغربي للحرم الشريف، لكنه عبر عن الاحتقان الحاصل مع الحركة الصهيونية بدعم من بريطانيا. يكتب الإسرائيليون من وجهة نظرهم أنهم لم يستطيعوا مأسسة وجودهم في أهم مقدساتهم، وهو حائط المبكى، «البقية الباقية من الهيكل الثاني»، حيث أن الفلسطينيون، الأوقاف الإسلامية بالتحديد، قد منعوهم من وضع أدوات العبادة في معبدهم، وبالتالي منعوهم من حقهم في ممارسة حقوقهم وحرياتهم الدينية، وبعدها قاموا بالاعتداء عليهم في كل من القدس والخليل ويافا[1].

(1) حول المواقف الإسرائيلية من ثورة البراق، أنظر:
Tom Segev, *One Palestine Complete*, New York, 1999, pp. 294-327; Benny Morris, *Righteous Victims*, New York, 1994, pp. 111-120.

Digitized by Birzeit University Library

شكلت ثورة البراق[1] انعطافا حادا لدى الرومانسيين من اليهود، خاصة الذين جاءوا إلى فلسطين بخلفيات اشتراكية (من روسيا وشرق أوروبا)، والذين أمنوا بأن العرب سيقبلون بالمشروع الصهيوني وسيتعايشون معه كحقيقة واقعة، وذلك دون الحاجة إلى مواجهات دامية، فتغلبت عنصريتهم بسرعة مذهلة على تفكيرهم. لم ينبع هذا الاعتقاد من خلفية أن القادمين الجدد من المستعمرين أصحاب حق، لكنه نبع أيضا من خلفية استعلاء حضاري، يبيح المجال للأكثر تطورا (حضاريا) أن يستعبد الأقل تطورا (حضاريا)، وهي مسألة لا تبعد كثيرا عن فكرة الشعب المختار التي ناقشناها في غير موقع من هذه الدراسة. وكان أحد الشخصيات الهامة في هذا المعسكر هو الكاتب اليهودي الشهير شاي أغنون (Shai Agnon)[2]، الذي كتب «أنا لا أكرههم (أي العرب) ولا أحبهم، لكنني لا أتمنى أن أرى

(1) تم الاحتكام إلى عصبة الأمم بناء على توصية لجنة شو (وهي لجنة شكلتها الحكومة البريطانية للتحقيق في الأحداث)، والتي حددت الفرقاء الثلاثة: حكومة الانتداب والعرب واليهود. قبلت عصبة الأمم، وألفت لجنة من ثلاثة أشخاص غير بريطانيين أحدهم متضلعاً في القانون وخبيراً في القضاء، وهم: اليل لوفغرن، شارلس بارد، وس. فان كمبن. أقرت اللجنة أن للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي باعتباره جزء لا يتجزأ من مساحة الحرم الشريف، كما تعود للمسلمين ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط. كما أقرت اللجنة أنه لا يجوز لليهود جلب أية أدوات عبادة أو وضع مقاعد أو سجاد أو كراسي أو ستائر أو حواجز أو أية خيمة جوار الحائط لأنه ملكا للمسلمين (تقرير اللجنة المقدم لعصبة الأمم عام 1930)، لكنها أيضا سمحت لليهود الاستمرار بأداء الصلوات أمام الحائط كما جرت عليه العادة والتقليد. وفي أكتوبر عام 1930 أعلنت الحكومة البريطانية تعليمات جديدة تعبر عن سياسة حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين. اعتمدت التعليمات الجديدة على نصائح لجنتين بريطانيتين عينتا للتحقيق بالاشتباكات، وأمرت بتقليل عدد تصاريح الهجرة إلى فلسطين وتعسير إمكانية اليهود شراء الأراضي من العرب.

(2) معروف أيضا باسم شموئيل أغنون، أهم كاتب روائي يهودي ولاحقا إسرائيلي، حاصل على جائزة نوبل للأدب (سنة 1966)، ولد في أوكرانيا سنة 1888، ومات في القدس سنة 1970، وهاجر إلى فلسطين عام 1908، وتركها إلى برلين، ثم عاد إلى القدس خلال فترة الانتداب البريطاني، وكاعتراف إسرائيلي بأهميته طبعت صورته على عملة 50 شيكل، وذلك منذ عام 1985.

Digitized by Birzeit University Library

وجوههم. من وجهة نظري المتواضعة يجب علينا أن نبني جيتو كبير يتسع لحوالي نصف مليون يهودي في فلسطين...». إذا، كان هذا هو موقف أهم كاتب روائي بتاريخ إسرائيل، الحاصل على جائزة نوبل للأدب، فيمكن لنا أن نتصور باقي المواقف.

لم تستقيم العلاقة بعدها بين الفلسطينيين واليهود على أرض فلسطين، فقد حكمتها مقاومة شديدة بقدر ما توفر للفلسطينيين من عوامل قوة محدودة، وكانت بالتأكيد ثورة 1936 علامة فارقة بهذا التاريخ، فقد شكلت الثورة التي استمرت ثلاث سنوات، وتضمنت إضرابا شاملا استمر ستة أشهر، فرصة لليهود للتسلح من جهة، وإنهاكا للقوى الفلسطينية المقاومة من جهة ثانية، حيث تركزت المواجهات مع الانتداب البريطاني الذي قمع الثورة بشدة، بالوقت التي كانت فيه القوات الصهيونية بمنأى عن الصراع المباشر تتدرب وتجمع السلاح وتبني مؤسسات الدولة، في الوقت الذي كان فيه الشعب الفلسطيني يخسر كل إمكانياته يوما بعد يوم. إن قراءة التاريخ الإسرائيلي لهذه الفترة يعبر عن الانغماس في بناء مؤسسات الدولة، والتحضير للمواجهة الأخيرة مع الشعب الفلسطيني، وتحضير المحافل الدولية لتحقيق الحلم الصهيوني واختيار معسكر الحلفاء، وتشجيع اليهود للهجرة إلى أرض فلسطين بعيدا عن أنظار الفلسطينيين المنغمسين في الصراع ضد الانتداب البريطاني. وقد ساهم نمو العنصرية النازية الألمانية في تشجيع المزيد من يهود أوروبا على الهجرة إلى أرض فلسطين، وقد كانت القدس إحدى أهم عناوين هذه الهجرة.

وبالتأكيد لم تكن الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها، إلا وقد تعزز التحالف اليهودي الأمريكي، وأصبحت المذابح النازية ضد اليهود معروفة على مستوى عالمي، فخلق «المبرر الأخلاقي» على الصعيد العالمي

Digitized by Birzeit University Library

للتعاطف مع فكرة الحركة الصهيونية بإقامة «وطن قومي لليهود على أرض فلسطين»، وانتهت هذه الفترة بقرار التقسيم رقم 181 الصادر عن عصبة الأمم (1947).

من الواضح أن هذه المحطة قد لعبت دورا أساس في كتابة التاريخ الصهيوني، وكان لها تأثير مركزي على كتابة تاريخ القدس من وجهة نظر إسرائيلية، كما شكلت رمزا إلهاميا لمشروع مغامر، لعبت القدس دورا مركزيا في تشكيله، حيث أن «صهيون»، «هواة أو أحباب صهيون»، «الحركة الصهيونية» استمدت مسمياتها من القدس. كما لعبت القدس دور احتضان أهم المؤسسات اليهودية وقياداتها وجامعتها العبرية وأكبر مستشفياتها وأهم تجمع لليهود الأرثوذكس، وأكبر تجمع لليهود على أرض فلسطين. وبقدر هذه القوة، كان يهود القدس يعانون من مشكلة إحاطتهم من كافة الجهات بتجمعات سكانية فلسطينية واسعة، حولتهم في حقيقة الأمر إلى جيتو محاصر.

5. العمود الرابع: 1948

تدور محاور كتابة هذه الفترة حول السنوات القليلة التي سبقت الحرب، وهي محاور اشتملت على تعزيز مفهوم الهلوكوست على المستوى العالمي. أما على صعيد القدس فقد كتب الكثير عن الظلم الكبير الذي كان يقع على اليهود الذين يشكلون بالمفهوم الصهيوني الأغلبية المطلقة من سكان القدس بحدودها الانتدابية، لكنهم لا يتمتعون بحقوق موازية في السلطة والحكم المحلي. فما زال «الأغيار» يتحكمون بالمدينة بشكل عام، والبلدة القديمة بشكل خاص، وبات المبرر لحل «المسألة اليهودية» العالمية واضحا ويحظى

Digitized by Birzeit University Library

برضى ودعم دولي، وجاء القرار الدولي 181 القاضي بتقسيم فلسطين[1] مصدرا إضافيا للشرعية جديدة، التي قدمتها النازية على طبق من ذهب.

تتمحور الرواية الإسرائيلية عن مجرى الحرب حول قضية مركزية، خمسة جيوش عربية[2] هاجمت اليشوف (المستوطنات) اليهودي الضعيف والهارب من محارق النازية، وقد حاول العرب انتزاع الشرعية الدولية ومنعها من التحقق (رفض قرار التقسيم)، والحرب التي شنها العرب كانت مثل حرب داود ضد جوليات. انتصر داود عام 1948 مثلما انتصر داود قبل ثلاثة آلاف عام، بعتاد وتعداد قليلين. انتصرت الضحية التي تمت ملاحقتها. لقد استحق الشعب اليهودي بعد ثلاثة آلاف عام من الشتات أن يتجمع على أرض آباءه وأجداده ويعيد بناء دولته في ظل عالم مليء بالدول القومية، وحق له أن يكون أغلبية في مكان واحد في العالم، ويعيد لنفسه القدس عاصمة أبدية. وبالتأكيد، لن نخوض في الرد على هذه المقولات المغلوطة، والتي يسهل دحضها في ظل نشر أعداد كبيرة من الوثائق، بما فيها وثائق إسرائيلية، حول مجريات الأحداث وموازين القوى على أرض الواقع ... إلخ الوثائق تقدم صورة مغايرة تماما، لا تقبل التأويل، لما تضمه كتب التاريخ الإسرائيلية.

يتم تقديم الهمجية العربية التي حاصرت القدس الغربية ومنعت تواصلها مع تل أبيب، لكن عملا بطوليا قامت به قوات الهجانا (بقيادة

---

(1) نص قرار التقسيم على تحويل القدس والمنطقة المحيطة بها الى منطقة تحت سيادة دولية، وإنشاء نظام خاص بالقدس سمي: Corpus Seperatum.

(2) من المعروف بأن مجموع الجيوش العربية، بما فيها المقاومة الفلسطينية، كانت أقل عددا من مجموع الجيوش اليهودية، كما أن هذه الجيوش لم تستطع إنشاء قنوات تنسيق فيما بينها، بينما تمتع الجيوش الصهيونية بقيادة موحدة. أما من حيث العتاد والتسليح، فلم يكن هناك مجال للمقارنة حيث تفوقت أيضا الجيوش الصهيونية، لكن بقيت الأسطورة التي مازالت تدرس في المدارس وتسيطر على كتب التاريخ الإسرائيلية، بالرغم من عشرات الدراسات التي أثبتت عقم الرواية الإسرائيلية، بما فيها الكثير من الدراسات الإسرائيلية.

Digitized by Birzeit University Library

رابين) لفك الحصار عن القدس اليهودية، كما يتم تصوير الهمجية العربية بحصار حارة اليهود في البلدة القديمة، ومن ثم إحراق الكنس وخاصة كنيس الخربا[1] والمباني اليهودية الأخرى، كما يقوم الجيش العربي الأردني بالهجوم على قافلة الإمدادات التي كانت تسير باتجاه جبل المشارف (سكوبس) للوصول إلى مستشفى هداسا والجامعة العبرية في القدس الشرقية.

لا تتطرق الرواية الإسرائيلية حول القدس إلى اقتلاع وتهجير حوالي 70,000 فلسطيني من الأحياء العربية في القدس الغربية، ولا تهجير سكان حوالي 38 قرية من قرى القدس[2]، ولا مذبحة دير ياسين[3] التي تبعد بضع كيلومترات عن أسوار البلدة القديمة، كل هذه مجرد خسائر حرب تتم في كل

(1) يقع هذا الكنيس في وسط حارة اليهود، وكانت له قبة عالية، استخدمته قوات الهجانا (اليهودية) لإطلاق النيران على الأحياء العربية في البلدة القديمة، قتل جرائها العديد من سكان البلدة القديمة ومن ضمنهم مدنيين، وتضررت العديد من المباني ومن ضمنها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. قام الجيش العربي الأردني بقيادة عبد الله التل، بتحذير القوات اليهودية بعدم استخدام الأماكن المقدسة كثكنات عسكرية وخاصة الكنيس المذكور وإطلاق النيران من فوقه، وتم توثيق التحذير بواسط الصليب الأحمر الدولي الذي حمله للقوات اليهودية، لكن استمر إطلاق النيران من فوق قبة الكنيس، فقام الجيش الأردني بقصفه مما أدى إلى حرقه وتدمير الجزء الأكبر منه. قامت إسرائيل بعد العام 1967 بترميم جزء منه، وأبقت أجزاءه الأخرى مدمرة كشهادة على الوحشية العربية، وبعد أن تم استنزاف هذه الوظيفة الدعاوية، وبعد أن تم نشر صور الكنيس المحترق في كل الكتب والصحف وعلى صفحات الانترنت، جرى إعادة بناء الكنيس من جديد وتدشينه عام 2008.

(2) زيادة في طمس القرى الفلسطينية التي جرى تدميرها وإخفاء مشهدها الثقافي، تم غرس أشجار حرجية بعد العام 1948 على مساحة تصل إلى أكثر من 4500 دونم (الدونم 1000 متر مربع)، على السفوح الغربية للقدس، وتحت أشجار هذه الغابة الوريفة كانت تقع القرى الفلسطينية التالية: عين كارم، وبيت مزمير، وحورش، وصوبا، وصطاف، والجورة، وبيت أم الميس، وجزء من أراضي دير ياسين، ولفتا. أنظر تاريخ هذه القرى وحجم سكانها وملكياتها وشتاتها والمعارك التي جرت على أطرافها: وليد الخالدي (محرر) **كي لا ننسى: قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل عام 1948**، الطبعة الثالثة، بيروت 2001. في الكتاب المذكور يمكن العودة إلى كل قرية من القرى المذكورة أعلاه ضمن قرى القدس.

(3) حول مذبحة دير ياسين أنظر: وليد الخالدي، **دير ياسين: الجمعة 9/ 4/ 1948**، القدس، 1999.

Digitized by Birzeit University Library

الحروب. فاللاجئون الفلسطينيون قد هجروا أحيائهم وقراهم لوحدهم[1]، وترك الناس بيوتهم وممتلكاتهم وذكرياتهم لوحدهم، أما المسؤول عن ذلك فهي الدعاية العربية والتهويل الشعبي من أنباء المعارك[2].

وبعد ذلك يتم التباكي على عدم سماح الأردن لليهود الإسرائيليين من زيارة البلدة القديمة، التي احتلتها قهرا القوات الأردنية، بالرغم من أن اتفاقية الهدنة التي تم توقيعها مع الأردن تنص على السماح لليهود الوصول إلى حائط البراق وإقامة الشعائر الدينية[3]. لم تقم الأردن باحترام التراث اليهودي في القدس القديمة، فقد تركت أملاك اليهود وكنسهم ومدارسهم الدينية تتهاوى، حتى أنها أسكنت فقراء اللاجئين في حارة اليهود، وحولت الكنس اليهودية المقدسة إلى مباني سكنية[4].

---

(1) حول إخلاء وتهجير الأحياء الفلسطينية في غرب القدس، أنظر: ناثان كريستال، «سقوط المدينة الجديدة»، في كتاب **القدس 1948، الأحياء العربية ومصيرها في حرب 1948**، تحرير سليم تماري، القدس، 2003، ص 113-177.

(2) حول نقاش الموضوع يمكن العودة إلى ايلان بابية، **التطهير العرقي في فلسطين**، ترجمة أحمد خليفة، بيروت، 2007. كما يمكن مقارنته بأعمال بني موريس المذكورة في جنبات الدراسة. كما يمكن مراجعة كافة كتابات المؤرخون الجدد في إسرائيل لدى: دومنيك فيدال، **خطيئة إسرائيل الأصلية: المؤرخون الجدد الإسرائيليون يعيدون النظر في طرد الفلسطينيين**، ترجمة جبور الدويهي، بيروت، 2002.

(3) حقيقة لم تسمح الأردن للإسرائيليين بزيارة البلدة القديمة 1948-1967، لأن إسرائيل لم تسمح للاجئين الفلسطينيين العودة إلى ديارهم التي اقتلعوا منها، كما لم يكن بمقدور الأردن حماية الإسرائيليين في البلدة القديمة التي كانت تعج باللاجئين الفلسطينيين الذين اقتلعوا من الأحياء الغربي للمدينة ومن أريافها الغنية، كما أن حالة الحرب لم تكن قد انتهت بين الدولتين.

(4) وضعت الأردن الأملاك اليهودية في القدس تحت سلطة حارس أملاك الغائبين، ولم تقم بمصادرة أي عقار، صحيح جدا أن الأردن لم تقم بالاستثمار في هذه الممتلكات، التي سكنها المقتلعون من بيوتهم في القدس الغربية وقرى القدس، لكنها لم تقم بتدميرها ولا زراعة غابات على أنقاضها. إن التباكي على ذلك من قبل الإسرائيليين يوحي بأن إسرائيل قد قامت بحماية ممتلكات اللاجئين الفلسطينيين في القدس الغربية أو في أي مكان آخر قامت باحتلاله، ولم تقم بمصادرتها. يذكر بأن إسرائيل قد قامت خلال ثلاث سنوات من إنشائها بتدمير أكثر من 500 قرية وبلدة وطمست معالمها، ومصادرة أراضيها، علاوة على مصادرة كل البيوت العربية في

Digitized by Birzeit University Library

على أية حال، تحولت القدس إلى مدينتين متحاربتين تفصلهما الأسوار والأسلاك الشائكة. وتظهر في كتب التاريخ الإسرائيلية نظرات الحنين إلى البلدة القديمة، كما جرى رفع المباني المطلة عليها من جهة الغرب ليتسنى للإسرائيليين النظر إلى البلدة القديمة التي احتلتها قوات الاحتلال الأردنية، كما جرى تطوير مقام النبي داود: المسجد والزاوية وغرفة العشاء الأخير وحي الداودية كأقرب نقطة إلى البلدة القديمة بحيث تصبح مكانا مقدسا بديلا.

يمثل عام 1948 في الأدب الإسرائيلي إعلان استقلال دولة إسرائيل في القدس، وهو نفس الإعلان الذي أعلنه الملك داود قبل 3000 عام، لذلك شكل هذا التاريخ محطة هامة في الكتابة التاريخية الإسرائيلية للقدس.

6. العمود الخامس: 1967

إسرائيل ضحية من جديد، فقد تم حصارها عبر القومية العربية الممثلة بالناصرية والبعث، وجرت محاولات خنق إسرائيل بإغلاق مضائق تيران المؤدية إلى البحر الأحمر، وتنامت القوات العربية التي أعلنت نيتها القضاء على إسرائيل ورمي اليهود في البحر، وقامت القوات العربية من ثلاث جبهات بمهاجمة إسرائيل: الجبهة المصرية من الجنوب، والجبهة السورية من الشمال والجبهة الأردنية من الشرق بدعم من القوات العراقية واللبنانية والسعودية والمغربية والجزائرية ...الخ، فما كان من إسرائيل المسكينة، إلا وأن دافعت عن نفسها أمام هذا الهجوم البربري الكاسح. لذلك، فإن حرب

المدن المختلفة، وبعدها تبكي على بضع مبان في البلدة القديمة من القدس. أنظر الخالدي، كي لا ننسى، مصدر سبق ذكره.

Digitized by Birzeit University Library

عام 1967 تماما مثل حرب عام 1948 هي حرب دفاعية، هي حرب داود ضد جوليات، هي حرب منع القضاء على اليهود. وزيادة في تجليات البطولة فقد سمتها إسرائيل بحرب الأيام الستة.

وتجلت البطولة الإسرائيلية مرة ثانية واستطاعت أن تهزم العالم العربي مجتمعا، وأعلنت أكثر من مرة بأنه كان بمقدور قواتها احتلال كل من القاهرة ودمشق وعمان، لكنها لم تفعل. ومن أهم نتائج هذه الحرب هو بالإضافة إلى احتلال الكثير من الأراضي العربية (سيناء، وهضبة الجولان، والضفة الغربية وقطاع غزة) احتلال باقي القدس، حيث تم السيطرة على كل القدس بشرقها وغربها. كان دخول القوات الإسرائيلية إلى البلدة القديمة مدويا، شارك فيه كبار رجال الدين والدولة ... وأخيرا وبعد 3000 سنة يسيطر اليهود على البلدة القديمة من القدس (مدينة داود)، ويصبح حائط البراق البقية الباقية من الهيكل الثاني ملكية يهودية بحتة، وأخيرا يستطيع اليهود ليس وضع طاولات الصلاة وخزائن التوراة بالقرب من حائط البراق وحسب، بل أيضا تدمير حارة المغاربة كلها لإنشاء ساحة واسعة أمام الحائط. ورقص الجنود ورجال الدين على أنقاض حارة المغاربة بنشوة انتصار تاريخية لا يمكن وصفها، كما رفع العلم الإسرائيلي فوق هلال قبة الصخرة.

وتم تأليف الأشعار والروايات والأغاني والأناشيد العسكرية ونحتت التماثيل ورسمت اللوحات تخليدا لهذه اللحظة، لحظة وصول القوات الإسرائيلية إلى حائط البراق، عاد هنا داود من جديد، رافعا راياته على قدس الأقداس. وتم ضم القدس العربية الشرقية إلى إسرائيل والإعلان عن القدس الموحدة عاصمة لدولة إسرائيل وللأبد[1]، وشرعت القوانين التي

(1) وما كان من الرئيس الأمركي ترامب إلا أن اعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل، وبهذا فهو لا يعبر عن الأمر الواقع كما ادعى، بل على النبؤة الدينية التي يؤمن بها هو ومناصريه من المحافظين الجدد.

Digitized by Birzeit University Library

تحمي هذا الإعلان وطلب من العالم الاعتراف بذلك، ولحق ذلك توسيع حدود البلدية بشكل مذهل وجنوني، ليبدأ مصنع الاستيطان ومصادرة الأراضي وطرد السكان الفلسطينيين وتهويد المدينة.

Digitized by Birzeit University Library

[illegible]

[illegible] مرة ثانية واستطاعت أن تهزم العالم العربي [illegible] بأنه [illegible] فوائد الاحتلال كل من القاهرة ودمشق وعمان [illegible] الحرب هو بالإضافة إلى احتلال الكثير من الأراضي العربية (سيناء وهضبة الجولان، والضفة الغربية وقطاع غزة) احتلال الجزء الشرقي من القدس حيث تم السيطرة على كل القدس شرقها وغربها [illegible] الإسرائيلية إلى البلدة القديمة مدوياً [illegible] وأخيراً وبعد 3000 سنة يسيطر اليهود على البلدة القديمة من القدس (مدينة داوود) ويصبح حائط البراق [illegible] يهودية [illegible] وأخيراً يستطيع اليهود ليس [illegible] بالقرب من حائط البراق وحسب، [illegible] ساحة واسعة أمام الحائط. ورقص [illegible] بشرى انتصار تاريخية لا [illegible] رفع العلم الإسرائيلي فوق هلال قبة الصخرة.

[illegible] الأشعار والروايات والأفلام والأناشيد العسكرية وتحدثت [illegible] هذه اللحظة، لحظة وصول القوات الإسرائيلية إلى حائط البراق [illegible] داود من جديد، رافعا راياته على [illegible] القدس العربية الشرقية إلى إسرائيل والإعلان عن القدس الموحدة عاصمة أبدية لإسرائيل [illegible] (1) وشرعت القوانين التي

[illegible]

Digitized by Birzeit University Library

رابعاً: المسجد الأقصى، القلعة الأخيرة

من الواضح بأن أم المعارك في القدس تدور حول المسجد الأقصى حاضره ومستقبله. فهل بات المسجد الأقصى من المعاقل الأخيرة في القدس التي تحاول إسرائيل السيطرة الكاملة والحصرية عليه، وذلك لاستكمال الرواية الإسرائيلية حول تاريخ القدس وإعادة تركيب هذا التاريخ عبر أهم معالمها، وبالتالي التخلص من هذا الرمز الرابض في المدينة والمسيطر على أفقها، والمشكل لهويتها الأساس؟

تسمى نفس المنطقة التي يقوم عليها الحرم الشريف بالتراث اليهودي والإسرائيلي بـ«جبل موريا» أو «جبل الهيكل». وترتبط اليهودية بعلاقة وطيدة خاصة به، فهو بالنسبة لهم موقع هيكل سليمان (الهيكل الأول) الذي دمره نبوخذ نصر البابلي سنة 586 ق.م (بغض النظر عن الحقيقة التاريخية)، وهو الموقع الذي أقام عليه الملك هيرودوس الهيكل (الهيكل الثاني) الذي دمره طيطس الرومان سنة 70م. ويعتقد في اليهودية بأنه على «جبل الهيكل» خلق الله أول إنسان، كما أن إبراهيم قد قدم ابنه إسحاق قربانا لله على الجبل. وحتى دمار الهيكل سنة 70م حج اليهود إلى الجبل 3 مرات سنويا، وهو قبلة اليهود في صلاتهم حتى اليوم، وارتبط بالجاليات اليهودية المنتشرة في كل أنحاء العالم برباط وثيق. عدا عن ذلك تطورت علاقة مميزة بين الطرق الصوفية والمسيانية اليهودية والجبل بشكل لا يمكن فهمه إلا من خلال النستلجيا التي نمت عبر القرون.

Digitized by Birzeit University Library

هناك اعتقاد شديد، على الأغلب لا يختلف بين المتدينين وغير المتدينين (علمانيين) بأن «جبل الهيكل» هو المركز الروحي للشعب اليهودي في كل أماكن تواجده، وأن العلاقة الروحية هذه لم تبدأ بالصهيونية، بل كانت موجودة على مر العصور. وتختلف المواقف غير الروحية بين المتدينين وغير المتدينين بخصوص مستقبل جبل الهيكل، ففي حين يطالب العلمانيون والمتدينون الوطنيون بسلطة ما، أو حتى بإعادة بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، يتجه المتدينون الأرثوذكس إلى حد عدم السماح بزيارة الحرم الشريف (جبل الهيكل)، في حين يسمح بعضهم بزيارة أماكن معينة منه. ويتجه الأرثوذكس باتجاه أن الهيكل سيهبط من السماء بعودة المسيح المنتظر، وبالتالي لا داعي لسيادة يهودية/ إسرائيلية على الموقع حتى لا تؤخر عودة المسيح المنتظر، بل ويسمح للمسلمين باستمرار سيطرتهم عليه إلى حين عودة المسيح المنتظر. تعرضت المجموعة الأخيرة إلى الكثير من تغيير مواقفها بخصوص هذا الموضوع، وبعضها قد اتجه نحو الموقف «القومي»، حتى أصبح هذا التيار ينتشر ويزداد في كل عام، خاصة مع زيادة تأثيره في حكومات الليكود المعاقبة، وخاصة حكومة بنيامين نتنياهو، حيث يشكل المتدينون الوطنيون نسبة هامة في هذه الحكومة.

ومن الجدير بالذكر، ليس فقط وجود حركات كثيرة تدعو إلى إعادة بناء «الهيكل»، بل أن بعضها قد دخل في أكثر التفاصيل دقة للتحضير لهذه العملية. وفي معرض تطوير العلاقة بين «الهيكل» وإسرائيل، جرى تطوير نماذج ثلاثية الأبعاد كما تصورته الكتب التاريخية[1]، وعرضت في أماكن عدة أهمها فندق هولي لاند (Holy Land Hotel) ومتحف تاريخ القدس في القلعة، ومتحف الهيكل في حارة اليهود، حيث يؤمه الكثير من الزوار خاصة طلبة المدارس.

(1) خاصة كتاب المؤرخ اليهودي الروماني فلافيوس متتياهو يوسيفوس.

Digitized by Birzeit University Library

ومن الجدير ملاحظته أيضا، بأن بعض الحركات الدينية والسياسية، بالإضافة إلى بعض الأكاديميين، يعتبرون أن الهيكل يشمل أيضا البوابات التي تقود إليه مثل الباب الذهبي (باب الرحمة)، وباب الأسباط، الباب المزدوج (أسفل المسجد الأقصى في الجدار الجنوبي، وهو مغلق)، والباب الثلاثي (في الجدار الجنوبي يقود من خارج المدينة إلى المصلى المرواني/ إسطبلات سليمان، وهو مغلق)، وبدرجة أقل باقي بوابات الحرم وأسواره.

أما الموقع الثاني المرتبط بالمسجد الأقصى ويشكل جزءا منه، فهو حائط البراق، والذي يسمى بالرواية الإسرائيلية «حائط المبكى» أو «الحائط الغربي» والذي يتعبروه البقية الباقية من «الهيكل الثاني».

في الحقيقة لا نملك معلومات تاريخية حول كيفية بدأ تقديس الجدار الغربي للحرم الشريف من قبل اليهود قبل القرن السادس عشر الميلادي، وأغلب الروايات تتحدث عن ممارسة اليهود لطقوسهم من على جبل الزيتون باتجاه المدينة، وفي بعض الأحيان بالقرب من باب التوبة والرحمة[1]. ويبدو بأن ممثلي اليهود قد تطلعوا للصلاة باتجاه الحائط الغربي في الفترة العثمانية. وبسبب التسامح العثماني، سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية في ساحة ضيقة، لا تتجاوز خمسة أمتار عرضا (5-3,5)، وبطول حوالي 28 مترا. اصطلح على تسمية هذا الجدار بالاصطلاح العربي «حائط البراق» نسبة إلى ربط هذا الحائط بحادثة الإسراء والمعراج، حيث يعتقد المسلمون بأن الرسول (عليه السلام) قد ربط براقه بهذا الجدار قبل دخوله ساحات الحرم الشريف للصلاة بالأنبياء ليلة معراجه إلى السماء. أما الاصطلاح الغربي المستخدم فهو

(1) بوابة أموية، بنيت في نفس فترة بناء قبة الصخرة، أغلقت في الفترة العثمانية بالحجارة، وهي محل أطماع الإسرائيليين، حيث حرمت الأوقاف الإسلامية من استعمال قاعاته الضخمة منذ حوالي عقد من الزمان، وهذا يضعها في بؤرة الخطر، وليس من المستغرب أن يتم صناعة رواية دينية يهودية حولها، لتبرير السيطرة عليها.

Digitized by Birzeit University Library

حائط المبكى (The Wailing Wall)، (جاءت التسمية لبكاء اليهود على دمار الهيكل) وهو لا يختلف في حجمه عن الوضع كما كان عليه حتى حزيران سنة 1967، في حين يستخدم اليهود، والإسرائيليين الآن، اصطلاح الحائط الغربي (The Western Wall)، وبالعبرية (هاكوتيل همعرفي)، ولم تظهر فكرة اشتمال الاصطلاح على كل الجدار الغربي للحرم الشريف إلا حديثا. ويعتبر الحائط أكثر الأماكن اليهودية قدسية، حيث يعتبرونه الجزء المتبقي من الهيكل الثاني.

استخدم اليهود هذا الجزء من الحائط، دون ملكية، ودون إمكانية وضع أشياء ثابتة فيه حتى عام 1925م وبدون ظهور أية مشكلة، حيث أن ملكية الحائط كانت محسومة للمسلمين، وأن ممارسة الطقوس اليهودية فيه كانت بإذن من المسلمين الذين اعتبروا الحائط جزءا لا يتجزأ من الحرم الشريف، عدا عن أهميته بالنسبة لذكرى الإسراء والمعراج. وقد ذكرنا ذلك أعلاه.

في سبتمبر عام 1925، حاول اليهود ادعاء حقهم في تحويل الساحة، التي سمح لهم بالصلاة فيها، إلى كنيس عبر إحضار بعض الطاولات والكتب والكراسي، في محاولة لتثبيت «حقهم» في الموقع على اعتبار أن هذا الجدار هو جزء من الهيكل الثاني الذي دمره القائد الروماني طيطس عام 70 ميلادية. وقد كاد الخلاف مع المسلمين ان يتحول إلى معركة، تخفي ورائها قصص أخرى تتعلق بنمو أعداد اليهود في القدس بشكل كبير، عدا عن اتضاح المشروع الصهيوني، لولا تدخل قوات الانتداب البريطاني التي فضت النزاع بين الطرفين، متمسكة بقوانين الوضع الراهن status quo التي وضعها العثمانيون في منتصف القرن التاسع عشر، وبقيت تلك الترتيبات، نظريا إلى اليوم، الحاكم في الخلافات التي تنشئ بين الأطراف المختلفة في الأماكن المقدسة (خاصة المسيحية).

Digitized by Birzeit University Library

بعد ثلاث سنوات (سنة 1928) تجدد الخلاف بمطالبة اليهود بإلغاء القرار البريطاني القاضي بالحفاظ على الوضع الراهن، وذلك عبر إحضار وتثبيت ستارة في الموقع يوم الغفران 9 آب 1928 (عيد دمار الهيكل الثاني)، مما دفع حارس الموقع البريطاني إلى إزالتها على اعتبار أنها تشكل تحديا للقرار البريطاني السابق، وأنها قد تقود الى خلق مشكلة. ويذكر بأن المؤتمر الإسلامي الأول قد عقد بالقدس في نوفمبر نفس العام، حيث أكد، بالإضافة إلى القضايا الأخرى المطروحة على جدول أعماله، رفض المسلمين في كل بقاع الأرض إحداث أي تغيير على الوضع الراهن السائد في حائط البراق. على أي حال فقد توالت الأحداث، التي ارتبطت جزئيا بالصراع على هذا الجدار، وفي صورتها الشاملة آخذة شكل مناهضة الصهيونية والهجرة اليهودية وسياسة نقل ملكيات الأرض، لتندلع في نهاية المطاف في شهر آب 1929 على شكل ثورة، عرفت بالتراث الفلسطيني بـ«ثورة البراق»، والتي شكلت على أثرها لجنة شو Sir Walter Shaw، التي قامت بدراسة أسباب الثورة.

لم تتغير في نهاية المطاف العلاقة المحكومة بـ«الوضع الراهن» بين المسلمين واليهود في هذه المنطقة، حيث أكد الانتداب البريطاني أكثر من مرة الملكية الإسلامية للحائط الغربي للحرم الشريف بكل مكوناته، لكنه اعترف أيضا بحق اليهود بإقامة شعائرهم الدينية هناك كما جرت عليه العادة والتقليد، دون إدخال أي تعديلات عليه. وطوت حرب 1948 المشكلة، بالرغم من ظهورها في محادثات الهدنة الإسرائيلية الأردنية، حيث أقرت الأردن بحق اليهود الوصول إلى حائط البراق، الأمر الذي لم يتسنى تحقيقه بسبب حالة الحرب التي سادت بين الطرفين، وعدم قدرة، وقد يكون عدم رغبة، الأردن تنفيذ مثل هذا الشرط، حيث منع الفلسطينيون من ممارسة أي شيء من هذا القبيل، بما فيها حقهم بالعودة إلى ديارهم التي اقتلعوا منها.

Digitized by Birzeit University Library

لقد جرى لبس مقصود في المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية التي عقدت في كامب ديفيد وطابا، واتضح الخلاف في استعمال المصطلحات حين قدم الرئيس الأمريكي السابق كلينتون معاييره للحل، فقد استعمل الجانب الإسرائيلي اصطلاح The Western Wall وهو نفس الاصطلاح الذي استعمله كلينتون. والجدير بالذكر بأن هذا الاصطلاح قد يعني كل الجدار الغربي للحرم الشريف، في حين أن اصطلاح حائط المبكى أو حائط البراق يعني جزء من الحائط الغربي للحرم لا يتجاوز 28 مترا طولا و 3 – 4 م عرضا، وهو المتعارف عليه منذ القرن السادس عشر حتى عام 1967، وقد جرى توسيعه عقب تدمير حارة المغاربة في نفس العام ليصل في وضعه الحالي إلى 60م، في حين أن طول الجدار الغربي للحرم الشريف بما فيه حائط البراق يبلغ حوالي 470 مترا. وكما ذكرنا سابقا فان إسرائيل قد سجلت حوالي 100م من هذا الجدار كأملاك للدولة ولم تقم بتسجيل كل الجدار الغربي (470م) وذلك بعد عام 1967، ملغية بذلك كل قرارات المحاكم البريطانية وما اصطلح على تسميته بـ«الوضع الراهن».

تسيطر وزارة الأديان الإسرائيلية سيطرة كاملة على ساحة حائط البراق وعلى الحائط نفسه بما يحتويه من مرافق، وتمنع الفلسطينيين (على الأغلب) من زيارته واستخدام باب المغاربة المؤدي إلى الحرم الشريف، إلا نادرا. وتتشارك وزارة الأديان مع دائرة الآثار الإسرائيلية بالإشراف على الحفريات الأثرية التي تجري في الموقع، في حين تستقل دائرة الآثار بالزاوية الجنوبية الغربية للحرم (إلى الجنوب من باب الحرم/ القصور الأموية (باب المغاربة).

إذا هناك حرب روايات حول تاريخ المسجد الأقصى، وفي الحقيقة أن هذه «الحرب المفتوحة» هي جزء من صورة أكثر شمولية تدور في البلدة

Digitized by Birzeit University Library

القديمة ومحيطها، وهو ما يسمى إسرائيليا «الحوض المقدس» (Holy Basin)، وضمن هذا الإطار الأوسع يمكن فهم السيطرة على الرواية التاريخية عبر سلسلة المتاحف والحفريات الأثرية والأنفاق تحت البلدة القديمة ومحيطها، كما يضاف إلى ذلك السيطرة على المشهد الثقافي للمدينة ووسمه بهوية يهودية إسرائيلية، وتنظيم المعارض على أسوار المدينة العثمانية وفي قلعتها وأحيانا أيضا في أزقتها، وبالتأكيد تغريب الإنسان الفلسطيني عن مدينته وتحقير وتهميش رموزه الدينية والثقافية.

لقد بدأ مخطط السيطرة على المسجد الأقصى فعلا في حزيران عام 1967، وأن الخطوات الإسرائيلية الأخيرة قد جاءت كحلقة هامة في سلسلة طويلة من الإجراءات اتجاهه. وبالرغم من هذا، فإن نضال الشعب الفلسطيني للحفاظ على رموزه في المدينة، خاصة الدينية، لكن ليس فقط، قد أدى أحيانا إلى إفشال بعض المخططات وتعطيل تنفيذ مخططات أخرى، وهو نضال قد جبى الكثير من الأرواح.

وبسبب اشتداد النضال الفلسطيني والتدخلات الدولية بشأن المسجد الأقصى خاصة الأردنية والتركية والمصرية والمغربية والسعودية، وقدرة المسجد على إشعال الحرائق تتراجع إسرائيل عن تنفيذ مخططاتها، ولو إلى حين، لتعيد الكرة من جديد مستغلة انشغال العالم بقضايا كبيرة، مثل ما يحدث اليوم في العالم العربي من حروب أهلية شلت مقدرات الكثيرين، وأشغلت العالم عن القضية الفلسطينية، مما يجعل الفلسطينيين، وخاصة المقدسيين، مكشوفين تماما أمام الآلة الإسرائيلية، مما يزيدهم إحساسا بالعزلة، لكن أيضا يزيدهم تصميما.

Digitized by Birzeit University Library

بالتأكيد لم تشكل «الزيارة»[1] الاستفزازية لرئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق أريئيل شارون إلى المسجد الأقصى بتاريخ 28 سبتمبر 2000[2]، علامة على بداية الانتفاضة الفلسطينية الثانية (انتفاضة الأقصى) وحسب، والتي استمرت حوالي خمس سنوات، لكنها كشفت أيضا عن عقدين من العلاقة المعقدة التي نسجتها إسرائيل تدريجيا وعبر خطوات صغيرة متتالية حول المسجد الأقصى، وبغض النظر عما آلت إليه الأمور ما بعد «الزيارة»، إلا أنه من الضروري النظر إليها أيضا ضمن العلاقات الحزبية الإسرائيلية الداخلية، حيث لم تكن الزيارة بقصد التعبد على «جبل الهيكل» أو تعبيرا عن «العلاقة العاطفية» التي تربط شارون كـ«يهودي» بالموقع[3].

---

(1) كان شارون في حينها زعيما للمعارضة الإسرائيلية في الكنيست، وقد رافقه بتلك الزيارة وفدا من أعضاء الكنيست من حزب الليكود، وذلك تحت حراسة مشكلة من مئات من أفراد الشرطة وحرس الحدود والقوات الخاصة، وقد كان المؤلف موجودا في ساحات المسجد الأقصى برفقة المرحوم فيصل الحسيني وبضع عشرات من الشباب لإفشال اقتحام الموقع.

(2) تم إخراج شارون من باحات الحرم الشريف بسرعة نظرا لقيام العشرات من الشبان بالاشتباك بالحجارة مع قوات الأمن الإسرائيلية، ولم يستطع شارون اتمام اقتحامه وخرج بشكل مهين، وكان قد خطط الدخول إلى المصلى المرواني (اسطبلات سليمان). وفي اليوم التالي، وكان يوم جمعة، انطلقت من باحات المسجد مظاهر الاحتجاج عقب صلاة الجمعة، كان من نتائجها إطلاق النار على المحتجين في المسجد وقتل ثلاثة منهم وجرح العشرات، وبعدها امتدت الاحتجاجات إلى باقي الأراضي الفلسطينية، حيث بدأت الانتفاضة الثانية أو ما يمس بانتفاضة الأقصى.

(3) بناء على تصريح الناطق الرسمي لحزب الليكود أفير أكونيس (Ofir Akunis)، فقد جاءت زيارة شارون بهدف «إظهار أنه تحت حكم الليكود سيبقى جبل الهيكل تحت السيادة الإسرائيلية: "... under a Likud government the Temple Mount will remain under Israeli sovereignty" *Associat Press*, September 27, 2000.

وقد أعلن شارون بنفسه أن «جبل الهيكل في أيدينا وسيبقى بأيدينا. إنه أقدس مقدسات اليهودية وأنه من حق كل يهودي أن يزور جبل الهيكل» "the Temple Mount is in our hands and will remain in our hands. It is the holiest site in Judaism and it is the right of every Jew to visit the Temple Mount", *The Guardian*. Retrieved September 28, 2014.

Digitized by Birzeit University Library

مر تطور الصراع على المسجد الأقصى عبر عدة مراحل، وقد انكشف الصراع على مصراعيه في نهاية العام 2000، وبعدها دخل بتسارع متواصل، حيث أصبحت السياسة الإسرائيلية أكثر عنفا ومشرعة على كافة المستويات ولم تعد تتم بوسائل دبلوماسية أو بأيد مخملية. وحتى يتم فهم ما يدور الآن في المسجد لا بد من استعراض هذه المراحل، ولو بشكل مختصر.

قي المرحلة الأولى سعت إسرائيل منذ اليوم الأول لاحتلال الشطر الشرقي من المدينة إلى تعزيز علاقتها بالمدينة عبر رموز وطنية ودينية، وفي الحقيقة لا يمكن الادعاء بأن العلاقة بين المنطقة التي يقع فيها المسجد الأقصى وحائط البراق هي وليدة الاحتلال عام 1967، بل هي أعمق من ذلك بكثير، ولكن تلك المكانة القديمة قد جرى تطويرها وتنميتها مباشرة بعد الاحتلال بشكل لم يسبق لها مثيل. ومن المفيد التذكير، بأن من حكم إسرائيل منذ تأسيسها وحتى العقد الثامن من القرن العشرين كانت قوى علمانية تدعي الاشتراكية (حزب العمل)، وهي بهذا بعيدة عن الدين، وإن كان الدين قد استخدم وبكثافة من أجل بناء «الهوية» المشتركة، ولكن رموزه لم تكن ذات أهمية.

بالتأكيد، تشكلت الخطوات الأولى للسيطرة أو الاقتراب منها عبر هدم حارة المغاربة وتشكيل ساحة ضخمة أمام حائط البراق لبناء الرمز الأول في القدس، وقد تمت هذه الخطوة بأيد علمانية إسرائيلية (بشكل أساس من قبل موشيه ديان وزير الحرب في حينه وتيدي كوليك رئيس بلدية القدس الإسرائيلية)، وتدريجيا تم تطوير هذا الحائط كقبلة دينية مركزية أضيف إليها رموز سياسية، وذلك بشكل متسارع ومتشابك، بحيث بات على كل مجند في الجيش الإسرائيلي أن يحلف يمين الولاء لدولة إسرائيل في ساحة هذا الحائط، كما أصبح كل فائز بالانتخابات الإسرائيلية يحث الخطى باتجاه حائط

Digitized by Birzeit University Library

البراق لتقديم الشكر، وقد يقوم بعض الساسة العلمانيين أيضا بزيارة الحائط في حملاتهم الانتخابية، وذلك بعد ما أن شاع في إسرائيل تراث أن يتخذ كل حزب حاخما يبارك خطواته.

وفي نفس العام الذي تم فيه الاحتلال، قامت القوات الإسرائيلية بمصادرة مفتاح باب المغاربة (إحدى بوابات الحرم الشريف)، والتي أصبحت تربط الحرم الشريف بساحة حائط البراق، وبهذا أصبحت القوات الإسرائيلية تتحكم بهذه البوابة، وشاركت الأوقاف الإسلامية بإدارة الموقع دون أن تتدخل مباشرة بأي شيء آخر، حيث استمرت الأوقاف الإسلامية باستعمال باقي بوابات الحرم الستة بدون منازع، كما كانت تجبي دخلا وفيرا من رسوم زيارة المسجد الأقصى، وقد فتحت الأوقاف مسجدي قبة الصخرة والمسجد الأقصى أمام كل الزوار بغض النظر عن جنسيتهم ودينهم، كما تحكمت كليا بأوقات الزيارة، تبعا لمواعيد العبادات الإسلامية اليومية والموسمية.

إدعت إسرائيل في حينه أنها لا تريد تغيير «الواضع الراهن» (status quo)، وأنها ستضمن حرية العبادات وحق الوصول إلى الأماكن المقدسة لجميع الديانات، وبهذا فقد اعتبرت سيطرتها على باب المغاربة من منطلق الحفاظ على «حق الوصول»، كما لم تعتبر أبدا هدم حارة المغاربة والسيطرة على باب المغاربة، ومصادرة عشرات العقارات الإسلامية ومنها الوقفية في حارة الشرف وأماكن أخرى من البلدة القديمة وخارجها تغييرا على «الوضع الراهن»، وبالتأكيد لم تفهم احتلال القدس ككل تغييرا على «الوضع الراهن»، بدليل ضم المدينة للسيادة الإسرائيلية.

تكللت هذه المرحلة بإدخال الشرطة الإسرائيلية وحرس الحدود بأسلحتهم تدريجيا إلى ساحات (صحن) المسجد الأقصى، والسيطرة على

Digitized by Birzeit University Library

مبنى في الجدار الشمالي لصحن قبة الصخرة وتحويله إلى مقر دائم للشرطة الإسرائيلية، بحجة «حماية الحرم الشريف من اعتداءات اليهود»، كذلك بالسيطرة على مبنى المدرسة التنكزية المسمى بالمحكمة (مملوكي) الواقع عند باب السلسلة الملاصق للجدار الغربي للحرم الشريف والمشرف على ساحات المسجد الأقصى وساحة البراق وحولته إلى مقر للشرطة وحرس الحدود، وبهذا أصبح الوجود «الأمني» الإسرائيلي يطوق الحرم الشريف، وبداخله. وحتى لو افترضنا مسبقا بأن هذه المرحلة لم تشكل تدخلا مباشرا، إلا أن هذا الوجود الشرطي المكثف قد أدخل الحرم الشريف وإدارته بمرحلة جديدة مليئة بالتحديات، خاصة تحدي تحديد من هو سيد الموقع.

بدأت المرحلة الثانية عندما أحرق المسجد الأقصى عام 1969، حيث اتهمت الأوقاف الإسلامية السلطات الإسرائيلية بمسؤوليتها عن الحريق، حيث أن الأسترالي دينيس مايكل روهان (Dennis Michael Rohan)، الذي أشعل النيران بالمسجد، كان قد استعمل البوابة (باب المغاربة) التي تتحكم بها القوات الإسرائيلية، وبالتالي مر بمعرفة أو بدون معرفة القوات الإسرائيلية، وهو الحريق الذي تقاعست إسرائيل عن إخماده، والذي ألهب معه مشاعر ليس الفلسطينيين وحسب، بل أيضا مشاعر الشعوب العربية والإسلامية، وفضح بشكل مبكر بعضا من النوايا الإسرائيلية، كما عبر عن الأخطار الحقيقية التي يتعرض لها المسجد.

وفي الحقيقة، لم يمض عام على حرق الأقصى، إلا وكان جرشون سلمون (Gershon Salomon) بتاريخ 14 أغسطس 1970 يترأس مجموعة «أمناء جبل الهيكل» (Faithful of the Temple Mount) يقتحمون باحات المسجد الأقصى بدعوة إعادة «بناء الهيكل»، مما أدى إلى صدامات عنيفة، وهو أمر يتكرر كل عام حتى اليوم، ويتم في ذروة الاحتفالات اليهودية (9 آب بالتقويم العبري)

Digitized by Birzeit University Library

بدمار الهيكل. وفي الحقيقة فإن هذه الحركة لا تخفي نواياها، وهي مسجلة رسميا لدى مسجل الجمعيات في إسرائيل، وهدفها كما هو معلن على صفحتها الالكترونية هو:

"The goal of the Temple Mount and Land of Israel Faithful Movement is the building of the Third Temple on the Temple Mount in Jerusalem in our lifetime in accordance to the word of G-d and all the Hebrew prophets and liberation of the Temple Mount from Arab (Islamic) occupation so that it may be consecrated to the Name of G-d."(1)

وبالعربية يعني النص: «إن هدف حركة أمناء جبل الهيكل وأرض إسرائيل هو بناء الهيكل الثالث على جبل الهيكل في القدس خلال فترة حياتنا وذلك بالتوافق مع كلمة الله وكل الأنبياء العبريين وتحرير جبل الهيكل من الاحتلال العربي (الإسلامي) ليتم تدشينه باسم الله».

صحيح أن موقف هذه الحركة لا يعبر بالكلمات نفسها عن الموقف الرسمي الإسرائيلي، لكنه في جوهره يتطابق معه، ويختلف فقط في مبدأ التدرج، وعدم إشعال حرائق كبيرة مرة واحدة، لكن يقضي بالنهاية إلى السيطرة الفعلية على كل المسجد الأقصى، وقد يقبل في مرحلة انتقالية الاقتسام الزماني والمكاني.

ويذكر بأن محكمة العدل العليا الإسرائيلية قد أباحت صلاة اليهود في الحرم الشريف، وذلك من منطلق «الحق اليهودي». صحيح بأن المحكمة قد أناطت تنفيذ الأمر بيد الشرطة الإسرائيلية بناء على اعتباراتها

(1) للمزيد حول هذه الحركة وأهدافها ونشاطاتها، أنظر صفحتها الالكترونية وهي في الحقيقة صفحة مثيرة للغاية، تتحدث عن نفسها بدون مواربة، والاقتباس هو معلن على نفس الصفحة: /http://templemountfaithful.org

Digitized by Birzeit University Library

الأمنية، لكنها أكدت على «الحق»، وقد كررت المحكمة المذكورة هذا الأمر بتاريخ 1995/ 7/ 25[1]، وفي هذه المرة سمحت الشرطة الإسرائيلية بتاريخ 1995/ 8/ 21 لمجموعة من اليهود الصلاة في المسجد الأقصى، فاندلعت المواجهات من جديد.

وفي 1980/ 4/ 19 قامت مجموعة من رجال الدين اليهود بعقد مؤتمر (سري!) للبحث في طرق «تحرير جبل الهيكل من المسلمين»، وبتاريخ 1986/ 8/ 4 أصدرت مجموعة أخرى من رجال الدين اليهود فتوى نهائية (final ruling) يسمح لله لليهود الصلاة في المسجد الأقصى، وهي مسألة طالما كانت محرمة لدى رجال الدين اليهود، كما طالبت نفس المجموعة إنشاء كنيس في منطقة المسجد.

ويمكننا رصد عشرات الهجمات والانتهاكات الإسرائيلية سواء الرسمية أو الشعبية أو الدينية خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين وقد تراوحت ما بين إطلاق النار داخل قبة الصخرة مما أدى إلى مقتل وجرح أكثر من 60 فلسطينيا وإلحاق أضرار جسيمة بالفسيفساء والزخارف الجصية من قبل الجندي الإسرائيلي ألين جودمان (Allen Goodman) (1982/ 4/ 11)، مرورا بإطلاق النار من قبل جنود الاحتلال على المصلين في صحن المسجد بتاريخ 1988/ 5/ 12 مما أدى إلى مقتل وجرح حوالي 100 فلسطيني، كما جرى بتاريخ 1990/ 8/ 8 قتل 22 فلسطينيا وجرح حوالي 200 آخرين في باحات الحرم الشريف، والقائمة طويلة.

(1) مازالت القضية مرفوعة أمام محكمة العدل العليا الإسرائيلية، والتي تنظر في طلب تفسير لماذا تمنع الحكومة الإسرائيلية صلاة اليهود في المسجد الأقصى، وقد أمهلت المحكمة بتاريخ 25/ 8/ 2018 وزارة الأديان الإسرائيلية وشرطتها الرد على الالتماس، خلال شهرين من تاريخه. أنظر مقالة شبكة الجزيرة على الرابط: http://www.aljazeera.net/news/alquds/2018/8/25

Digitized by Birzeit University Library

وفي مطلع ثمانينات القرن العشرين بدأت إسرائيل بأعمال الحفر على امتداد الجدار الغربي للحرم الشريف، بعد أن أشبعت جنوب المسجد حفرا، وقد أعلنت الأوقاف الإسلامية في القدس أن هذا الحفر هو تغيير صارخ للوضع الراهن، وخاصة أن الحفر يتم تحت مبان تاريخية على غاية من الأهمية الثقافية كلها من أملاك الأوقاف، ونتج عن هذا الحفر أضرار بالغة لحقت بهذه المباني ومن ضمنها مدخل المدرسة المنجكية (مقر دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس)، وعند افتتاح هذا النفق، على يد نتنياهو، بتاريخ 25/ 9/ 1996 انطلقت هبة جماهيرية واسعة قتل فيها عشرات الفلسطينيين وجرح فيها المئات[1].

أما المرحلة الثالثة، فيمكن تسميتها بمرحلة المصلى المرواني، وبدأت حين قامت إدارة الأوقاف الإسلامية، بمساندة ودعم مجموعة من المبادرات الشعبية بترميم هذه القاعة الضخمة (مساحتها حولي 6500 متر مربع)، وهي عبارة عن تسوية تحت مستوى ساحات المسجد الأقصى، وتقع بالزاوية الجنوبية الغربية للمسجد الأقصى وتتشارك جدرانها الجنوبية والشرقية مع أسوار المدينة، وهناك بابان مغلقان يقودان من خارج المدينة إلى هذه القاعة مباشرة، ولأن هذه القاعة كانت لا ترتبط بساحات الحرم الشريف إلا عبر باب صغير (عرضه أقل من متر) فقد فتحت الأوقاف بابين ضخمين يزودانها بالأوكسجين ويسهلان الدخول إليها والخروج منها، وأطلقت عليها اسم «المصلى المرواني»[2]. ويذكر بأن الحفريات الإسرائيلية قد وصلت إلى الجدران الجنوبية للقاعة، كما قامت سلطة الآثار الإسرائيلية بإعادة بناء

(1) عدنان الحسيني، «أضواء على قضية فتح النفق»، مجلة شؤون تنموية، العدد الأول والثاني - المجلد السادس، المُلتقى الفكري العربي - القدس 1996/ 1997.

(2) مرت أعمال الترميم والتأهيل بعدة مراحل، وكانت أولها بتموز 1996.

Digitized by Birzeit University Library

درج عريض يقود إلى القاعة مباشرة وحفر أنفاق وصلت أحيانا إلى أسفل المصلى المرواني، مما أثار تخوف الأوقاف الإسلامية من وجود مشروع إسرائيلي للسيطرة عليها وتحويلها إلى كنيس، تماما كما جرى في القاعات التي فتحت على امتداد الجدار الغربي للحرم الشريف، والتي تحولت جميعها إلى كنس، علما بأنها جميعها ملكا للأوقاف الإسلامية.

أثار هذا العمل، والذي في حقيقة الأمر قد تم على مدار أشهر وتحت أنظار المؤسسات الإسرائيلية المختلفة، حفيظة الإسرائيليين وطرح كنقطة مزاودة حزبية، خاصة وأن الأعمال قد تمت في ظل حكومة يرأسها حزب العمل. ثار رجال الدنيا والدين في إسرائيل ضد أعمال الأوقاف هذه، واتهموها بأنها تقوم بتدمير «آثار الهيكل» وتغيير «الوضع الراهن» من طرف واحد، علما بأن الأوقاف الإسلامية والتي اعتبرت نفسها وبحق المالك للمسجد بكل مكوناته، وأن من حقها أن تقوم بترميم وتأهيل المباني كلما دعت الحاجة لذلك، خاصة وأن أعداد المصلين بتزايد مستمر بحيث أن المغطيات في المسجد الأقصى لم تعد تستوعب المصلين خاصة في شهر رمضان وأيام الجمع في الصيف الحار وأيام الشتاء الماطرة، فجاء هذا المشروع تلبية لحاجة ملحة، وبالتأكيد لم تكن «آثار الهيكل» ببال الأوقاف الإسلامية. لكن ترميم وتأهيل المصلى المرواني قد شكل علامة فارقة في تاريخ العلاقة بين المسجد الأقصى والإدارات الإسرائيلية المختلفة.

ويذكر بأن قانون حماية الأماكن المقدسة الإسرائيلي (1967)، ينص في الفقرة الأولى على: «حماية الأماكن المقدسة من المس (الجرح) الفيزيائي أي حماية الأماكن المقدسة من الدمار أو أي نوع من المساس به». وحين قامت محكمة العدل العليا بنقاش موضوع إسطبلات سليمان، بناء على الشكوى المقدمة من حركة أمناء جبل الهيكل، استند الادعاء على أن تخريبا قد جرى في

Digitized by Birzeit University Library

موقع أثري بدون ترخيص، وبالتالي فإن سلطة الآثار وبلدية القدس مطالبة باتخاذ موقف من ذلك، كما ادعى الإدعاء بأن إسطبلات سليمان هي جزء لا يتجزأ من الهيكل. لقد رفضت محكمة العدل العليا بتاريخ 1996/ 10/ 16 هذه الادعاءات مستندة إلى حقيقة أن سلطة الآثار الإسرائيلية لم تبلغ عن أي دمار حصل للموقع، حيث أن سكب الباطون قد أوقف، وأن أعمال التبليط لا تحتاج إلى ترخيص. وبالرغم من هذا، فقد أشار قرار المحكمة إلى ضرورة توخي الحذر الشديد لأن الموقع يتمتع بحساسية دينية وسياسية. وحين تناقضت القوانين الانتدابية Kings Order in Council about the (Holy Places, 1924) مع هذا القانون، أقرت محكمة العدل العليا أن القانون الإسرائيلي ينسخ/ يلغي القانون البريطاني إذا تعارض معها.

أما حول حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة، فقد فرقت محكمة العدل العليا بين مسألة حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة وحرية العبادة، كما أنها فرقت بين حرية الفرد (اليهودي في هذه الحالة) بالصلاة في المسجد الأقصى وبين الصلاة الجماعية، حيث أمرت الشرطة الإسرائيلية بتأمين حق اليهودي كفرد بلباس ملابس الصلاة وحمل الكتاب المقدس وتأدية الصلاة في «جبل الهيكل». وعلى ما يبدو فقد ربطت محكمة العدل العليا ما بين حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة وحرية ممارسة الفرد للعبادة منفردا. وعلى ما يبدو أيضا بأنها قد تراجعت نسبيا عن هذا الأمر عندما أعادت موضوع الأماكن المقدسة إلى الحكومة الإسرائيلية وسحبت نفسها منه، معتبرة الإشكال سياسيا وليس قانونيا، تاركة للسلطة التنفيذية حرية اتخاذ القرار المناسب، خاصة إن كانت له أبعاد على الأمن العام. وجاءت الاعتراضات الإسرائيلية المتعددة، استكمالا لسلسلة من الاعتراضات في السابق، بناء على هذا المبدأ، بسبب قيام الأوقاف الإسلامية بإغلاق الحرم الشريف أمام الزوار غير المسلمين منذ 2000/ 10/ 6 احتجاجا على استباحة شارون وقوات الجيش لساحات

Digitized by Birzeit University Library

الحرم وانتهاكهم حرمته بإطلاق النار وقتل المصلين فيه. هذا وقد رفضت محكمة العدل العليا عدة التماسات لإعادة فتح الحرم أمام غير المسلمين، وذلك بحجج الحفاظ على الأمن العام.

ومن بين القوانين المطبقة إسرائيليا على الحرم القدسي الشريف هي قوانين الآثار لسنة 1967، وقانون التخطيط والبناء لسنة 1965. ويذكر أنه في شهر أغسطس 1967 قد أعلن «جبل الهيكل» موقعا أثريا[1]. وفي قرار محكمة العدل العليا الصادر بتاريخ 11 يناير 2000، وبالرغم من إشارة القرار إلى أن أعمال الحفر والبناء في إسطبلات سليمان غير قانونية وتتعارض مع قوانين الآثار والتخطيط والبناء، إلا أن المحكمة قد رفضت الالتماس، الذي قدمه رئيس بلدية القدس والمدير العام للآثار، والذي يطالب بوقف الأعمال وإعادة الأمور في الموقع إلى ما كان عليه في السابق، وذلك كون الموقع على درجة عالية من الحساسية وعلى اعتبار أنه يختلف عن أي موقع آخر.

وكان موقف الأوقاف الإسلامية، ومازال، أن المسجد الأقصى بكل ما بداخلة من مساجد ومباني تذكارية وساحات، بالإضافة إلى أسواره وبواباته ملكا إسلاميا خالصا، تحت الأرض وفوقها، اعترفت به الحكومات المتعاقبة على فلسطين منذ الفتوحات العربية الإسلامية (القرن السابع الميلادي). ومن ناحية إدارية استمرت المملكة الأردنية الهاشمية إدارة معترف بها في المسجد منذ عام 1967 وحتى الآن، وذلك بالرغم من القرار الأردني بفك الارتباط الإداري بالضفة الغربية، ولم تنتقل إدارة الأوقاف الإسلامية في القدس إلى السلطة الوطنية الفلسطينية، وذلك حتى لا تعطي إسرائيل المبرر للإحلال محلها (كما حدث في كثير من المؤسسات)، واستمرت الأردن بدفع رواتب موظفي الأوقاف.

(1) مع العلم بأن قوانين الآثار الانتدابية البريطانية لسنة 1929، وكذلك الأردنية لسنة 1966 ولسنة 1976 لا تنطبق على الأماكن المقدسة.

Digitized by Birzeit University Library

وعودة إلى «زيارة شارون»، فلم تشكل زيارة الحرم الشريف في الماضي أية مشكلة بالرغم من الاعتداءات المتكررة عليه في سنوات السبعين والثمانين من القرن الماضي، فقد كانت تتم في إطار فردي، مثل حرق المسجد الأقصى عام 1969، أو الاعتداءات على قبة الصخرة واكتشاف متفجرات في أماكن متعدد من المسجد. لكن بدأت المشكلة بعد أن تشكلت حركات صهيونية متخصصة رفعت شعارات هدم الأقصى وبناء الهيكل مكانه، وهذه أيضا لم تشكل تهديدا مباشرا للمسجد، حيث لم تغلق الأوقاف الإسلامية المسجد أمام الزوار اليهود، لكن المشكلة بدأت بالتصاعد التدريجي وبدعم من المؤسسة الحاكمة، وقد كان هذا الأمر جليا باقتحام شارون للحرم عام 2000، بحيث وضعت السياسة الرسمية المسجد في مركز الصراع، كما أن الاستمرار بالحفريات والأنفاق المحيطة بالمسجد وتكليف جهات استيطانية بإدارة المواقع المحيطة بالمسجد، كلها عوامل ساعدت على وضع المسجد الأقصى تحت طائلة الخطر، وهذه المرة الخطر المحدق حقيقة.

ومنذ عدة أعوام أصبحت «زيارة» اليهود إلى الحرم لا تحمل طابعا سياحيا، بل تعدته إلى استفزاز مشاعر المسلمين في الموقع ومحاولة إقامة الصلوات في جنباته، مع إطلاق تصريحات معادية لوجود المسجد، ومما زاد الطين بلة هي الزيارات المتكررة لوزراء في الحكومة الإسرائيلية وأعضاء كنيست مطلقين أيضا التصريحات النارية حول مستقبل المسجد الأقصى وحق اليهود العودة إلى «جبل الهيكل»، وقد رافق ذلك فتاوى من العديد من الحاخامات الذين يجيزون هذه النشاطات وتلك التطلعات. لقد أصبحت هناك مجموعات متخصصة، ليست بعيدة عن الحكومة الإسرائيلية وائتلافها بل تمثلها، تنظم «الزيارات» المدعومة بشكل منتظم، بل أن بعض المجموعات كانت تقوم بزيارة الحرم أكثر من مرة باليوم، وذلك من أجل خلق انطباع

Digitized by Birzeit University Library

بحضور يهودي دائم ومتواصل[1]، وكل هذا كان يتم تحت حراسة مشددة من الشرطة وحرس الحدود المدججين بالسلاح والذين لا ينفكوا أيضا عن استفزاز المصلين وطلبة العلم في باحات المسجد الأقصى. الجديد في الأمر، أنه أصبحت هناك أجندة واضحة المعالم تدعمها الحكومة الإسرائيلية بشكل رسمي ومكشوف، تتحدث عن تقسيم زماني ومكاني على شاكلة ما حدث للحرم الإبراهيمي في الخليل.

لقد أعلنت اسرائيل منذ العام 2001 بأنها ستعامل باحات المسجد الأقصى مثل «الحدائق القومية»، أي أنها مفتوحة للزيارة للجميع وليس للأوقاف الإسلامية سلطة على الساحات ما عدا تنظيفها، وتقتصر سلطة الأوقاف على المغطيات، أي المباني التي لها سقف، وذلك بتعارض كامل مع الوضع المتعارف عليه تاريخيا وهو أن المسجد الأقصى يتشكل من 144 دونم تضم جدرانه الخارجية وبواباته وكل المباني الموجودة داخله وتحت أرضه، وبكل ساحاته وحدائقه، والمباني المطلة عليه من الجهتين الغربية والشمالية، لأنها جميعا وقفا إسلاميا صحيحا.

وفي المقابل سادت منذ سنوات قبضة إسرائيلية شديدة على المسجد الأقصى، وسيطرة كاملة على كل ما يدور داخله، تحديد من المسوح له الدخول ومتى ومن أي باب، عمر المصلين، نفي مجموعات كبيرة عن المسجد

(1) حول الحركات الفاعلة في تنظيم الزيارات إلى الحرم الشريف وعلاقتها بالحكومة والأحزاب الإسرائيلية والتي يبلغ عددها 22 حركة مسجلة رسميا عند مسجل الجمعيات وبالتالي تحمل مباركة الحكومة الاسرائيلية وبعضها يتلقى دعما ماليا حكوميا بشكل مباشر وبعضها يتلقاها بشكل غير مباشر، بالإضافة إلى 10 منظمات غير مسجلة رسميا، كذلك هناك قائمة بأسماء الحاخامات الذين أصدروا فتاوى بإباحة وضرورة إقامة الشعائر الدينية اليهودية في الحرم ونملك مضمون هذه الفتاوى، كما أن هذه الحركات قد تغلغلت في النظام التعليمي، علاوة على علاقة هذه الحركات بعدد ليس بقليل من أعضاء الكنيست ينظر:
Ir Amim, *Dangerous Liaison: The Dynamics of Rise of the Temple Movements and Their Implications*, Jerusalem 2013, pp. 17ff.

Digitized by Birzeit University Library

وعدم السماح لهم الصلاة داخله لفترات متفاوتة، التضيق على الحراس الفلسطينيين، عدم السماح للأوقاف الإسلامية إدخال أي شيء إلى المسجد حتى لو كان كتابا أو جهاز حاسوب أو كيس أسمنت بدون إذن الشرطة الإسرائيلية، والتي تعاملت مع الموقع وكأنها سيدته المطلقة، هذا علاوة على استمرار الوجود المكثف للشرطة وحرس الحدود المدججين بالأسلحة على بوابات المسجد وفي ساحاته. كما جرى اقتحام المسجد الأقصى (المسجد الجنوبي/ المغطى) يوم الأربعاء 2014/ 11/ 5 وإطلاق قنابل الدخان والمسيلة للدموع والصوت داخله[1]، الأمر الذي لم يحدث بهذا الشكل من قبل، مما زاد في استفزاز المشاعر، علاوة على تدمير أجزاء منه.

لقد ساءت إسرائيل تقدير الموقف في المسجد الأقصى، ولم تستطع فهم تأثير ذلك على الفلسطينيين والعرب بشكل عام، لذلك استهانت بالمشاعر بشكل سافر. بالتأكيد، هناك علاقة وطيدة بين حراك القدس وبين ما يجري في المسجد الأقصى، وسيبقى الموقع الذي سيزودنا في المستقبل المزيد من المواجهات ما دامت إسرائيل مصرة على سياستها الحالية. صحيح بأن هناك أصوات إسرائيلية قد صدرت مطالبة بكبح جماح حركات «جبل الهيكل» ومنع أعضاء الكنيست والوزراء من استخدام هذا الموقع لأغراض سياسية. جاءت هذه الأصوات ردا على محاولة اغتيال غليك بتاريخ[2] 2014/ 10/ 29 والهجوم على الكنيس في مستوطنة هارنوف بتاريخ[3] 2014/ 11/ 18. وكان من الأصوات التي طالبت بتهدئة الوضع رئيس الوزراء نتنياهو الذي تعرض لضغط من الاتحاد الأوروبي وأطراف دولية أخرى، ويمكن القول بأن ردة الفعل الأوروبية هذه قد تجاوزت ردة الفعل التقليدية التي اعتدنا عليها

(1) http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=737648

(2) http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=736251

(3) http://arabic.rt.com/news/765131

Digitized by Birzeit University Library

في السابق[1]. وينطبق هذا الأمر على موقف الولايات المتحدة الأمريكية. وكان الأردن قد قام بسحب سفيره من تل أبيب احتجاجا على الممارسات الإسرائيلية تجاه المسجد الأقصى خاصة بعد الاقتحام المذكور أعلاه، وقدم شكوى بذلك إلى مجلس الأمن الدولي[2].

ينطلق الأردن في موقفه من الحرم الشريف من اتفاقية وادي عربة (اتفاقية السلام الأردنية - الاسرائيلية) 1994 حيث نصت المادة 2.2 على: «وبهذا الخصوص وبما يتماشى مع اعلان واشنطن، تحترم إسرائيل الدور الحالي الخاص للمملكة الأردنية الهاشمية في الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس، وعند انعقاد مفاوضات الوضع النهائي ستعطي إسرائيل أولوية كبرى للدور الأردني التاريخي في هذه الأماكن»[3]. وقد تعزز الموقف الأردني من خلال توقيع اتفاقية (وصاية) حماية الأماكن المقدسة في القدس بين الرئيس الفلسطيني محمود عباس والملك الأردني عبد الله الثاني بتاريخ 2013/ 3/ 31.[4]

---

(1) لأول مرة يجري تسريب وثيقة أوروبية عبر الصحافة الإسرائيلية تتضمن وضع خطوط حمراء لإسرائيل ومن ضمنها المستوطنات في القدس ومحيطها، حول ذلك ينظر http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=735041 ويبدو أن العمل على هذه الوثيقة قد بدء بعد اعلان إسرائيل مصادرة 4000 دونم من الأراضي التي تقع إلى الغرب من بيت لحم، وذلك لتوسيع الكتلة الاستيطانية غوش عتصيون، مما يعني خنق مجموعة من القرى الفلسطينية الواقعة إلى الغرب من بيت لحم وكذلك قطع التواصل الجغرافي بين منطقة بيت لحم والخليل، وتشكيل بالنهاية كتلة استيطانية ضخمة، كما تضمنت الوثيقة عدم المساس بمكانة الحرم الشريف.

(2) http://raya.com/news/pages/88554489-af91-4498-b2fb-421cdce98661

(3) http://www.palestineinarabic.com/Docs/treat_aggr/Peace_Treaty_Between_Israel_And_Jordan_1994_A.pf

(4) حول الوصاية المذكورة وما تعنيه للأردن ينظر http://www.alaraby.co.uk/politics/2015/10/18

Digitized by Birzeit University Library

أما في المرحلة الرابعة فيمكن وصفها بشرارة الأقصى، حيث لم تكن هذه المرة الأولى التي يؤجج المسجد الأقصى المشاعر ويكشف عن الصراع الدائم في فلسطين، ولكن يجب ألا يقتصر فهمنا لما يدور في القدس على خلفية الصراع على المسجد الأقصى، على الرغم من مركزيته في ذلك، فهناك أبعاد سياسية واضحة المعالم، فانسداد الأفق السياسي، وزيادة القبضة الإسرائيلية حول المدينة وعزلها وتهميشها، علاوة على سوء الأوضاع المعيشية بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية قد شكل محفزات موضوعية، ساهمت إلى حد بعيد في تشكيل ما آلت إليه الأمور. كما لا بد من فهم كل هذا أيضا في إطار الصراع على الرواية، حيث تزداد الرواية الإسرائيلية/ اليهودية حول الموقع بالنمو والتطرف المتسارع ومن ضمنها إزدياد مكانته في الحياة اليوم والتجولات في مواقف رجال الدين اليهودي، واقتراب كل ذلك من الوقف الرسمي. وفي المقابل يزداد الفلسطيني، بصفته حارس وسادن الأقصى باسم كل العرب والمسليمن، تمسكا بالمسجد الأقصى ويربط وجوده في القدس وحقه الوطني في فلسطين بالمسجد.

بعد التفاهمات الأردنية والإسرائيلية حول ترتيبات الحرم الشريف قبل شهر رمضان (العام 2015)، والتي تضمنت عدم تقييد أعمار المصلين المسلمين، وعدم ملاحقة المرابطين والمرابطات في باحات المسجد الأقصى، وعدم جمع بطاقات الهوية للنساء، وعدم السماح للرموز السياسية الإسرائيلية اقتحام الحرم، وعدم إطلاق التصريحات المتعلقة بمستقبل الموقع سواء من قبل الساسة أو الجمعيات الاستيطانية، عاش المسجد بضعة أسابيع من «الحياة العادية»، ولكن لم تحافظ إسرائيل لفترة طويلة على هذه التفاهمات، بل سرعان ما عادت كل الأمور إلى سابق عهدها، وبشكل أسوء، فقد سارع الساسة من أحزاب اليمين الإسرائيلي إلى اقتحام المسجد وأطلقت التصريحات

Digitized by Birzeit University Library

المستفزة للمشاعر وتحول المسجد الأقصى مرة أخرى إلى قضية تجاذب حزبية إسرائيلية، علاوة على استمرار العمل في الأنفاق المحيطة بالمسجد، وكذلك المسارعة إلى البناء المزيد من الكنس بالقرب منه.

تضمنت التفاهمات الحفاظ على النقاط الرئيسة التالية:

- الحفاظ على الوضع الراهن. لم يتضح في هذه التفاهمات معنى «الوضع الراهن»، هل المقصود ما كان عليه قبل العام 1967، فإن كان كذلك فهذا يتطلب انسحاب الشرطة الإسرائيلية من داخل الحرم الشريف، وتسليم كل البوابات بما فيها باب المغاربة للأوقاف الإسلامية، وتسليم الأنفاق التي حفرت تحت المباني الوقفية، وتسليم المدرسة التنكزية، وتسليم أرض الخاتونية (موقع دار الإمارة الأموية)، وإعادة بناء حارة المغاربة ... وهي كلها مواقع مرتبطة بالمسجد الأقصى وبالتاريخ الإسلامي.
- وبما أننا لا نعتقد بأن «الوضع الراهن» في هذه التفاهمات يعني ذلك، فإننا سننطلق من فرضية أن «الوضع الراهن» يعني فقط ما كان عليه «الواقع» قبل اندلاع الأحداث الأخيرة والمرتبط بحرية وصول المخولين (يعني حملة الهويات المقدسية أو الإسرائيلية) إلى المسجد الأقصى دون تحديد الأعمار والأوقات، كما تعني وقف استفزازات الساسة الإسرائيليين وإطلاق التصريحات النارية التي تهدد وجود المسجد، وتعني أيضا التوقف عن تنفيذ فكرة التقسيم الزماني والمكاني للمسجد. وبالتأكيد هذه إنجازات لا يمكن الاستخفاف بها، لكن ما كان من المفروض أن يطلق عليها اصطلاح «الوضع الراهن»، فالتراث المقدسي لهذا الاصطلاح له دلالات تاريخية في غاية التعقيد، سيكون نقاشه خارج إطار هذا المقال. ولكن من

Digitized by Birzeit University Library

الواجب التساؤل، هل أن استعمال الاصطلاح يعني أن ما راكمته إسرائيل من «مكاسب»، وما حققته من خلال فرض الأمر الواقع بالقوة منذ حزيران عام 1967 قد أصبح جزء من «الوضع الراهن» وبالتالي أصبح حقا مكتسبا ومعترف به؟

- تركيب كاميرات. تم الاتفاق على تركيب كاميرات لمراقبة باحات المسجد الأقصى، تكون تحت السيطرة الكلية لدائرة الأوقاف الإسلامية، وقد أضاف العاهل الأردني في حفل استقبال شخصيات مقدسية، بأن هذه الكاميرات ستربط مباشرة بالقصر الهاشمي في عمان[1]. يجب التروي قليلا في نقاش هذه المسألة. وقبل الخوض فيها، لا بد من التذكير بأن هناك كاميرات مراقبة إسرائيلية تراقب كل ساحات المسجد ومنذ سنوات، بعضها مركب فوق سطح المدرسة التنكزية (على الجدار الغربي للمسجد الأقصى)، وبعضها مركب على جبل الزيتون، وبالتالي ما يدور في ساحات المسجد مراقب تماما من قبل الإسرائيليين، صحيح جدا بأن المراقبة الإسرائيلية تستخدم فقط لإدانة الفلسطينيين، ولا تستعمل لتوثيق الانتهاكات الإسرائيلية. أما الكاميرات المقترحة، فمن المفترض أنها ستوثق أيضا ما يقوم به الإسرائيليون من اقتحامات يومية. ومن الهام الإشارة، وهذا رأي الشخصي، بأن إسرائيل ستجد الطريقة الفنية للتجسس على هذه الكاميرات، التي ستركب في المجال المغناطيسي المسيطر عليه إسرائيليا، وبالتأكيد هذا سينطبق على مراقبة بثها إلى عمان. على أية حال، انتهى هذا الأمر بفشل محاولة زراعة الكاميرات، وأصبحت

(1) يمكن العودة إلى كلمة الملك الأردني عبد الله الثاني على https://www.youtube.com/watch?v=x-uDsACwSM8

Digitized by Birzeit University Library

خلف الظهر، لكن يجب عدم إغفال إمكانية عودة الموضوع من جديد، فالمسألة فيما يتعلق الأمر بالمسجد الأقصى مازالت مثل كرة الثلج المتدحرجة، حيث أن الروايات الإسرائيلية فيما يتعلق بالمسجد الأقصى («جبل الهيكل») تزداد يوميا، ويزداد ربط الإسرائيليين بالموقع بشكل ممنهج حتى أصبحت على أجندة كل الأحزاب الحاكمة (الائتلاف الحكومي) في إسرائيل، وأصبحت الاقتحامات لا تتم من الرعاع، بل أيضا من الوزراء وأعضاء الكنيست، وأصبح موضوعا مطروحا بشكل يومي، من الممكن أن يتفجر في كل لحظة.

- حق الصلاة للمسلمين وحق الزيارة لليهود. لم تكن الأوقاف الإسلامية ضد مبدأ الزيارة، فطالما فتحت حتى قبة الصخرة والمسجد الأقصى (القبلي) للزوار بغض النظر عن دينهم وجنسيتهم، ولكنها لم تعتبر هذا الأمر حقا، فالذي يحدد الحق هو صاحب المكان، وهو الأوقاف في هذه الحالة، كما أن صاحب المكان قد يرحب بالبعض ولا يرحب بآخرين. وبالتالي، لم يعد في مقدرة الأوقاف الإعلان عن أشخاص غير مرحب بهم، مثل أصحاب السوابق في استفزاز المصلين، كما قد تفسر إسرائيل هذه الجزئية بعدم حق الأوقاف الاسلامية إغلاق الموقع عند التهديد. ويمكن القول بأن «حق الزيارة لليهود» قد حققه نتنياهو عبر هذه التفاهمات[1]، صحيح بأن هذا الحق قد انتزعته إسرائيل بالأمر الواقع، لكن أصبح الآن جزء من التفاهمات التي على دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس احترامها. صحيح أن السلطات الإسرائيلية لا تنتظر إحترام

(1) ينظر مقالة عريب الرنتاوي في صحيفة الدستور الأردنية بتاريخ 26/ 10/ 2015، كذلك على الرابط http://oraib.alqudscenter.org/arabic/article/9477#.Vkj8-HYrLIU

Digitized by Birzeit University Library

الأوقاف الإسلامية، فهي تقوم بذلك يوميا مستخدمة الحماية الشرطية والعسكرية المدججة بالسلاح، وتقوم بقمع كل محاولة احتجاج من قبل المصلين المسلمين، بما فيها اعتقال الحراس ونفيهم عن المسجد الأقصى، كما تتضمن الإجراءات الإسرائيلية إبعاد الكثير من المصلين المسلمين (المرابطين) لفترات طويلة أو قصيرة ومنعهم من دخول المسجد، وكأنهم هم المشكلة، وتروي حول ذلك في الإعلام العالمي بأنهم «مثيري شغب».

- لقد قامت إسرائيل بعمل «قوائم سوداء» خاصة للمرابطات لمنعهم من دخول المسجد، كما حكمت على أعداد كبيرة من الفلسطينيين بالإبعاد لفترات مختلفة عن المسجد، يعني أنها قد قامت بتحديد حق الزيارة، ومازالت تقوم بذلك صحيح بأن الإيجابية في هذه النقطة تكمن في أن «حق الزيارة» لا يعني «حق الصلاة» أو «إقامة الشعائر»، وهي مسألة على غاية الأهمية طالما قادت إلى مواجهات دموية، وبالتالي يجب عدم الاستهانة بهذا الإنجاز. كما لا بد من الإشارة بأن نتنياهو قد أمر بمنع الوزراء وأعضاء الكنيست من دخول الحرم في حينه[1]، وقد استغل ذلك أيضا بمنع النواب العرب في الكنيست من القيام بالزيارة، وكأنه ساوى تماما ما بين أحمد طيبي أحد المدافعين عن الأقصى وبين الوزير العنصري بنيت الذي يدعو إلى إقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.

انتقدت الهيئة الإسلامية العليا في القدس التفاهمات بشدة، ورفضت

(1) أعاد نتنياهو السماح لأعضاء الكنيست والوزراء في حكومته السماح بزارية الأقصى بتاريخ 3/ 7/ 2018، وبعدها قام بذلك عد من الوزراء وأعضاء الكنيست، حتى أن بعضهم قد اقتحم المسجد عدة مرات، وذلك في محاولة لارضاء اليمين الإسرائيلي من جهة، وتأكديا على «حق اليهود» في الأقصى من جهة ثانية.

Digitized by Birzeit University Library

أن تتضمن التفاهمات حق المسلمين في الصلاة، واعتبرت أن المسلمون ليسوا بحاجة إلى تصريح من أحد للصلاة في المسجد الأقصى، كما لم تنسى الهيئة من التأكيد على رفضها للتصريح الذي أطلقه كيري (وزير الخارجية الأمريكي) وتضمن مصطلح «جبل الهيكل»، مشددة على أن الاسم الوحيد للموقع هو «المسجد الأقصى»[1].

صحيح جدا بأن الاعتداءات المتكررة على المسجد الأقصى قد أدت إلى الوصول إلى الوضع الحالي، والتي لن تحل عبر تفاهمات كيري، لأن المشكلة ليس المسجد الأقصى بل الاحتلال بحد ذاته وروايات التاريخية حول «الهيكل» ومحاولته المستميتة لفرض «سيادته» على المسجد الأقصى، وبالتالي اقتسام الموقع زمانيا أو مكانيا أو كلاهما معا.

بقي أن نقول بأن المسجد الأقصى وما ارتبط بذلك بروايات دينية وتاريخية وأثرية سيبقى القنبلة الموقوتة التي ستنفجر في أي وقت، وأن دوي انفجارها لن يقتصر على القدس، كما أثبتت التجربة أكثر من مرة. وبالرغم من عدم نيتنا التنبؤ، إلا أن التجربة العملية قد أثبتت أن إسرائيل لن تلتزم بالتعهدات التي أطلقتها، وسرعان ما ستخلق الأدوات المختلفة للالتفاف على «التفاهمات»، حيث أن المجتمع الإسرائيلي يميل بشكل واضح للتطرف اليميني والتدين، وأن الحكومة الإسرائيلية محكومة ليس فقط من يمين الوسط بل بالأساس من اليمين المتطرف الكولونيالي والعنصري، وبعبارة أدق ممن يؤمنون بـ»أرض إسرائيل الكاملة»، مما يعني بأنه لن يتم دفن الخطط المختلفة التي تم رسمها لمستقبل المسجد الأقصى، وستظهر من جديد، والقضية مسألة وقت ليس إلا.

(1) حول محتوى بيان الهيئة ينظر، http://www.shabiba.com/article/106526

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

ملاحظات ختامية

تلعب القدس دورا مركزيا ليس فقط في كتابة تاريخ إسرائيل، بل في كتابة تاريخ اليهود عبر التاريخ. ليس بالضرورة أن تلعب «الحقيقة التاريخية» أي دور في ذلك، المهم أن يساهم التاريخ والأسطورة الدينية في بلورة الهوية. تواجه إسرائيل مشكلة كبيرة في ظل الدراسات النقدية المتتالية التي تنفي الكثير من مكونات التاريخ المتخيل لليهود، وهي مسألة دفعت إسرائيل بنفسها إلى داخلها، كونها ربطت وجودها، ولو بشكل شكلي، بحقوق تاريخية، مدافعة عن نفسها كونها مشروعا استعماريا غربيا، كما رأينا في هذه الدراسة.

ويبدو أن إسرائيل لم تستسلم بعد لنتائج الدراسات التاريخية الأخيرة، ومن ضمنها ما قام به بعض الإسرائيليين، فقد رأينا أن رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو يشد الاهتمام الإسرائيلي من جديد بإعلان قائمة التراث اليهودي في فلسطين ومن ضمنها مواقع في الضفة الغربية والقدس، والتي سيتم استثمار ملايين الدولارات في ترميمها وتنظيم وتوثيق العلاقة بين «اليهود وتراثهم».

يمكن بالتأكيد وصف الصراع على القدس بأنه صراع على الأرض والسيادة عليها، لكنه أيضا صراع على الرموز والشكل والمظهر والعلم الذي يرفع على مبانيها وأسوارها كذلك صراع على الرواية (narrative). وتزايد الصراع، بل فرض الحقائق من جانب واحد بالآونة الأخيرة، وذلك في كل الجوانب المذكورة، بحيث يمكن القول بأن الوضع العام يشهد خواتم

Digitized by Birzeit University Library

الأمور. ويتجسد ذلك بنشاط محموم فوق الأرض في محيط البلدة القديمة وداخلها يهدف إلى حسم الصراع على شكل المدينة المقدسة ومشهدها الثقافي، فقد مرت أكثر من أربعة عقود على احتلالها وما زال مظهرها (هويتها) الأساس عربية، مما سرع المشروعات الإسرائيلية المختلفة لتغيير مشهد المدينة وإكسابه هوية مغايرة، إن لم تكن يهودية إسرائيلية، فيجب أن تكون عربية أقل.

ويتوازى هذا النشاط مع الحفريات الإسرائيلية[1] المكثفة التي تجري في أماكن مختلفة تحت المدينة لإعادة تركيب الحركة والولوج إليها من جهة، وتقديم شكل مغاير لمظهرها يقلل، على أقل تقدير، من أبعاده العربية من جهة ثانية، وبالتأكيد سيكون لهذه التطورات أبعادا اقتصادية على أسواق البلدة القديمة وحياتها الاجتماعية، كما سيعزز الحركات الاستيطانية، ويجعل من الزيارة الإسرائيلية إلى القدس القديمة تتم دون مشاهدة الفلسطينيين ومعالمهم بقدر الإمكان. وهذا طبعا يتوازى أيضا مع تقديم رواية إسرائيلية توراتية لتاريخ القدس تعتمد على إظهار كل ما هو ممكن أن يكون بذا صلة باليهودية وتاريخها، حتى لو تطلب الأمر هدم أجزاء وبناء أجزاء أخرى من القدس لتتوافق وهذه الرواية وتخدمها، وإن كانت الآثار لا تخدم ذلك، وهي في أغلب الأحيان لا تفعل، فيمكن الاعتماد على التقنيات الحديثة المدعمة بالصوت والضوء والمجسمات التخيلية للاستعاضة عن الآثار الملموسة، حتى يتهيئ للمشاهد أنه أصبح يلامس التاريخ بحقائقه المطلقة، خاصة إذا دعمت الرواية باقتباسات من العهد القديم ومن مؤرخي روما.

بعد أكثر من خمسة عقود من السياسات الإسرائيلية في البلدة القديمة،

(1) كنا قد عالجنا موضوع الحفريات في مقالة سابقة، أنظر نظمي الجعبة، «القدس بين الاستيطان والحفريات»، مجلة الدراسات الفلسطينية، مجلد 20، عدد 79 (صيف 2009)، ص 39 وما بعدها.

Digitized by Birzeit University Library

طبعا والوضع أسوأ خارجها، يمكن القول بأننا نشهد اللمسات الأخيرة من مشروع تهويد المشهد الثقافي، خاصة في المحيط الغربي والجنوبي وجزء من المحيط الشرقي للبلدة القديمة، وتطوير وتسخير كافة الوسائل الممكنة لتسهيل الحركة والاستيطان في البلدة القديمة ومحيطها، وتضمن هذه المخططات رواية توراتية عبر الآثار، والمظاهر العمرانية، وتخفيف تأثير الوجود العربي ورموزه، ورفع الأعلام الإسرائيلية في كل مكان ممكن. ويمكن ملاحظة الحرب الدائرة على مشهد المدينة عبر إعادة بناء كنيس الخربا بقبة عالية شاركت قبة الصخرة وقبة القيامة فضاء المدينة، وبناء كنيس أوهل يتسحاق بالقرب من المسجد الأقصى، ورفع الشمعدانات (منوراة) في أماكن متفرقة جنبا إلى جنب العلم الإسرائيلي على كل المباني الاستيطانية.

يمكن القول، إن تكلل لهذه المشاريع النجاح، أن تؤدي ليس فقط إلى احتلال المشهد وتسخيره في فرض أمر واقع جديد يؤثر على مستقبل المدينة، بل إلى حسم الوضع في النصف الجنوبي للبلدة القديمة وتهويده كاملا، وربطه ليصبح امتدادا لغربي القدس بعد إزالة كافة العوائق التي تحول بين ذلك. وبالتأكيد، سيكون لهذه المشاريع أبعادها الديموغرافية، حيث ستؤدي إلى ترحيل الكثير من الفلسطينيين من جهة، وتعزيز الاستيطان اليهودي من جهة ثانية.

أمام القدس وسكانها من الفلسطينيين ومن يدعمهم معركتين في مواجهة هذه المخططات، الأولى على المستوى الدولي بشكل عام وعلى مستوى اليونسكو بشكل خاص. إن تنفيذ هذه المخططات هو تدمير منظم للتراث الثقافي في القدس وللمشهد المقدس الذي يعود في تكوينه إلى آلاف السنين، إن وجود القدس على قائمة التراث العالمي وقائمة التراث العالمي المهدد يجعل العبث بهذه المدينة جريمة دولية. يجب استغلال هذه النافذة

Digitized by Birzeit University Library

إلى حد كبير، سواء من باب محاولة وقف هذه الإجراءات، أو/ و من باب التوعية وفضح هذه السياسات. أما المعركة الثانية فهي مزدوجة، المقاومة والممانعة والصمود من جهة، واستعمال كل أساليب الاعتراض التي تبيحها القوانين الإسرائيلية وتجيزها القوانين الدولية، ومن ضمنها تجنيد من يقف مع حماية التراث الثقافي في القدس من الإسرائيليين من جهة ثانية. وفي الحقيقة فإن المعركة الثانية تدور منذ فترة في سلوان وحي البستان، كما يقوم عدد من المهتمين من فلسطيني الأرض المحتلة عام 1948 بالمعركة القانونية.

Digitized by Birzeit University Library

قائمة مختارة للمصادر والمراجع (العربية والمترجمة)

- إبراهيم، محمود. **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة**. الكويت، 1985.
- بابية، إيلان. **التطهير العرقي في فلسطين**. ترجمة أحمد خليفة. بيروت، 2007.
- بابية، إيلان. «تقلبات 1948: تدوين تاريخ إسرائيل»، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 84، 2010، ص 89-73.
- بيتربرغ، غابريئيل. **المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير وسياسات ودراسات إسرائيلية**. ترجمة سلافة حجاوي. رام الله، 2009.
- بيشريللو، ميشيل. **مادبا: كنائس وفسيفساء**. ترجمة ميشيل صباح وجورج سابا وأنطون عيسى، القدس، معهد الفرنسيسكان للآثار، 1993.
- تومبسون، توماس. «هل يمكن كتابة تاريخ أورشليم وفلسطين؟» في كتاب، **القدس أورشليم العصور القديمة**. تحرير توماس تومبسون. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2003.
- الجعبة، نظمي. «القدس بين الاستيطان والحفريات». **مجلة الدراسات الفلسطينية**، مج 20، عدد 79، صيف 2009، ص 39 وما بعدها.

Digitized by Birzeit University Library

- الحسيني، عدنان. «أضواء على قضية فتح النفق»، **مجلة شؤون تنموية**، العدد الأول والثاني - المجلد السادس، المُلتقى الفكري العربي، القدس، 1997/ 1996.
- الخالدي، وليد (محرر). **كي لا ننسى: قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل عام 1948**. الطبعة الثالثة. بيروت، 2001.
- الخالدي، وليد. **دير ياسين: الجمعة 1948/ 4/ 9**. القدس، 1999.
- الخالدي، طريف. «الصراع بشأن تاريخ القدس». **مجلة الدراسات الفلسطينية**، المجلد 19، العدد 73، شتاء 2008، ص 123-118.
- شولش، ألكسندر. **تحولات جذرية في فلسطين 1882-1856**. ترجمة كامل العسلي. عمان، 1988.
- العارف، عارف. **النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود**. الجزء الأول، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2012
- عثامنة، خليل. **فلسطين في خمسة قرون: من الفتح الإسلامي حتى الغزو الفرنجي (1099-634)**. بيروت، 2000.
- عثامنة، خليل. **القدس والاسلام: دراسة في قداستها من المنظور الإسلامي**. بيروت، 2013.
- عثامنة، خليل. «القدس عاصمة فلسطين وعاصمة الأمويين الأولى». في كتاب **القدس الإسلامية**، تحرير محمد غوشة، عمان، 2009.
- عراف، شكري. **المواقع الجغرافية في فلسطين: الأسماء العربية والتسميات العبرية**. بيروت، 2004.
- العسلي، كامل. **مخطوطات فضائل بيت المقدس**. عمان، 1981.
- العسلي، كامل (محرر). **القدس في التاريخ**. عمان، 1992.

Digitized by Birzeit University Library

- فيدال، دومنييك. **خطيئة إسرائيل الأصلية: المؤرخون الجدد الإسرائيليون يعيدون النظر في طرد الفلسطينيين**. ترجمة جبور الدويهي. بيروت، 2002.
- كاتبة الدجاني، أمل. **مسجد ومقام النبي داود: دراسة تاريخية أثرية معمارية**، رام الله، 2014.
- كريستال، ناثان. «سقوط المدينة الجديدة». في كتاب **القدس 1948، الأحياء العربية ومصيرها في حرب 1948**. تحرير سليم تماري. القدس، 2003، ص 177-113.
- مناع، عادل. **تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1918-1700**. بيروت، 1999.
- الناشف، خالد. **يا كافي يا شافي: مجموعة كنعان للحجب الفلسطينية**، جامعة بيرزيت، بيرزيت، 1999.
- هيرتزوغ، زئيف. «تفكيك جدران أريحا». **هآرتس** (بالعبرية) 29/ 10/ 1999.
- الواسطي، ابو بكر محمد بن أحمد. **فضائل البيت المقدس**. تحقيق إسحاق حسون. معهد الدراسات الأسيوية والإفريقية في الجامعة العبرية، القدس، 1979.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

- Abu El-Haj, N. *Facts on the Ground. Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society*, Chicago and London: University of Chicago Press, 2001.
- Abraham D. S. Center for International and Regional Studies:

Digitized by Birzeit University Library

Research Paper 1. Tel Aviv, 2007.

- Aharoni, Y. "The Solomonic Temple, the Tabernacle and the Arad Sanctuary", in: H.A. Hoffner Jr. (ed), *Orient and Accidence*, Kevelaer, 1973, pp.1-8;
- Alt, A. *Kleine Schriften zur Geschichte des Volkes Israel*. Auswahl in einem Band, Berlin: Evangelische Verlags-Anstalt, 1959.
- Avisur, S. "The Influence of Western Technology on the Economy of Palestine during the Nineteenth Century", in Maoz (Ed.), *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jerusalem, Jerusalem, 1975.
- Baer, G. "The Impact Change on Traditional Society in Nineteenth Century Palestine", in Maoz (Ed.), *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jerusalem, 1975.
- Ben-Arieh, Y. *Jerusalem in the 19th Century*, Jerusalem, 1984.
- Ben Arieh, Y. "The Growth of Jerusalem in the Nineteenth Century", Annals *of the Association of American Geographers*, LXV (1975), pp. 252-269.
- Ben Arieh, Y. *The Rediscovery of the Holy Land in the Nineteenth Century*. Jerusalem, 1979.
- Ben-Dov, M. *The Omayyad Structures near the Temple Mount*. Jerusalem, 1971.
- Ben-Dov, M. *In the Shadow of the Temple. The Discovery of Ancient Jerusalem*, Harper and Row, New York (1985).
- Ben-Dov, M. "The Area South of the Temple Mount in the Early Islamic Period" in *Jerusalem Revealed*, ed. Yadin, Y., Israel Exploration Society, Jerusalem (1975) 97-101.
- Ben-Yahuda, N. *The Masada Myth. Collective Memory and Mythmaking in Israel*. Madison: University of Wisconsin Press 1995.

Digitized by Birzeit University Library

- Ben-Yehuda, N. *Sacrificing Truth. Ar- chaeology and the Myth of Masada*, Amherst, New York: Prometheus/Humanity Books 2002.
- Bruggemann, W. *The Land: Place as Gift, Promise and Challenge in Biblical Faith*, Philadelphia, 1977.
- Burgoyne, M. H. *Mamluk Jerusalem*, London, 1987
- Busse, H. "Omar's Image as the Conqueror of Jerusalem", in *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 8 (1986), pp. 149-168.
- Cahill, J. M. and D. Tarler. Excavations Directed by Yigal Shiloh at the City of David, 1978–1985, in H. Geva (ed.). *Ancient Jerusalem Revealed*. 2000, p. 31–45 (p. 38–40).
- Carmel, A. *Die Siedlungen der württembergischen Templer in Palästina 1868–1918. Ihre lokalpolitischen und internationalen Probleme*. Kohlhammer, Stuttgart 1973.
- Conder, C.R. *Tent Work in Palestine: A Record of Discovery and Adventure*, London, 1887.
- Davies, P. *In Search of Ancient Israel*, Bloomsbury Publishing, 2015.
- Defender, *Sir Charles Warren and Spion Kop*, London 1902.
- Dever, W. G. *Who Were the Early Israelites and Where Did They Come From*?. Wm. B. Eerdmans Publishing, 2006.
- Donner, H. *Pilgerfahrt ins Heilige Land*, Stuttgart 1979.
- Finkelstein, I. and Neil Asher, *David and Solomon: In Search of Bible's Sacred Kings and the Roots of Western Tradition*, New York, 2006.
- Gerber, H. *Ottoman Rule in Jerusalem 1890-1914*, Berlin, 1985.
- Gibson, S. "British Archaeological Work in Jerusalem between 1865-1967", in Eds. K. Galor and G. Avni, *Unearthing Jerusalem: 150 Years of Archaeological Research in the Holy*

Digitized by Birzeit University Library

City, Winona Lake, 2011.

- Goitein, S. "al-Kuds", in *Encyclopedia of Islam* (New Ed.)
- Goitein, S. "Jerusalem in the Arab Period (638-1099)", in *The Jerusalem Catheadra*, 2 (1982), pp. 168-196.
- Goitein, S. Jerusalem during the Arab Period," in *Jerusalem since the Period of the Second Temple to the Modern Times* (in Hebrew), pp. 50-70.
- Gold, D. *The Fight for Jerusalem: The Radical Islam, the West, and the Future of the Holy City*, Washington 2007.
- Greenberg, R. Towards an Inclusive Archaeology in Jerusalem: The Case of Silwan/the City of David, in *Public Archaeology*, 2009, 8.1, p. 35–50.
- Greenberg R. and A. Keinan. *The Present Past of the Israeli-Palestinian Conflict: Israeli Archaeology in the West Bank and East Jerusalem Since 1967*.
- Greenberg R. and A. Keinan. *Israeli Archaeological Activity in the West Bank and East Jerusalem: A Sourcebook*. Ostracon Press, 2009. 180 pp. digital database.
- Hübner, U. "The German Protestant Institute of Archaeology", in in Eds. K. Galor and G. Avni, *Unearthing Jerusalem: 150 Years of Archaeological Research in the Holy City*, Winona Lake, 2011, p. 59-72.
- Ibn Taymiyyeh. "A Muslim Iconoclast (Ibn Taymiyyeh) on the 'Merits' of Jerusalem and Palestine", by Charles D. Matthews, *Journal of the American Oriental Society*, volume 56 (1935), pp. 1–21. [Includes Arabic text of manuscript of Ibn Taymiyya's short work *Qa'ida fi Ziyarat Bayt-il-Maqdis*.
- Inbar, E. "Netanyahu Can Say No" in *BESA Center Perspectives Papers No. 103*, March 25, 2010.
- Ir Amim. *Dangerous Liaison: The Dynamics of Rise of the*

Digitized by Birzeit University Library

Temple Movements and Their Implications, Jerusalem 2013

- Kamel, L. "The Impact of 'Biblical Orientalism' in Late Nineteenth- and Early Twentieth-Century Palestine", in *New Middle Eastern Studies*, 4 (2014), 1-15.
- Kenyon, K. M. *Digging Up Jericho* London, 1957.
- Kenyon, K.M. *Excavations at Jericho*, Vol. III., London, 1981.
- Kenyon, K. M. *Archaeology in the Holy Land*, first edition, London 1960
- Khalidi, R. *Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness*, Columbia University Press, 1997.
- Kister, M. J. "You shall only set out for three Mosques. A Study of an Early Tradition", *Le Museon*, LXXXII, Louvian, 1969, pp. 178-191.
- Kitchen, K. *On the Reliability of the Old Testament*, Cambridge, 2003
- Kohl, P. L and M. Kozelsky, and N. Ben-Yehuda (eds.) *Selective Remembrances: Archaeology in the Construction, Commemoration, and Consecration of National Pasts*. Chicago: University of Chicago Press, 2007.
- Krak R. and M. Oren-Nordheim, *Jerusalem and Its Environs: Quarters, Neighborhoods, Villages, 1800-1948*, Jerusalem, 2001.
- Niels Peter Lemche, N. P. *The Israelites in History and Tradition*, Westminster, 1998
- Levy T. and D. Freedman, "William Foxwell Albright 1891-1971: A Biographical Memoir", *National Academy of Sciences*, Washington, D.C., 2009
- Lewis, B. "Jihad vs. Crusade. A Historian's Guide to the New War", *Wall Street Journal* 27/09/ 2001.
- Masalha, N. *The Bible and Zionism: Invented Traditions,*

Digitized by Birzeit University Library

Archaeology and Post-Colonialism in Palestine-Israel. London: Zed, 2007.

- Matsson, E. D. *The American Colony of Jerusalem: A Brief Historical Outline*, USA, 1992.
- Matthews, C. D. "A Muslim Iconoclast (Ibn Taymiyyeh) on the 'Merits' of Jerusalem and Palestine", *Journal of the American Oriental Society*, volume 56 (1935), pp. 1–21. (Includes Arabic text of manuscript of Ibn Taymiyya's short work *Qa'ida fi Ziyarat Bayt-il-Maqdis*).
- Mazar, A. *Archaeology of the Land of the Bible*. 10,000-586 B.C.E. New York, 1992.
- Mazar, B. "The Archaeological Excavations near the Temple Mount", in *Jerusalem Revealed*, ed. Yadin, Y., Jerusalem (1975) 25-40.
- Mazar, E. "Did I Find David's Palace?" *Biblical Archaeological Review*, January/February 2006.
- Moore, M and B. Kelle, *Biblical History Israel's Past*, Michigan 2011.
- Morris, B. *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949*, Cambridge, 1988.
- Morris, B. *Righteous Victims*, New York, 1994.
- al-Natsheh, Y. S. The Digital Temple, *Jerusalem Quarterly File*, October 19, 2003, pp. 53-58.
- Nicholson, N. *The Pentateuch in the Twentieth Century: The Legacy of Julius Wellhausen*, Oxford University Press 2002.
- Perdue, C. R. *The Politics of Archaeology in Israel*, unpublished Master's Degree Thesis, University of Oregon, Interdisciplinary Studies, 2005.
- Piterberg, G. *The Returns of Zionism: Myth, Politics and*

Digitized by Birzeit University Library

Scholarship in Israel, London and New York, 2008.

- Prevost, S. "A Perfect Map of Palestine (1872-1880): Biblical Geography, Intelligence and Prophecy", in *Science and Empire in the Nineteenth Century: A Journey of Imperial Conquest and Scientific Progress*, (eds. C. Delmace, C. Vandamme and D. Andreolle), Cambridge 2010, pp. 13-24
- Prior, M. "The Bible as Instrument of Oppression", *Scripta Bulletin*, 25 (1995), pp. 2-14.
- Prior, M. *The Bible and Colonialism*, 1997
- Prior, M. *The Western Scholarship and the History of Palestine*, London, 1998.
- Pullan, W. and Maximilian Gwiazda. "City of David: Urban Design and Frontier Heritage", *Jerusalem Quarterly File*, Autumn 39, 2009, pp 29-38.
- Rapoport, M. 2006. The Republic of Elad. *Ha'aretz*, 23 April 2006.
- Reiter, Y. *Jerusalem and its Role in Islamic Solidarity*, New York: Palgrave Macmillan, 2008.
- Segev, T. *One Palestine Complete*, New York, 1999.
- Silberman, N. *A Prophet from Amongst You: The Life of Yigael Yadin, Soldier, Scholar, and Mythmaker of Modern Israel*, Addison Wesley 1994 ,.
- Silberman. N. "Archaeology, Ideology, and the Search for David and Solomon", in eds. A. Vaughn and A. Killbrew, Jerusalem *in Bible and Archaeology: The First Temple Period*, Atlanta 2002, pp. 395-404.
- Smith, G. A. *The Historical Geography of the Holy Land*, London, 1894.
- Sivan, E. "The Beginning of the Fada'l al-Quds Literature", in

Digitized by Birzeit University Library

Israel Oriental Literature, 1971, pp. 263 ff.

- Sivan, E. "The Sanctity of Jerusalem in Islam" in *Notes and Studies on the History of the Holy Land under Islamic Rule* (in Hebrew), pp. 35ff.
- Thompson, T. L. *Mythic Past* Biblical Archaeology and The Myth of Israel, Basic Books, 1999.
- Thompson, T. L. *The Historicity of the Patriarchal Narratives*, Berlin, 1974.
- Warren, C. *Underground Jerusalem*, London 1876.
- Whitelam, K. *The Invention of Ancient Israel: The Silencing the Palestinian History*, London, 1996.
- Wigram, J. C. *The Geography of the Holy Land*, London 1832.
- Wilkinson, J. *Jerusalem Pilgrims before the Crusades*, Westminster, 1977.
- Wilkinson, J. *Jerusalem as Jesus Knew it: Archaeological Evidence*, London 1978.
- Williams, W. W. *The Life of General Sir Charles Warren*, 1941
- Wright, T. *Early Travels in Palestine*, London 1848.
- Yadin, Y. *Masada: Herod's Fortress and the Zealots' Last Stand*. New York, 1966.
- Yadin, Y. (ed.) *Archaeology in the Holy City 1968-1974*. Jerusalem, 1976.
- Yas, J. (Re)designing the City of David: Landscape, Narrative and Archaeology in Silwan. *Jerusalem Quarterly File* Winter 2000, p. 17-23.
- Zobel, H.-J. "Geschichte des Deutschen Evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des Heiligen Landes von Anfaenge bis zum Zweiten Weltkrieg", in *ZDPV*, 97, 1981, S. 1-11.

Digitized by Birzeit University Library

صفحات الكترونية

- http://www.biu.ac.il/SOC/besa/perspectives103.html
- http://www.cityofdavid.org.il/IrDavidFoundation_Eng.asp
- http://www.icej.org
- https://int.icej.org/about-us
- http://www.acrseg.org/40843
- http://www.bibleinterp.com/articles/albright5.shtml
- http://www.ebaf.edu/wp-content/uploads/2013/03/Gaza-2005-2011.pdf
- http://www.cbrgroup.org/pages.asp?pageid=106080
- http://www.independent.co.uk/news/world/the-pictures-that-prove-the-guilt-of-moshe-dayan-hero-and-thief-1278480.html
- http://www.jhsonline.org/Articles/article_27.htm
- https//:www.nytimes.com/2005/08/05/world/africa/king-davids-fabled-palace-is-this-it.html
- http//:www.wafainfo.ps/atemplate.aspx?id10874=
- https//:paltoday.ps/ar/post312065/
- http//:www.aqsaonline.org/news.aspx?id3498=
- http//:www.cityofdavid.org.il/IrDavidFoundation_Eng.asp
- http//:templemountfaithful.org/
- http://www.aljazeera.net/news/alquds/2018/8/25
- http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=737648
- http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=736251
- http://arabic.rt.com/news/765131
- http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=735041
- http://raya.com/news/pages/88554489-af91-4498-b2fb-421cdce98661

Digitized by Birzeit University Library

- http://www.palestineinarabic.com/Docs/treat_aggr/Peace_Treaty_Between_Israel_And_Jordan_1994_A.pf
- http://www.alaraby.co.uk/politics/2015/10/18
- https://www.youtube.com/watch?v=x-uDsACwSM8
- http://oraib.alqudscenter.org/arabic/article/9477#.Vkj8-HYrLIU
- http://www.shabiba.com/article/106526

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

ما تزال القدس، كما كانت، مركز اهتمام من قبل العالم، سواء لقيمتها الدينية المتفردة باعتبارها قبلة المسلمين الأولى ومهد المسيح عليه السلام، أو من حيث قيمتها الحضارية وإجماع العالم على وجوب حمايتها وصيانتها لتبقى معلما حُرّا يُكرس قيم التآلف بين بني البشر، لمن يُقَدر هذه المكانة السامية ويسعى إلى صيانتها.

وقد كتب المؤرخون عن فضائل الأرض المباركة وسكانها ونقلوا أجواء الطمأنينة والهدوء التي سادت بين سكانها ومدنها، حتى حل زمن الاحتلال ورُفعت الرايات للسيطرة على المدينة [illegible] معالم تاريخها بالتدليس تارة وبالرواية الملفقة طورا، فاهتم البحاثة بفضح [illegible] الأكاذيب وتبيان زيفها.

في هذا الصدد يرفض [illegible] ما من شأنه أن يلحق الأذى برمزية المدينة ووضعها القانوني ويرهن [illegible] والإصرار على التمادي في إيذائها وطمس هويتها الدينية والحضارية [illegible] يعاكس الجهود المبذولة [illegible] المناخ الملائم لإقامة السلام على أسس الشرعية الدولية والقرارات الأممية ومبادرة السلام العربية، التي تؤكد، جميعها، على ضرورة المحافظة على الطابع الخاص للمدينة المقدسة، وعدم المساس بوضعها القانوني.

من هُنا يأتي اهتمام وكالة بيت مال القدس الشريف، في إطار الاختصاصات المخولة إليها، بنشر الدراسات المُحكَّمة حول المدينة وتاريخها وعمارتها، ومكانتها الدينية والحضارية، للمساهمة في بناء وعي دولي إنساني نوعي قادر على تفهم المرحلة بكل زخمها السياسي والاجتماعي ويستلهم رؤى إستراتيجية تعي التاريخ المشترك للشعوب والأرض المشتركة والمصير المشترك، وتوظيف الإمكانيات المتاحة والمقومات المشتركة لبناء مستقبل يتسع للجميع.

غير أن هذا الوعي، لا يجب أن يتشكل حصريا في نظرنا حول طرح «إسلامية القدس» والدفاع عنه لمجرد الرغبة في دحض مزاعم «يهودية» المدينة، بل يتعدى ذلك إلى تكريس وضعها الإنساني العالمي الجامع، الذي يقوم على توازن عميق بين حقوق المسلمين وحقوق غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، من دون تسخير للعمران أو الآثار للتأثير على التوازن الطبيعي والجغرافي والديمغرافي [illegible] المقدسة، كما تفعل طبقة من الكتاب والمؤرخين الإسرائيليين.

وكالة بيت مال القدس الشريف

ISBN 978-9954-9278-7-8

Digitized by Birzeit University Library